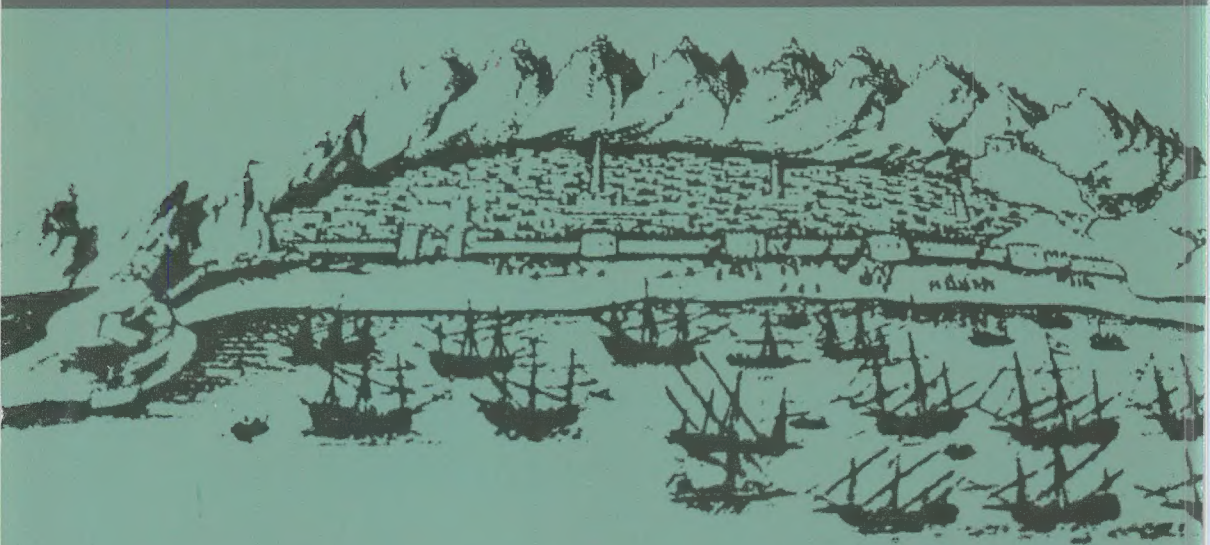


مركز الدراسات والوثائق



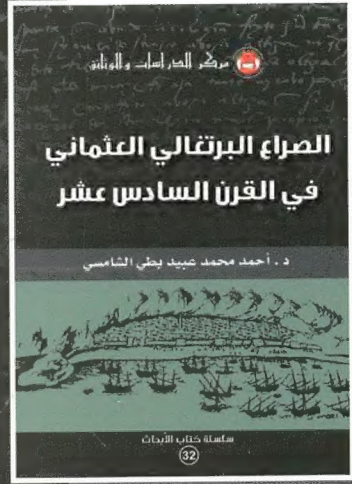
الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر

د. أحمد محمد عبيد بطي الشامي



سلسلة كتاب الأبحاث

هذه الكتاب



واحد من البحوث التي تساهم في الكشف عن ملابسات تاريخية مهمة ، والتي تصور الصراع البرتغالي العثماني في السادس عشر ، حيث واكب ذلك أمور كثيرة ، وأحداث متوالت ، وصراعات ومنافسات دولية ، وتاريخ عصفت به أهوجبت الرؤيا السليمة عن أنظار المؤرخين .

والكتاب يستعرض بدء ظهور البرتغالي على المسرح السياسي المحيط الهندي في القرن السادس عشر ، حيث مخرت اساطيل البحار متجهة إلى بلاد الشرق ، فصارت لهم الكلمة العليا ، وأضرارهم الفادحة موائى شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا زاد في محنة هذه الديار .

يجيء هذا الكتاب بوصفه خطوة رائدة في كشف الغموض ، والحقيقة لتلك الفترة العصبية .



د . أحمد محمد عبيد بطي الشامي

- ليسانس آداب تخصص - تاريخ حديث - جامعة بيروت العربية (1979م).
- ماجستير آداب - تاريخ - جامعة القاهرة (1989م).
- دكتوراة فلسفة - تاريخ حديث - جامعة القاهرة (1996م).
- رئيس قسم شؤون الموظفين (1974 - 1977 م).
- نائب مدير منطقة رأس الخيمة التعليمية (1977 - 1978م).
- مدير منطقة رأس الخيمة التعليمية بالوكالة (1978 - 1979م).
- مستشار ثقافي بالقاهرة (1980 - 1985م).
- مدير إدارة تعليم الكبار بوزارة التربية والتعليم (1985-1987م).
- مدير إدارة التعليم المستمر بوزارة التربية والتعليم (1999 - 2003م).
- موجه إداري بمنطقة رأس الخيمة التعليمية (2003 - حتى تاريخه).
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- محاضر بجامعة الإمارات العربية المتحدة.
- محاضر بجامعة الاتحاد.

له عدة مؤلفات أهمها :

- الصراع البرتغالي العثماني في شرق أفريقيا في القرن السادس عشر (1991).
- الهنود في كينيا البريطانية خلال الفترة (1886 - 1964م).
- له عدة أبحاث نالت على جوائز علمية.



الطبعة الثانية

موافقة المجلس الوطني للإعلام رقم : 1/100122/34147 - في 2013/05/07 م
جميع الحقوق محفوظة

رقم التصنيف : ش.أ.ص - 953 ، 0953

الصراع البرتغالي العثماني

في القرن السادس عشر

تأليف : د. أحمد محمد عبيد بطي الشامسي

إصدار مركز الدراسات والوثائق

رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

عدد الصفحات 390

مقاس : 24 / 17

تصميم الغلاف الأستاذ : لؤي أحمد كحلة



مركز الدراسات والوثائق

ص.ب : 1559 - رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

هاتف : 00971 - 07 - 2331111 / فاكس : 00971 - 07 - 2331000

DOCUMENTARIES & STUDIES CENTRE

Tel.: 00971-7-2331111 / Fax: 00971-7-2331000

P.O.Box : 1559 , Ras Al Khaimah, U.A.E

E.mail: dscgrakl@emirates.net.ae

www.dsc.rak.ae

الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز



الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر

د . أحمد محمد عبيد بطي الشامي

الطبعة الثانية 2013 م

الإهداء...

إلى من شجعاني على العلم منذ صغري
المرحومين أمي وأبي
والى الصابرة التي تحملت الكثير ، رفيقة عمري زوجتي
والى بسمه الحياة وأملها ... أبنائي
وخاصة ابنتي الغالية فاطمة أحمد
والى كل من مدّ يد العون لي في إنجاز هذا البحث المتواضع

أحمد محمد عبيد بطي الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ظهر البرتغاليون على المسرح السياسي في المحيط الهندي في القرن السادس عشر الميلادي، ومخرت أساطيلهم البحار متجهة إلى بلاد الشرق، حيث صارت لهم الكلمة العليا في هذه البلاد، وأصاب أضرارهم الفادحة موانئ شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، مما زاد في محنة هذه الديار التي كانت عند مقدمهم تعيش في ضعف عام، وتمزق إقليمي، مما أضعف قدرتها على مقاومتهم، بالرغم من تصدي بعض القوى الإسلامية لهم في بداية الأمر، وكان لهم الأكر للبرتغاليين الاستيلاء على الثروات الاقتصادية، ولا سيما التجارية منها، التي كانت تعجّ بها المنطقة، ولإضعاف الرابطة القومية التي تربط سكان شبه الجزيرة العربية بشرق أفريقيا، هذا ما كانت عليه الأوضاع في تلك الفترة.

وبالرغم من هذا الجو القاتم، وفي الثلث الأول من القرن السابع عشر الميلادي، ظهرت الدولة اليعربية العمانية، التي كان لها المقام السامي في النضال المرير، في تحرير سواحل شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، وكانت هذه الدولة اليعربية العمانية، مثلاً للعدل ومنارة للحق، ومشعلاً للعلم، ونبراساً للمساواة، هذا ما قامت عليه أسس هذه الدولة، إلى أن حاد آخر حكامها عن تلك القيم والمثل الصحيحة، فهوت في الحضيض، وتلاشت تماماً، فله الأمر

من قبل ومن بعد.

وقد جاء بحث الأستاذ أحمد محمد بطي، (الصراع البرتغالي العثماني في شرق أفريقيا في القرن السادس عشر الميلادي)، ليضرب بسهم وافر في الكشف عن ملابسات تلك المرحلة التاريخية، التي حددها في بحثه، والتي أكتبها أمور كثيرة، من صراعات ومنافسات دولية، وتاريخ عصفت به أهوال، حجبت الرؤيا السليمة عن أنظار المؤرخين، فجاء بحث الأستاذ أحمد محمد بطي خطوة رائدة في كشف الغموض، وجلاء الحقيقة لتلك الفترة العصبية.

وانطلاقا من مسيس الحاجة لدراسة تلك الفترة، فقد جاء بحثه مفيدا لمن يتصدى للبحث في هذا المجال، والله الموفق ، ، ،

عمران بن سالم العويس

مدخل

مدخل

* * *

كان لنهاية المسلمين في الأندلس على يد إيزابلا و فرديناند سنة ١٤٦٩ م أثر شديد على الكيانات الإسلامية في معظم بقاعها المختلفة.

و تبع ذلك ظهور الإمبراطورية البرتغالية في البحار الشرقية متزعمة حركة كشفية و دينية أنتت بثمار مختلفة على الجانبين الإسلامي و المسيحي. وقد لبست هذه الحركة ثوبا دينيا حمل البرتغاليون-على وجه الخصوص-لواءه لتعقب المسلمين امتدادًا للحركة الصليبية التي بدأت بقصد تخلص الأماكن المقدسة المسيحية من أيدي المسلمين وشل حركتهم الاقتصادية بالدوران حول أفريقيا بعيدا عن طرق التجارة القديمة التي يسيطر عليها المسلمون.

وتمكن فاسكو دي جاما من إكمال مابدأه الملاحون البرتغاليون و اجتياز طريق رأس الرجاء الصالح و الوصول إلى شرق أفريقيا و الهند في عهد الملك البرتغالي دون مانويل (١٤٩٥-١٥٢١م).

وفتحت حينئذ صفحة جديدة بين المسلمين في الشرق و المسيحيين في الغرب حيث عمد البرتغاليون إلى مدافعة الوجود الإسلامي في تلك البقاع و حاولوا طردهم منها أو كسر شوكتهم و تحويل قوافل التجارة إلى عاصمتهم لشبونة.

وتمكن البرتغاليون من تحقيق كثير من هذه الأهداف بفضل الأسطول البحري الذي أعدوه ليتمكن لهم من السيطرة على البحار و سواحلها الغنية و الاستراتيجية.

و كان على الكيانات الإسلامية الكبيرة في ذلك الوقت مصارعة هذا الخطر الداهم فتصدت الدولة المملوكية بمساعدة من العثمانيين لهؤلاء الغزاة الجدد إلا أن المماليك فشلوا في تحقيق نتائج تذكر في هذا الميدان.

وبعد أن ورث العثمانيون الممتلكات و المسئوليات المملوكية كان عليهم التصدي-

بكل قوة- للعبث البرتغالي بالسواحل العربية و الإسلامية .

فجرد العثمانيون عدة حملات كان على رأسها حملة سليمان الرئيس، وحملات أخرى تلتها إلا أنها لم تكن بالقوة التي تستطيع بها مواجهة الأسطول البرتغالي.

و تبع ذلك استنجد الممالك الإسلامية في الهند بالسلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٠م) لمداغة الوجود البرتغالي الذي تمثل في قلاع حصينة وسفن حربية باتت تنشر الذعر و الدمار في السواحل و الإمارات الإسلامية .

فأعد السلطان العثماني أسطولاً عظيماً في السويس تحت قيادة سليمان باشا الخادم الذي أبحر من السويس إلى جدة ثم عرج على عدن فاستولى عليها بعد الغدر بعاهلها عامر بن داود و أخذ طريقه إلى الهند بعد أسره لمجموعة من السفن البرتغالية كانت رابضة في ميناء شحر.

و على الرغم من تمكن الحملة العثمانية الضخمة من الساحل الهندي ومحاصرتها لأقوي القلاع البرتغالية في ديو حتى أوشكت على التسليم و الوقوع في قبضة العثمانيين، إلا أن القائد سليمان الخادم أصدر أوامره بفك الحصار و العودة من حيث أتى دون تحقيق الهدف الأساسي الذي من أجله أعدت الحملة.

و تتابع الصدام بعد ذلك بين السفن البرتغالية و السفن العثمانية على سواحل شرق أفريقيا و البحر الأحمر و المحيط الهندي طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر.

كان من أهم مراحل هذا الصراع مادار في منطقة الشرق الأفريقي و خاصة على الساحل الحبشي منه.

فقد انضم العثمانيون إلى الممالك الإسلامية في الحبشة، بينما تعاون البرتغاليون مع مملكة الحبشة المسيحية، ودارت رحى معارك بين الجانبين وقد كانت نتائجها سجالاً بين الفريقين و لم تسفر في النهاية عن نتائج حاسمة لأحدهما على الآخر.

أما في الخليج العربي فقد تقاسم العثمانيون و البرتغاليون السيطرة على المواقع

الاستراتيجية، فبينما تمركز البرتغاليون في هرمز كان مركز العثمانيين يقع في البصرة، وتراوحت الإمارات الأخرى : كالبحرين و القطيف و الإحساء و غيرها بين الجانبين.

ونظرا لعدم تمكن أحد المتصارعين من إحراز نصر نهائي على غريمه فقد كانت هناك محاولات لرأب الصدع و قيام تعاون تجاري بينهما، ورغم تبادل السفراء بين لشبونة و إستانبول في محاولة للصلح و التبادل التجاري، إلا أنها لم تسفر في النهاية عن نتائج تذكر.

أما عن أهم الأسباب التي حدثني إلى اختيار موضوع البحث فهي:

أولا: هذا الصراع الذي دار بين الممالك و العثمانيين و كذلك عرب الخليج و البحر الأحمر و مسلمي الهند من جهة، و البرتغاليين من جهة أخرى لم يأخذ حقه من اهتمام الباحثين وإن تعرض الباحثون سواء أكانوا عرباً أم أجانب لبعض جوانب الصراع، لكنهم لم يعطوا هذه الفترة الزمنية الهامة حظها من البحث، وإظهار الدور البطولي الذي لعبه أهالي المناطق التي شملها الغزو البرتغالي.

ثانيا: ماحل باقتصاد هذه المناطق بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وانتقال السيطرة من أهل الشرق إلى أهل الغرب بعد تحويل طريق التجارة التقليدي عن المواني و الأراضي العربية إلى الطريق الجديد. لذا كان اهتمامي بالكتابة في هذا الموضوع لما له من أهمية بالغة في تاريخ العرب سواء في أفريقيا أو في آسيا.

و موضوع البحث «الصراع البرتغالي العثماني في شرق أفريقيا في القرن السادس عشر ينسحب على الصراع سواء كان في الشرق الأفريقي و مداخل البحر الأحمر أو في الساحل العماني و الخليج العربي و المحيط الهندي، لأن هذه الأماكن الرئيسية هي التي دار فيها الصراع المملوكي البرتغالي و بعده العثماني البرتغالي.

هذا بالإضافة إلى أنني من أحفاد أبناء الخليج الذين أذاقهم البرتغاليون عذابا وعذبوا بمقدراتهم فترة طويلة، مما دفعني إلى البحث و الكتابة في تاريخ هذا الصراع الذي كان مسرحه سواحل الخليج و شرق أفريقيا.. الخ.

تلك هي بعض الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع للبحث، و عندما طرحته على أستاذي المشرف، وجدت منه تشجيعا و دفعا للأمام موجهها و ناصحا و مرشدا إلى المنهج التاريخي القويم في الدراسة و التقصي و البحث.

أما عن الصعوبات التي صادفتني فهي متعددة خاصة بندرة الوثائق المنشورة و غير المنشورة.

و في بداية بحثي عن الوثائق و المصادر سافرت إلى تركيا، إلا أنني عدت دون فائدة، لأن الحصول على الوثائق هناك شبه مستحيل، و كنت قاصدا الدكتور أوزبران كأحد العاملين في أرشيف الوثائق العثمانية بتركيا، لكن لم يحالفني الحظ فقد نقل رئيسا لقسم التاريخ في جامعة أزمير.

و لكنني حصلت على كتابين له أحدهما مترجم إلى العربية و الآخر بالتركية و كل منهما تعرض لفترة البحث.

أما عن دار الوثائق القومية بالقاهرة فقد أفاد العاملون بها عن عدم وجود وثائق خاصة بتلك الفترة تتعرض لموضوع بحثي.

ولحسن الحظ تمكنت من العثور على مجموعة من الوثائق البرتغالية غير منشورة من مركز الوثائق بدولة الإمارات و الصعوبة في هذه الوثائق أنها لم تكن مترجمة باللغة العربية، بل مكتوبة باللغة اللاتينية، ولكن بفضل الله تعالى تغلبت على بعض الصعوبات بمعاونة بعض العارفين باللغة اللاتينية.

أما عن دار الكتب المصرية فقد حصلت منها على بعض المصادر الأصلية كما أن مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة أمدتني بكثير من المراجع الهامة.

وقد استقيت مادتي العلمية في هذا البحث من عدة مصادر متنوعة أهمها:

أولا: الوثائق البرتغالية غير المنشورة و المنشورة، منها المحفوظة بالأرشيف البرتغالي الوطني في لشبونة توري تومبو: A.N.T.T. و بعض من هذه الوثائق بالخط العربي على شكل رسائل من الأمراء و القادة المكلفين من قبل ملك البرتغال

ونائبه، وكشفت هذه الوثائق عن مدى تسلط البرتغاليين و عن تصرفاتهم تجاه سلاطين الدويلات الإسلامية .

ثانيا: كما استقيت مادتي العلمية من بعض المصادر المعاصرة للأحداث ومن المؤلفات التي تتصل بالموضوع أرخها معاصرون أو قرييون لتلك الأحداث .

ثالثا: و بعض المؤلفات التي تناولت بعض جوانب موضوع البحث بصفة خاصة.

رابعا: من أهم المصادر التي استعنت بها المخطوطات غير المنشورة، وهي: عبدالرحمن بن علي الديبع : قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون.

و الشبلي اليمني (جمال الدين بن محمد بن أبي بكر السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر.

خامسا: ومن المصادر المنشورة: ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي) : بدائع الزهور في وقائع الدهور . ويعد من أهم مصادر البحث .

و ابن إياس مؤرخ مصري من مؤرخي القرنين التاسع و العاشر الهجريين،الخامس عشر و أوائل السادس عشر الميلادي، وقد عاصر انهيار سلطنة الماليك علي أيدي العثمانيين، و عبور البرتغاليين رأس الرجاء الصالح و بداية الجهاد ضدهم في البحر الأحمر و المحيط الهندي.

وقد استفاد البحث فائدة كبيرة من الحوادث التي دونها ابن إياس في الفترة التي عاصر وقائعها منذ بداية القرن العاشر الهجري- السادس عشر الميلادي، فقد أسهب في وصف تدهور الحالة الاقتصادية في الدولة المملوكية بعد عبور البرتغاليين رأس الرجاء الصالح و تحركاتهم في المحيط الهندي، كما أمدنا ابن إياس بمعلومات قيمة عن مراحل تجهيز الحملات التي بعث بها السلطان الغوري إلى المحيط الهندي للتصدي للبرتغاليين، و مصير هذه الحملات.

وقد استفاد البحث من كتاب زين الدين تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين . . .وهو من أهم و أقدم المصادر العربية التي اقتصر على ذكر أحوال

الوجود البرتغالي في المحيط الهندي، و هذا المصدر أمدني بصورة واضحة عن الأهداف الصليبية و الاقتصادية التي دفعت البرتغاليين لاجتياز رأس الرجاء الصالح، وسرد الكتاب إغارات البرتغاليين على سواحل المحيط الهندي و أشار إلى الحملات التي بعث بها سلاطين الممالك إلى الساحل الهندي ٩١٤هـ / ١٥٠٨م وأيضا الحملات التي بعث بها العثمانيون عام ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م.

أما كتاب قطب الدين النهروالي «البرق اليماني في الفتح العثماني»، فيعد من المصادر الهامة لهذا البحث، فقد تناول النهروالي في هذا الكتاب موضوع ضم العثمانيين بلاد اليمن في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، و احتوي المؤلف على معلومات عن عبور البرتغاليين رأس الرجاء الصالح، و تحركاتهم في البحر الأحمر و لوأنه لم يكن موفقا في حديثه عن ابن ماجد عندما وصفه بأنه قارع القائد البرتغالي السكر عند إرشاده إلى طريق الهند.

و كتاب باننيكار «آسيا و السيطرة الغربية» ترجمة عبدالعزيز جاويد، أفاد البحث كثيرا عن فترة التواجد البرتغالي في الشرق الأفريقي و المحيط الهندي.

وكتاب جيان ، وثائق تاريخية و جغرافية و تجارية عن أفريقيا،.

و مؤلفات د.شوقي الجمل، و د. محمد عبد العال أحمد، و د. جمال زكريا. و أهم المراجع المطبوعة التي استقيت منها مادتي العلمية: السير أرنولد و يلسون: الخليج العربي مجمل تاريخ الخليج من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين، (ترجمة عبدالقادر يوسف)،

و أنور عبد العليم: ابن ماجد الملاح، أعلام العرب

و من أهم المصادر و المراجع الأجنبية: رسائل القادة البرتغاليين مترجمة إلى اللغة العربية استقيتها من كتاب لصالح أوزبران، الأتراك العثمانيون و البرتغاليون في الخليج العربي (ترجمة عبدالجبار ناجي).

أما المراجع الأجنبية، فأهمها البرت كامرير (M.A.KAMMERER) البحر

الأحمر فقد أمد الباحث بمعلومات عن الوجود البرتغالي في الشرق الأفريقي و المحيط الهندي و الخليج العربي و الحملات العثمانية ضد البرتغال.

و انجلوبيش (ANGELO PESCE) جدة «تصوير لمدينة عربية، أفاد البحث بمعلومات عن بناء سور جدة ، ووصول حسين الكردي القائد المملوكي و عن سير رحلته إلى الهند و مراجع أجنبية أخرى استقي البحث منها معلومات تخص مرحلة الصراع البرتغالي العثماني.

وقد قسم الباحث بحثه إلى مقدمة و تمهيد و أربعة فصول و خاتمة:

وقد عالج الباحث في التمهيد حالة البرتغال خلال العصر الإسلامي في الأندلس ثم انفصالها و سعيها للوصول إلى منافذ شرق أفريقيا.

و تعرض البحث في هذا التمهيد للكشوف الجغرافية و دوافعها التي كانت دوافع دينية و اقتصادية و سياسية و دور العرب فيها، و ختم التمهيد بالحديث عن الكشوف البرتغالية.

وفي الفصل الأول و هو بعنوان (الحملات البرتغالية للسيطرة علي تجارة شرق أفريقيا) أبرزت الجهود البرتغالية في إرسال الحملات المتتالية للسيطرة على هذه المنطقة و تتبعت تلك الحملات. كما تعرضت في هذا الفصل أيضا لمحاولة البوكيرك الاستيلاء على عدن وفشله في احتلالها. و ختمت هذا الفصل بالكتابة عن ردود الفعل من مختلف البلدان على سياسة الاحتكار البرتغالية، و كانت البلدان المتأثرة بهذا الاحتكار هي البندقية، و اليمن، و مصر، و الخليج العربي، و الساحل الشرقي، الأفريقي.

أما الفصل الثاني: فقد خصصته لدراسة دور العثمانيين في الشرق العربي والأفريقي ، و تناولت في هذا الفصل المدن و الإمارات العربية في الشرق العربي والأفريقي ورد الفعل المملوكي عند وصول البرتغاليين إلى الشرق. ثم تحدثت عن الغزو العثماني للشام و مصر و أثر ذلك في تحمل العثمانيين مسؤولية مواجهة الخطر البرتغالي و اتخاذ التدابير و الاستعدادات اللازمة له.

أما الفصل الثالث: فقد خصصته لدراسة مراحل الصراع البرتغالي العثماني وتضمن بداية مؤازرة العثمانيين للمماليك في مواجهة الخطر البرتغالي، ثم دلفت من هذه البداية إلى استعراض مراحل الصراع بين الدولتين. وشملت المرحلة الأولى: الصراع البرتغالي العثماني في البحر الأحمر والمحيط الهندي بما فيها حملة سليمان رئيس، و حملة سليمان باشا الخادم ١٥٣٨ م . وتضمنت المرحلة الثانية دور العثمانيين في مدافعة البرتغاليين عن شرق أفريقيا و تحدثت في هذه المرحلة عن القوي الحبشية والإسلامية . ثم حملة السويس التي أعدها البرتغاليون لتدمير الأسطول العثماني الرابض في هذا الميناء و أثر هذه الحملة و نتائجها على شرق أفريقيا وتبع ذلك الحديث عن معركة أوغلو ثم هذه المرحلة بتدخل البرتغاليين والعثمانيين في الصراع المذهبي بالحبشة و أثر ذلك على المنطقة. وأما المرحلة الثالثة فقد شملت الصراع البرتغالي العثماني في الخليج العربي بما فيها حملة بيرى على هرمز و مهمة علي رئيس لاستعادة السفن العثمانية من البصرة ، و الصراع على جزيرة البحرين. ثم ختمت هذه المرحلة و الفصل بدور علي ميرال في الخليج العربي و شرق أفريقيا.

أما الفصل الرابع و الأخير: فقد وقفت فيه على نتائج الصراع البرتغالي العثماني وفصلت فيه القول عن النتائج السياسية التي شملت محاولات الصلح و التعاون التجاري بين لشبونة و إستانبول و فشلها في ذلك. ثم النتائج الاقتصادية والحضارية والعسكرية.

وقي الخاتمة ذكرت النتائج التي أسفر عنها البحث و الإضافات التي أضافها . وقد ألحقت بالبحث عدة خرائط توضيحية و بعض الوثائق الهامة المتصلة بموضوع البحث.

كما سجلت ثبثا بالمصادر و المراجع التي اعتمد عليها البحث. و لايسع الباحث في النهاية إلا تقديم الشكر و العرفان لكل من عاونه في إتمام هذا البحث العلمي، وعلى رأس هؤلاء يأتي أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور / شوقي

عطا الله الجمل، أطال الله لنا في عمره فقد أفاض على من علمه وكرم خلقه وسعة صدره الكثير ... ووجهني خير توجيه حتى من الله علي بإنجاز هذا البحث المتواضع لأضعه بين أساتذتي الكرام ليرشدوني إلى طريق الصواب.

و أشكر أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور / رأفت غنيمي الشيخ، عميد كلية الآداب بالزقازيق و أستاذ التاريخ الحديث و المعاصر، على تفضله بمناقشتي ليغمرني بفيض علمه و كرمه.

و أشكر أستاذي الفاضل الدكتور / عبدالله عبدالرازق الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث بالمعهد لتفضله لمناقشتي لكي أتمكن من إثراء هذا البحث بتوجيهاته وإرشاداته لي وأشكره على ما قدمه لي من نصيح وإرشاد خلال مسيرتي العلمية بالمعهد .

و الله أسأل أن يوفقنا إلى علم أفضل و غد مشرق لنا وعلى الأمة العربية جمعاء .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

أحمد محمد بطي

التمهيد

التمهيد

*** البرتغال وسعيها للوصول
إلى منافذ شرق أفريقيا.**

*** الكشوف الجغرافية ودوافعها.**

*** دور العرب في الكشوف البرتغالية.**

*** الكشوف البرتغالية.**

التمهيد

قبل أن نتعرض للصراع البرتغالي العثماني في شرق إفريقيا لابد من الإشارة للظروف التي ظهرت فيها البرتغال كدولة أوربية في شبه جزيرة أيبيريا.

تقع شبه الجزيرة الأيبيرية في أقصى الغرب من العالم القديم، وما تلاها المحيط الأطلسي، فقد ظل لغزا مبهما عبر تلك العصور السحيقة، ولذلك سمي «بحر النظمات»، وهي محاطة بالبحار ماعدا ذلك الجزء الذي يربطها بأوروبا عبر جبال البرت أو البرنس في الشمال الشرقي منها، والتي تمثل حاجزا يفصل بين المنطقتين، وإلى الجنوب يفصلها عن إفريقيا مضيق جبل طارق. وهي أرض شاسعة تتخللها الأنهار والوديان وتكثر فيها سلاسل الجبال والهضاب الشاسعة، وهي غنية بمختلف الموارد الطبيعية، ومناخها يغلب عليه الاعتدال، وبينما يكثر نزول المطر في شمالها، فإن جنوبها يميل إلى الدفء (١)

وقد تعرضت شبه الجزيرة منذ العصور القديمة إلى هجرات بشرية، وتأثيرات عديدة و غزوات كثيرة عبر تاريخها الطويل، فجاءت إليها القبائل المختلفة من عدة جهات، و على فترات متفاوتة، هذا إلى جانب سكانها القدماء الذين عاشوا في أرجائها منذ آلاف السنين، عندما كان الإنسان يعيش في الكهوف حياة البداوة، ومازالت بعض هذه الكهوف موجودة تشهد على ذلك.

و أطلق المسلمون اسم الأندلس على البلاد بعد إكمال فتحها، وكلمة الأندلس مستمدة من اسم بعض قبائل القوط التي تسمى الوندال، والتي اشتهرت بعنفها وشراستها، (٢)

(١) طارق خالد: آثار الأندلس، أسبانيا ١٩٨٥م، ص: ١٥.

(٢) عبد الرحمن علي الحججي (دكتور): التاريخ الأندلسي، دمشق ١٩٧٦م، ص: ١٧١

وتاريخ الأندلس الإسلامي^(١) اتصف بالصراع بين المسيحية والإسلام، ومنذ عام ١٢٨ هـ - ٧٥٦ م وحتى ٨٩٧ هـ - ٣٤٩٢ م تعاقبت عصور مختلفة اتسمت بالقوة تارة وبالضعف والشقاق والتناحر تارة أخرى، وفي عصر بني نصر آخر عصور المسلمين بالأندلس استقلوا بحكم الجزء المتبقي من الأندلس بعد الشتات و التقوقع في الجنوب، و نجح القائد الأندلسي محمد بن نصر - و هو من مدينة أرجونة الواقعة بين جيان و قرطبة - من اتخاذ مدينة غرناطة عاصمة له، و أسس إمارة أندلسية جديدة في تلك المناطق الجنوبية من البلاد، ودامت مملكة غرناطة لمدة تزيد على قرنين و نصف القرن من الزمان (٦٣٥-٨٩٧ هـ / ١٢٣٨-١٤٩٢ م).

وطوال هذه المدة كانت معرضة للغزو و الاحتلال مما اضطرها لدفع الجزية لقشتالة^(٢)، وظلت هذه المملكة قوية صامدة في وجه الأعداء إلى أن دب الانقسام والتنافس بين أمرائها على السلطة^(٣). وقد هاجم فرديناند الخامس غرناطة واستولت جيوشه - بعد مقاومة باسلة - على مدينة الحامة ALHAMA جنوب غرب غرناطة وذلك في المحرم ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م^(٤)، وفي عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م استولي المسيحيون على حصن لورة، ثم على مدينة لوشة LOGO في عام ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م، وذلك بعد مقاومة عنيفة من قائدها الأمير الشيخ علي العطار، الذي دافع عن المدينة

(١) - عصر الولاة (١٢٨٩٢ هـ / ٧١١ - ٧٥٦ م).

٢ - عصر الإمارة (١٣٨ - ١٣٦ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م).

٣ - عصر الخلافة (٣١٦ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٩ - ١٠٣١ م).

٤ - عصر الطوائف (٤٢٢ - ٤٧٩ هـ / ١٠٣١ - ١٠٨٦ م).

٥ - عصر المرابطين (٤٧٩ - ٥٤١ هـ / ١٠٨٦ - ١١٤٦ م).

٦ - عصر الموحدين (٥٤١ - ٦٢٠ هـ / ١١٤٦ - ١٢٢٣ م).

٧ - عصر بني نصر في غرناطة (٦٢ - ٨٩٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٤٩٢ م).

(٢) عبد المنعم ماجد (دكتور) : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى - بيروت ١٩٦٦ م، ص: ٢٤٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن (دكتور) : تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب، القاهرة ١٩٣٣ م، ص: ١٠٦.

(٤) د. عبدالرحمن علي الحجى : مرجع سابق، ص: ٥٥٠ - ٥٥١.

بشجاعة. ثم واصلوا زحفهم واستيلاءهم على بقية المدن الواحدة تلو الأخرى.

ولنا أن نتساءل ماهي الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه المدن الواحدة تلو الأخرى بهذه السرعة المذهلة في أيدي مسيحيي إسبانيا؟

وقد تجمعت عدة أسباب رئيسية و غير منفصلة ساعدت على انهيار المدن الإسلامية في الأندلس و خضوعها لقبضة الإسبان، و من هذه الأسباب ماييلي:

(١) الزواج السياسي الملكي و الذي تم بين فرديناند أمير أرجونة و إيزابيلا ملكة قشتالة. و ذلك في عام ١٤٦٩م فقامت لهما مملكة مسيحية تشمل الإقليمين، وكان الزوجان يتفقان في عدائهما الشديد للمسلمين و تعصبهما للمسيحية فصمما على طرد المسلمين من بلادهم، وأخذوا يرسلان رسلهما لأمرء المسلمين مطالبين الجزية ومهددين بطردهم وإبادتهم.^(١)

(٢) اتحاد الإمارات المسيحية البابوية لها على الوحدة و محاربة المسلمين وتعقبهم أنسى وجدوهم، فلبس الجميع ثوبا واحدا وهو ثوب القومية و العصبية المسيحية، ضد المسلمين هناك، مما شجعهم على التصدي و القضاء على المقاومة العنيفة التي خاضها المسلمون ضدهم.^(٢)

(٣) الانقسامات و الفتن الداخلية التي ابتلي بها أمرء المسلمين و خاصة في غرناطة فقد وصل الأمر إلى حد بعيد من حب الملك و الإمارة لدرجة أن الخلاف دار بين الابن ووالده و اتحاد الابن مع عدو المسلمين ضد أبيه و عمه. فنجد أن أبي عبد الله الزغبى قد انضم إلى فرديناند ضد والده أبي الحسن الذي وقف موقفا حاسما ضد هذا الملك المسيحي حينما طلب منه أن يدفع له الجزية قائلا له: لقد مات الملوك الذين قبلوا دفع الجزية، أما أنا فجعلت من دار الضرب مصنعا للسيوف وأسنة الرماح.

(١) حسن مراد، (دكتور): تاريخ العرب في الأندلس، القاهرة ١٩٣٠م، ص: ١٤٦.

(٢) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص: ٢١٦.

فهذا موقف يحمد لهذا الرجل الذي لم يتخاذل أمام أعدائه وإن كان بعض المؤرخين رأوا أن هذا الموقف جلب الدمار على بلاده، و الحقيقة أنه امتنع هذا الأمير أو لم يمتنع فإن هؤلاء الأعداء مستمرون في مخططهم و هو طرد المسلمين من جميع الأماكن الإسبانية..

و هكذا نجد أن هذه الأسباب مجتمعة قد ساعدت على تحقيق النصر للمسيحين ونجاحهم في اقتلاع جذور المسلمين من بلادهم، وفي هذه الفترة الحرجة التي تمر بها الإمارات الإسلامية في الأندلس، كانت دولة الممالك في الشرق تئن تحت وطأة الخلافات الداخلية و المخاطر الخارجية المتمثلة في كل من الدولة العثمانية والصفوية الفارسية، لما لهما من أطماع في دولة الممالك، فكان الشرق الإسلامي وغربه يمر في مرحلة خطيرة، ثم على أثرها طرد المسلمون من الأندلس وسيطر الاتحاد الملكي الذي تم بين أرجونه و قشتالة حيث تكونت بينهما قوة كبيرة، استطاعت أن تستولي على غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية في سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م بعد حصار طويل و حرب استبسل فيها المسلمون دفاعا عما بقي في الأندلس، و لهذا ملك الفرنج الأندلس، و طويت صفحة الإسلام في إسبانيا والتي استمرت نحو ثمانمائة عام.^(١)

البرتغال خلال العصر الإسلامي في الأندلس:

أما عن البرتغال - موضوع بحثنا - فهي الجزء المنسي من الأندلس، أي تذكر إسبانيا عند ذكر الأندلس و ينسى ذلك الجزء الذي يشكل البرتغال اليوم، و هي الأرض الواقعة أقصى الغرب من شبه الجزيرة الأيبيرية، و كانت تسمى الغرب، وذلك لأنها الجزء الغربي من الأندلس، و مازال القسم الجنوبي من البرتغال يسمى الغربي حتى اليوم، وقد يعتقد البعض أن البرتغال لم تكن إسلامية بالقدر الذي كانت عليه إسبانيا خلال فترة حكم العرب، و ذلك بسبب قلة الآثار المعمارية التي

(١) حسن مراد : مرجع سابق، ص: ١٤٦.

توجد هناك، و الحقيقة أن المسلمين ظلوا في جنوب البرتغال حتى أواخر القرن الثالث عشر، ولكن البرتغاليين كانوا لا يستولون على بلد إلا محوا آثار المسلمين فيه، ومع ذلك فأبي زائر للبرتغال يرى من آثار الفترة الإسلامية شيئا كثيرا في عادات الناس وملابسهم وتقاليدهم وخاصة في الجنوب.

وهناك الشيء الكثير الذي يبيث حضارة العرب في البرتغال مثل القلاع العربية والوجوه التي تحمل جذور طابع إنسان الشرق العربي المسلم، بل هناك الأسماء مثل "تافيرا TAVIRA" وهي تعود بأصولها إلى (الفجيرة)^(١). وكذلك أسماء "الجرف" *ALGARVE

وهذه الأسماء الشائعة في جنوب البرتغال تثبت أن العرب مروا من هناك وزرعوا القلاع وتركوا بصماتهم، رغم نزوحهم و انهيار دولتهم القوية في الأندلس، فلم تتمكن محاولات الطمس من الوصول إلى كل شيء فيها.^(٢) والآثار العربية ليست خرساء فهي لا تزال تتحدث عن عظمة أصحابها.

و كانت البرتغال في أول الأمر إحدى الإمارات الخاضعة لقشتالة، إلى أن استطاعت أن تتحرر من السيطرة القشتالية وتنبد سيادتها نهائيا في بداية القرن الحادي عشر الميلادي على يد ملكها الفونسو الأول والتي وحدت جهودها على يديه و طردت المسلمين من لشبونة " LISBOA في عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م على يد الفونسو الثالث عم الفونسو الأول.^(٣)

(١) الفجيرة : إحدى الإمارات السبع التي تكون دولة الإمارات العربية المتحدة، وهي تقع على ساحل الإمارات الشرقي، ولا بد أن تكون إحدى الأسماء العربية التي نقل اسمها العرب الأصليون الذين توجهوا مع الحملات العربية لنشر الإسلام.

حسن قائد : نشر في مجلة الرياضة والشباب، مؤسسة البيان العدد ٣١٨، تحت عنوان « جنوب البرتغال الفجيرة تتحدث عن نفسها، الإمارات ١٩٨٧م، ص: ٣٢.

* انظر مواقع هذه المدن على الخريطة (ملحق رقم ١) ص: ٢٦٢.

(٢) حسين مؤنس : (دكتور) رحلة الأندلس، القاهرة ١٩٦٣م، ص ٣٩٣.

(٣) محمد فؤاد شكري وآخر (دكتور) : أوروبا في العصور الحديثة، القاهرة ١٩٦١م، ص: ٦٥.

و كانت النواحي الشمالية الغربية يطلق عليها- بورتو كاليس- نسبة إلى ميناء بورتوس كالي المعروف اليوم باسم- أبورتو- وكان يطلق على المنطقة الواقعة بين نهري المينودو وبرة "MONDEGO & DOURO" ويسمى في البرتغال - دورو - ثم اختصر إلى بورتو كال أو بوتوجال، ثم شمل المنطقة الواقعة بين نهري دورو وتيجو ثم منها إلى البحر المتوسط.

و أهم المدن من الشمال إلى الجنوب " بورتو " : "PORTO" و قلمرية أو كويمبرا "COIMBRA" و سنترين أو سانتاريم " SONTAREM" و لشبونة "LISBOA" و باجه "BEJA"^(١) وكانت لشبونة من أهم مواني الأندلس، وكانت فيها دار لصناعة السفن، كما كانت مركزا للأسطول البحري الإسلامي الذي كان يحمي سواحل الأندلس الغربية. و تقع لشبونة عند مصب نهر تيجو 'TEJO'* الذي يمر بمدينة طليطلة في وسط شبه الجزيرة و يستمر غربا حتى يصب في المحيط الأطلسي عند مدينة لشبونة العاصمة الحالية للبرتغال.

ولشبونة هي مدينة قديمة تقع على سيف البحر و تنكسر أمواجه على سورها، وهو رائع البنيان، و بابها الغربي عليه حنايا على أعمدة رخام مثبتة على حجارة من رخام و هو أكبر أبوابها، و لها باب غربي أيضا يسمى باب (الخوخة) يشرف على سرح فسح يشقه جدولان يصبان في البحر، و لها باب قبلي يسمى باب البحر و تدخل أمواج البحر منه عند المد، و باب شرقي يعرف بباب الحمة، و باب شرقي أيضا يعرف بباب المقبرة.^(٢)

و مازالت هناك أسوار بأعلى المدينة موجودة بعد ترميمها ، و بالقرب منها يقع

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور): أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص: ٥٤٨، القاهرة ١٩٦٦م.

* انظر الخريطة ملحق رقم (١) ص: ٢٦٢.

(٢) طارق خالد : مرجع سابق، ص: ١٠٤.

الحي القديم الذي يسمى (الفاما)^(١) بطرقاته الضيقة، و يقوم الحي على ربوة عالية، وهو يشبه قصبات المدن المغربية بشوارعه الضيقة الصاعدة الهابطة، وبيوته ذات الرجبات الواسعة، و على قمة الربوة أطلال الحصن الأندلسي والذي كان يقوم وسط القصبة، وقد كان السور الغربي ينحدر من هذا الحصن على سفح الجبل و يستمر في السهل حتى يصل إلى ساحل البحر.^(٢)

وعلى الرغم من الدمار الذي حل بالمعالم الإسلامية في البرتغال، فإنه لا تزال توجد في مختلف أنحاء البرتغال بقايا حصون وقلاع من العصور الإسلامية، لاسيما في المدن التي كانت لها بعض الأهمية كمواصم الأقاليم أو في المناطق ذات المواقع الاستراتيجية ومنها منطقة سنتر "SINTRA" التي اشتهرت بحصونها المنيعة، وكذلك مدينة بيجا "BEJA" وتقع على ربوة عالية يتوج قممتها حصن جدد عدة مرات مما أدى إلى تغيير طابعه الأصلي. و كانت بيجا من المدن المهمة، تحيط بها الحقول الزراعية الغنية، ومنها مدينة سلفس "SILVES" في الجنوب.

وكانت الولاية الشمالية الصغيرة الخاضعة لمملكة ليون وقشتالة هي النواة التي نشأت منها البرتغال على مراحل و اتجهت جنوبا لاحتلال المزيد من الأراضي، كلما ازداد ضعف المسلمين على فترات متفاوتة من التاريخ الأندلسي، وبالأخص خلال عصر الطوائف.

ويعود اسم البرتغال إلى أهم مدينة و اسمها بورتو "PORTO" و كانت تسمى بورتو كاليس في الماضي، وقد استقلت عن إسبانيا بعد حرب طويلة و استمرت في غزو

(١) الفاما: هذه التسمية محرفة من كلمة الحاق أو الحمة، وهي عين الماء الحامية الحارة ولها فوائد كثيرة صحية وطبية للعلاج والنظافة، وكانت هذه العيون موجودة في مختلف أنحاء الأندلس وتستعمل باستمرار..

- حسين مؤنس : مرجع سابق، ص: ٤٠٢، انظر موقع الحصن العربي القديم، بعد ترميمه (ملحق رقم ٢٣) ص: ٢٨٥.

(٢) طارق خالد : مرجع سابق، ص: ١٠٥.

المناطق الإسلامية جنوباً بكل عنف و شراسة حتى سيطرت على جميع أنحاء غرب الأندلس.

وقد قام كثير من الصليبيين الذين هزموا في فلسطين و مصر، بمساعدة الجيوش البرتغالية للانتقام من المسلمين، فقد وجدوا الفرصة سانحة لاحتلال البلاد العربية في الغرب بعد الفشل الذريع في المشرق العربي.^(١)

ويرجع الفضل في تأسيس هذه المملكة البرتغالية إلى أشهر حكامها و هو ملكها الفونسو الأول في عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م و الذي كان يسمى افونسو هنريك " AF-FONSO HENRIQUES'.

وبسبب الانعزال الجغرافي و الجبلي لهذه الدولة و الذي جعلها مولية ظهرها لقشتالة، و بسبب هذه الجبال المانعة ظل البرتغاليون بمعزل عن القشتاليين برغم ارتباط المصاهرة بينهما أحياناً^(٢). و أثر ذلك على أهمية مينائها و عاصمتها لشبونة، ولكن الذي ساعد الدولة على الظهور ضعف الحكم الإسلامي فيها و تخلصها منه، فشخصت إلى الوجود كدولة لها قوميتها منذ القرن الثالث عشر الميلادي.^(٣)

و استعانت هذه الدولة في عام ١١٤٧ م بأسطول صليبي مكون من الإنجليز والألمان وغيرهم في طرد المسلمين من لشبونة، ولم تكف هذه الدولة بطرد المسلمين بل ساهمت بملاحيتها في حرب الممالك و العثمانيين و الهنود في الشرق الإسلامي.

البرتغال وسعيها للوصول إلى منافذ الشرق الأفريقي:

كان الاتصال بأوروبا و الهند و الشرق الأقصى عن طريق البر بينما كانت

(١) محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندي، والخليج العربي، جذوره التاريخية وأبعاده، ١٩٨٤م، ص: ١١٣.

(٢) الفرد فيشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، تعريب د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٤م، ص: ٣٩٤.

(٣) شوقي الجمل (دكتور): تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة ١٩٨٠م، ص: ٧١. وللمزيد: انظر محمد عدنان مراد، مرجع سابق، ص: ١١٣ وما بعدها.

الحضارات القديمة القائمة في منطقة الشرق الأوسط وخاصة بلاد الهلال الخصيب كانت لها اتصالات واسعة مع الهند و بلاد الشرق إلا أن أوروبا لم يكن لها أي اتصال مع ذلك العالم البعيد، فكانت أوروبا في تلك العصور تمر بأحلك عهودها المظلمة وربما عرفت أوروبا الهند عن طريق الجند الهنود الذين كانوا يعملون تحت راية الأخمينيين (الفرس) أثناء محاولاتهم فتح اليونان، ولكن الاتصال الحقيقي تم إثر فتوحات الإسكندر المقدوني، الذي وصل إلى البنجاب أثناء محاولات لغزو الهند ٣٢٥-٣٢٧ ق.م.

وهناك اتصالات بين الشرق والغرب حدثت زمن السلوقيين، ومن بعدهم البارثيين وفي خلال الإمبراطورية الرومانية حتى سقوط الأخيرة في القرن الخامس الميلادي، ولعبت المدن الإغريقية التي أسسها الإسكندر دورا رئيسيا في حركة الاتصال بحرا و برا، وقد عرف المؤرخون والرواد الإغريقون الهند والطرق التجارية المؤدية إليها، كما عرف الجغرافيون الساحل الهندي والأرخبيل الأندونيسي، كما أن هناك زيارات للسفن الرومانية لسواحل الهند والشرق الإفريقي من قواعدها في مصر بعد اكتشاف الرياح الموسمية. وقد أثبتت ذلك الحفائر التي جرت في (اريكاميدا) وهناك شواهد كثيرة على قيام اتصالات واسعة بين الأقطار الآسيوية عن طريق منتجاتها. وكان الاعتقاد أن كل ما يرد أوروبا من الذهب واللؤلؤ والماس والروائح العطرية من الهند.^(١)

وبعد الفتوحات العربية سيطر العرب على المحيط الهندي والبحر المتوسط الشرقي وأصبحت بيدهم طرق التجارة، وبذلك أصبح الاتصال يجري عن طريقهم مع أوروبا إما عن طريق البحر المتوسط إلى اليونان وإيطاليا أو عن طريق إسبانيا العربية.

(١) ك. م. باننيكار: آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزیز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦٢ م، ص: ١٩

و أخذت شعوب أوروبا تتعرف على المنتجات الشرقية خاصة التوابل و الأنسجة الحريرية.

وجاءت الحروب الصليبية (١٠٩٦-١١٩٩م) لتصبح أوروبا أقرب ماتكون للشرق، و تغيرت موازين القوى في البحر المتوسط، و فتحت أبواب الشرق لأوروبا للاتصال التجاري خاصة بعد أن استقر الصليبيون في كل من فلسطين و سوريا، وأسسوا الدويلات المعروفة (باللاتينية) و تحولت تجارة البحر المتوسط إلى الإيطاليين، خاصة مدينتي البندقية و جنوة، حيث كانت لديهما معلومات كثيرة عن تجارة الشرق القادمة من الهند.^(١)

و بعد استرداد القدس على يد الناصر صلاح الدين في عام ١١٨٧م و انحصار النفوذ الأوروبي عن الشرق توقف الاتصال المباشر مع الشرق خاصة البري منه، و انتهى بعد القضاء على بقايا الصليبيين على يد المماليك، و أصبح هناك حاجز منيع بين الشرق و أوروبا، لأن الطريق بات تحت سيطرة الدولة المملوكية.

وقد شعر التجار الأوروبيون بعظم وفداحة خسارتهم، بعد فقدهم لقواعدهم التجارية في الشرق و تحول هذا العداء إلى عداء اقتصادي ضد تحكمهم في الطرق التجارية و كان هذا سببا رئيسيا لإيجاد مخرج لما هم فيه.

الكشوف الجغرافية و دوافعها:

كانت حركة الكشوف الجغرافية التي تم شطر كبير منها في القرن الخامس عشر الميلادي أهم نتيجة للنهضة الأوروبية، فقد استطاع الملاحون الأوروبيون أن يحققوا أعظم نصر في مجال الكشوف الجغرافية في أواخر ذلك القرن.

و تمثل هذا النصر في حادثين: كشف الأمريكيتين ابتداء من سنة ١٤٩٢م، وكشف الطريق البحري من أوروبا إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح سنة

(١) محمد عدنان مراد : مرجع سابق، ص: ٢٠ - ٢١.

١٤٩٨ م. وكانت لهذين الحادثين نتائج عميقة الأثر في تاريخ العالم و مستقبل البشرية^(١).

أولاً: ظهرت المدن التجارية المطلة على البحر المتوسط مثل البندقية و جنوة وانصرفت هذه المدن للتجارة و كانت البضائع التي تتاجر فيها هذه المدن تأتي من بلاد لم يكن الأوروبيون يعرفون عنها الكثير و أهم هذه البضائع التوابل و البهارات، و القرنفل، و الفلفل، و المسك، و العنبر، و غيرها من المواد التي أصبحت لها قيمة كبيرة و عظيمة في التطبيب و غيره في أوروبا.^(٢)

وكان العرب هم الذين يقومون بنقل هذه البضائع من بلادها في الشرق حتى مواني مصر و الشام حيث يتولى البنادقة و الجويون نقلها على سفنهم لأسواق أوروبا و قد حرص سلاطين المماليك على أن يبقى سر هذه التجارة المربحة و قفلاً عليهم، ولذا فقد اتخذوا عدة احتياطات منها: أنهم حرموا على أي مركب غير إسلامية أن تمر عباب البحر الأحمر، و اتخذوا لذلك حججاً شتى، منها أن هذا البحر يؤدي للأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، و أوقعوا أشد العقوبة على كل من يحاول كسر هذا الحصار، أو الإفصاح عن شيء يتعلق بمصادر هذه التجارة وطرقها.^(٣)

ثانياً: كانت المعلومات الجغرافية لدى الأوروبيين ضئيلة إلى حد ما، و معظمها من نسج الخيال، و خاطئة في مجموعها، فقصور وسائل المواصلات عن التغلغل في أنحاء العالم، ووهن مقدرة الإنسان على الملاحة في أعالي البحار و سطحية معلوماته في عالم الفلك، و الحياة في مجتمع مغلق، و الانفصال بين العالم المسيحي و العالم الإسلامي، كل ذلك جعل معلومات الأوروبيين مقصورة على أوروبا من ناحية، و تلك الأقاليم التي يسكنها المسلمون من ناحية أخرى، و كانت الأقاليم التي يسكنها

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور): أوروبا في مطلع العصور الحديثة، القاهرة ١٩٧٧ م،

ج١، ص: ١٤٠.

(٢) شوقي الجمل (دكتور): مرجع سابق، ص: ٦٩.

(٣) شوقي الجمل (دكتور): نفس المرجع، ص: ٦٩ - ٧٠.

المسلمون غير محدودة المعالم تماماً، أما بقية القارات فكانت غير معلومة من حيث وجودها.^(١)

وكانوا يستمدون معلوماتهم عن آسيا وأفريقية من التجار الإيطاليين الذين كانوا يترددون على موانئ مصر والشام من أجل التجارة الشرقية، كما كانوا يعتقدون أن المحيط الأطلسي، والبحار الجنوبية مأوي الشياطين والجن والوحوش، وإذا غامر بحار بالتوغل جنوباً فإنه ملاقى نطاقاً من نار لن يستطيع اجتيازه. وهكذا صور الوهم والجهل لهم ألواناً من الأخطار والمخاوف لا محل لها، كما كانوا يعتقدون أن الأرض قرص منبسط مركزه بيت المقدس يحيط به البحر.^(٢)

ثالثاً: لم تتعد معلومات أوروبا عن شرق أفريقيا في العصور الوسطى الأقوال الخرافية عن وجود ملك مسيحي يحكم في وسط آسيا أو أفريقية، هو القديس يوحنا أو برسترجون " P.JOHN. وقد حددت الشائعات مكان وجود ذلك الملك المسيحي، فيما بين الصين وجامبيا، وأنه يسيطر على منطقة كبيرة تعرف باسم أثيوبيا.^(٣)

ومنذ القرن الثالث عشر شاعت في أوروبا أخبار كثيرة عن مملكة أثيوبيا هذه وكفاحها ضد المسلمين، غير أن مكانها وطريق الوصول إليها لم يكن معروفا لدى الأوروبيين بالدقة.

رابعاً: أما عن معلومات الأوروبيين عن غرب أفريقيا في نهاية العصور الوسطى فلم تكن أفضل من معلوماتهم عن شرق إفريقيا.

وقد كثر الكلام فعلاً عن وجود ملك زنجي أطلق عليه " ملك مالي " يحكم جميع أجزاء الصحراء الغربية في إفريقيا جنوبى الأقاليم الساحلية، وكثرت القصص عن

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور) مرجع سابق، ص: ١٠٤.

(٢) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور): مرجع سابق، ص: ١٠٥.

(٣) سعد زغلول عبد ربه (دكتور): البرتغاليون والبحر الأحمر، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، القاهرة ١٩٨٠م، ص: ٢٠٥.

ثراء ذلك الملك حتى أن الخرائط التي ترسم لإفريقيا كانت تضع في هذا الجزء من الصحراء عرشا كبيرا من الذهب يجلس عليه ملك زنجي يلبس الملابس الموشاة بالذهب رمزا لهذه المملكة الأفريقية الزنجية الفتية.^(١)

وقد تضافرت عدة دوافع أدت إلى بدء حركة الكشف الجغرافية و تنشيطها منها:

الدافع الاقتصادي:

كانت العلاقات بين أوروبا و الشرق الأقصى ضعيفة في العصور القديمة والوسطى، غير أنها كانت وثيقة مع غرب آسيا و العالم العربي و الإسلامي، وقد أخذت الروابط الاقتصادية تقوى تدريجيا منذ الحرب الصليبية، وزادت الحركة التجارية نشاطا، لأن أوروبا أصبحت بحاجة ماسة إلى البضائع الآسيوية التي لم تكن تنتجها و أغلب هذه البضائع كانت عبارة عن الأقمشة القطنية و الحريرية و الكتانية، و المصنوعات الفخارية و الخزفية، و الذهب و الفضة، و التوابل و الأحجار الكريمة، و بعض الأخشاب، و كانت المدن الإيطالية و خاصة البندقية تقوم بدور الوسيط بين التجار العرب و المسلمين و بين الأوروبيين كما ذكرنا سابقا.

غير أن مجيء الأتراك العثمانيين منذ أواخر القرن الثالث عشر، و استيلاءهم على بلاد البلقان في القرن الخامس عشر، جعل طريق التجارة الشرقية مسدودا في وجه الأوروبيين، كما أن الضرائب الكثيرة التي فرضها أمراء الممالك في مصر و الشام على البضائع المارة بأقطارهم رفعت الأسعار إلى درجة لم يستطع الأوروبيون احتمالها^(٢).

كما لا يمكن إغفال رغبة بعض الدول الأوروبية في ضرب الاحتكار الذي كانت

(١) شوقي الجمل (دكتور): مرجع سابق، ص: ٧٠.

(٢) محمد صالح (دكتور): تاريخ أوروبا من عصر النهضة و حتى الثورة الفرنسية، بغداد ١٩٨١م، ص: ١٣٨.

تمارسه جمهورية البندقية في نقل المتاجر الشرقية من مواني مصر والشام إلى أوروبا كوسيلة لحرمان هذه الجمهورية من مصادر ثرائها. وتطلع التجار من رعايا دول أخرى غير البندقية إلى النزول إلى ميدان التجارة الشرقية والحصول لأنفسهم على شطر من أرباحها الوفيرة.^(١)

واشتد التنافس بين البندقية و جنوة في القرنين الثالث عشر و الرابع عشر، وهذه المنافسة القوية لها أهميتها الحيوية في التاريخ.

فمن المعروف أن البندقية كانت قد احتكرت تجارة الشرق مع الممالك دون سائر الدول الأوروبية، وكانت جنوة الخصم العنيد لجمهورية جنوة التي حققت استثنائها بتجارة الشرق دونها، فعملت على كسر الاحتكار التجاري الذي فرضته على تجارة الشرق، فتمكنوا من معرفة أماكن الإنتاج وأسعار السلع، و استطاعوا تخفيض الأسعار.

ولكن الطرق البرية سدت مرة ثانية بعد ظهور الأتراك، لذلك عاد التفكير لاكتشاف طريق للهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، و كان الرواد في هذا المجال تجار جنوة الذين يبذلون أقصى جهودهم للوصول إلى الهند.

الدافع الديني:

لاشك أن الدافع الديني من أهم العوامل التي أدت إلى حركة الكشوف الجغرافية التي تعد حلقة من سلسلة الحروب الصليبية فقد كانت البرتغال وإسبانيا أسبق الدول في إيفاد البعث الدينية، و كانت الناحية الدينية تلعب دورا كبيرا في تخطيط سياسة هاتين الدولتين، و استغرق الأوربيون في أحلام اليقظة استغراقا ساذجا فراحوا- وهم في غمرة الكشوف الجغرافية- يضعون المشروعات للقضاء على الإسلام قضاء مبرما، و كانت تكمن في هذه الناحية روح صليبية جارفة.

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٠٥ - ١٠٦.

فالكشوف الجغرافية في نظر البرتغال يجب أن يكون من أهدافها تحويل المسلمين في غرب أفريقيا وغيرها من المناطق الآهلة بهم إلى المسيحية الكاثوليكية والكشوف الجغرافية في نظر إسبانيا يجب أن يكون من مراميها نشر الديانة المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي بين السكان الأصليين الوثنيين في تلك الأصقاع البعيدة، بل إن هذه الروح الصليبية استهدفت أيضا تحويل الحبشة المسيحية إلى المذهب الكاثوليكي، وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر.^(١)

ومن أهم الأسباب التي جعلت الناحية الدينية المسرفة تلعب دورا طاغيا في سياسة البرتغال وإسبانيا : أن نفوذ العرب في الأندلس بدأ يضعف منذ القرن الخامس عشر الميلادي، مما أتاح الفرصة للإمارات المسيحية في إسبانيا لتظهر مثل إمارة أرجون " ARAGON' وقشتالة " OSTILE" وقد اتحدت الإماراتان بزواج فرديناند حاكم أرجونة من إيزابيلا حاكمة قشتالة، في عام ١٤٦٩م،

وكان هذا الزواج بمثابة مولد مملكة إسبانيا التي أخذت تضيق الخناق على القوي الإسلامية في الأندلس.^(٢)

وبدأ هذان العاهلان يمارسان سياسة الاضطهاد الديني، واستئصال شافة كل فرد لا يدين بالمذهب الكاثوليكي، وكان سقوط غرناطة و استيلاء النصارى عليها من سلطاتها أبي عبد الله في يناير ١٤٩٢م.^(٣)

ويلاحظ أنه في نفس السنة التي سقطت فيها غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس، تم طرد اليهود من إسبانيا.

وتعاقد ملكا إسبانيا مع كرسنوفر كولبوس على القيام برحلته الكشفية الجغرافية الأولى، ولم يكتف نصارى شبه الجزيرة الأيبيرية بجلء المسلمين عن

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٠٥، ١٠٦، ١١٠.

(٢) شوقي الجمل (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٧١.

(٣) أحمد مختار العبادي (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس الإسكندرية ١٩٦٨م، ص: ٦٨.

الأندلس، بل ازدادوا تحمسا و شراة في مطاردة المسلمين خارجها، و انتقل نشاطهم إلى شمال أفريقية و غربها يتعقبون المسلمين الفارين بدينهم في عرض البحر المتوسط، فقتلوا الرجال وبقروا بطون النساء و استولوا على ماكان المسلمون قد حملوه معهم مما خف حمله و غلا ثمنه، كما هاجموا مواني الساحل الشمالي الأفريقي و استولوا على بعض القلاع.^(١)

ويعقب أحد الباحثين على ذلك بأنها حركة دينية أخرى حمل البرتغاليون-علي وجه الخصوص- لواءها لتعقب المسلمين، حتى أن بعض المؤرخين يعتبرونها امتدادا للحركة الصليبية التي بدأت بقصد تخلص الأماكن المقدسة المسيحية من أيدي المسلمين.^(٢)

كما راودتهم الآمال في إماكن محاصرة الإسلام عن طريق البحر، وطعنه من الخلف و سحقه في آسيا و أفريقية، و لذلك فإن الشعور الذي احتوي مسيحيي شبه الجزيرة الأيبيرية بوجوب محاربة الإسلام كان شعورا امتزجت فيه الروح الصليبية المتأججة بالعاطفة الوطنية.^(٣)

وقد بين بانيكار ذلك و ذكر أن البرتغال أصبحت في القرن الخامس عشر نصيرة المسيحية وراعتها على الإسلام، فكأن روح الحروب الصليبية لم تبق فيها جذوة الحياة متقدة فقط، بل ازدهرت أيضا مكتسبة قوة على قوتها بشبه الجزيرة الأيبيرية، ولدى شعب قشتالة و أرغونة و البرتغال بالذات عزيمة للتخلص تماما من الممالك الإسلامية التي كانت لاتزال موجودة على أرض شبه الجزيرة نفسها، ومزدهرة فقد كان الأيبيري المخلص لدينه، المتفاني في حب وطنه إسبانيا كان أو برتغاليا، يعد القتال ضد الإسلام ضرورة ماسة صارمة، ويراه خليطا يجمع على حد سواء بين الواجب الديني و الضروريات الوطنية. لقد كان الإسلام هو عدوه اللدود

(١) السيد محمد الدقن (دكتور) : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية، القاهرة ١٩٧٩م، ص: ٥٠

(٢) شوقي الجمل (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٧١.

(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١١١.

الذي لابد من قتاله في كل مكان.^(١)

ولذلك نرى أحد الباحثين في دفاعه عن الدولة العثمانية، يشيد بخدمات العثمانيين للإسلام لوقوفهم في وجه الاستعمار البرتغالي قائلاً: كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الاستعماري البرتغالي للبحر الأحمر و الأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي إذ كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي، مسرف في وحشيته، وهو دخول البحر الأحمر، واقتحام المسجد الحرام حيث الكعبة المشرفة، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة، لنبش قبر الرسول - صلي الله عليه وسلم- ثم استئناف الزحف على تبوك، ومنها إلى بيت المقدس، للاستيلاء على المسجد الأقصى، وبذلك تقع المساجد الثلاثة في أيدي البرتغاليين.^(٢)

وقد حظيت الكشوف الجغرافية باهتمام بالغ من البابوية، وأصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة يعطون بها ملوك البرتغال وإسبانيا الحق في ملكية كل إقليم جديد أو بحر جديد يتم اكتشافه في الحاضر والمستقبل.^(٣) وتورط بعض البابوات في هذه المراسم، فوصفوا الإسلام بأنه طاعون "THE PLAGUE OF ISLAM" وطالبوا ببذل الجهود لتدمير سكان المناطق التي اكتشفت أو سوف تكتشف، و الحيلولة بينهم وبين إصابتهم بطاعون الإسلام.

(١) باننيكار : مرجع سابق، ص: ٢٤ - ٢٥.

(٢) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور) : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة ١٩٨٠م، ص: ٨٦٢.

(٣) يذكر على سبيل المثال من هذه المراسيم: المرسوم الذي أصدره البابا نيقولا الخامس بتاريخ ٨ يناير ١٤٥٥م والرسوم الذي أصدره البابا كاليسست "COLLISTE" ١٤٥٥م - ١٤٥٨م بتاريخ ١٣ مارس ١٤٥٦م، والمراسيم الثلاثة التي أصدرها الباب اسكندر السادس في ٢، ٤ من مايو، و ٢٦ من سبتمبر ١٤٩٣م، والجدير بالملاحظة أن المرسومين اللذين أصدرهما البابا نيقولا الخامس وكاليسست الثالث كانا ينصبان على منح الملكية فيما يتعلق بالأقاليم التي تم اكتشافها بالفعل، بينما نصت المراسيم التي أصدرها البابا إسكندر السادس على منح الملكية فيما يتعلق بالأقاليم المجهولة التي يتم اكتشافها في المستقبل. (باننيكار : مرجع سابق، ص: ٢٨، ٢٩).

وفي الوقت نفسه بذلت البابوية نفوذها الأدبي لإغراء البحارة للانضمام إلى سلك البعثات الكشفية حين كان الإقبال على العمل في سفن الكشوف فاترا، و كان البابوات يعدون المشتركين في رحلات الكشف بالعفو عند الحساب في اليوم الآخر والنجاة من النار والفوز بالجنة. وصدرت الأوامر برسم الصليبان على أشرعة السفن، وكان دعاة المسيحية من رجال الطوائف الدينية يرافقون الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة نشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي في العالم الجديد.^(١)

و الدليل على أن الدافع الديني كان وراء الحركات الاستعمارية المبكرة في ذلك الوقت أن البابوية بادرت بالتدخل لفض النزاع بين الدولتين الاستعماريتين البرتغال وإسبانيا.^(٢)

كما وضع البابا نيقولا الخامس ١٤٤٧-١٤٥٥م خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية لضرب المسلمين ضربة أخيرة و القضاء على الإسلام قضاء مبرما، ولذا فقد أرسل في عام ١٤٥٤م إلى ملك البرتغال مرسوما بابويا تضمن مايعرف باسم (خطة الهند) تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية للقضاء نهائيا على الإسلام، بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهدافها و يتصل البرتغاليون بالملوك؛ المسيحيين سواء أكانوا في أفريقيا أم في آسيا كي يسهم هؤلاء الملوك في تمويل الحملة بالأموال و الرجال و العتاد، ويتم تطويق البلاد الإسلامية،^(٣)

وقد حرصت حكومة البرتغال على إرسال مجموعة من رجال الدين برفقة كل حملة استكشافية للقيام بمهمة التبشير بين أهالي البلاد المفتوحة و نذكر على سبيل المثال: أنه كان يوجد مع حملة ديجوكام: DIEGO CAM: في عام ١٤٩١م بعض رجال الدين نزلوا عند مصب نهر الكونغو، وقاموا بنشاط تنصيري في هذه المناطق، ثم توغلوا في الداخل إلى مايقرب من مائتي ميل، و يقال إن هذه البعثة التنصيرية

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور) : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص: ١١١، ١١٢.

(٢) شوقي الجمل (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٣٢، ١٣٣.

(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ص: ٨١١٣.

نجحت في إقناع الملك الحاكم وجميع أفراد شعبه و اعتناق المسيحية، و ترتب على ذلك أن شاعت بعض المعتقدات المسيحية إلى جانب الكثير من العادات و الطقوس الوثنية التي استمرت لفترة طويلة.^(١)

الدافع السياسي:

استرد صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين عام ١١٨٧م، وجعل من مصر قاعدة للإسلام الذي أصبح حاجزا هائل القوة يفصل بين أوروبا، وبعد الحماس والغيرة الدينية و الطاقة الخارقة، التي تمتعت بها أوروبا، أصابها الوهن والتلاشي، و انتصار صلاح الدين كان من أشد الانتصارات حسما في تاريخ العالم حيث أدى إلى إقرار سلطان المسلمين لعدة قرون بمنطقة ذات أهمية حيوية مثل منطقة سواحل سوريا و مصر.

ومما يدل على أن رجال السياسة الأوربيين لم يكونوا يجهلون حقيقة الحملة الصليبية الخامسة ١٢١٨-١٢٢١م التي وجهت إلى مصر ذاتها، وشارك فيها جان دي بريين، ثم الحملة الصليبية السادسة (١٢٤٨-١٢٥٠) التي شارك فيها عدد كبير من عظماء ملوك أوربا بقيادة القديس لويس العاهل الفرنسي، و قاموا بهجوم شامل على مصر، و ماكان من هذه الحملة إلا أن انهزمت و منيت بالفشل، وأصبحت مصر بعد ذلك في يد المسلمين بعد فشل القوى الصليبية في السيطرة عليها.^(٢)

وبعد هذه الأحداث بعدة قرون، تنهض أوروبا لتتأثر لنفسها، لتتبوأ مكانة سياسية مرموقة عالمياً يتطلب منها تحركاً سياسياً واسع النطاق.

في تلك الفترة كانت الأوضاع السياسية متردية في المشرق العربي إبان مطلع القرن السادس عشر، وفي نفس الوقت ظهرت البرتغال كقوة سياسية، بعد أن أصبحت

(١) شوقي الجمل (دكتور): مرجع سابق، ص: ٢٢.

وانظر: Johnston, H. H. The opening Up of Africa (LONDON 1929). P. 244

(٢) محمد سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دي بريين على مصر، الإسكندرية ١٩٧٨ - ص: ٤٢٨، وانظر: ك. م. باننيكار: مرجع سابق ص: ٢٠، ٢١.

دولة ذات كيان سياسي يؤهلها إلى التطلع إلى ما وراء البحار، فأولت الأمور السياسية اهتماما بالغاً كي تتمكن من تحقيق الأهداف الدينية،^(١)

وبما أن البحر المتوسط، والمحيط الهندي تحت سيطرة المسلمين والعرب، وهذا بدوره جعل من أوروبا وخاصة البرتغال تتطلع إلى إيجاد مخرج من الدائرة التي تطوقهم فلا بد من إحياء الحروب الصليبية، ولكن هذه المرة بشكل يختلف عن السابق فرجال الدين والسياسة اهتموا بإيجاد طريق آخر للوصول بواسطته إلى بلد التوابل في الشرق، وحرمان الموانئ العربية من التمتع بهذه السيطرة على طرق التجارة، ولإضعافها والتمكن من النيل منها، ووضعها بين فكي الكماشة، والبحث عن ينصرهم ليحققوا أهدافهم السياسية والدينية والاقتصادية.^(٢)

وقبل وصول فاسكو دي جاما: VASCO DA GAMA: إلى قاليقوت أو كاليكوت وصلت إلى ملبار بعثة من التجار البرتغاليين وعلى رأسهم الفونسو دي بايفا: ALFONSO DE PAIVA و بيردي وكوفيلهام " -PERO DE CO-VILIAM " ذهبوا إلى الهند مروراً بمصر ودويلات شرق أفريقيا، فوصل الأخير إلى مصر عام ١٤٨٧ م، ثم سافر عن طريق البحر الأحمر إلى عدن ثم الهند، وفي عودته زار أغلب المناطق العربية على الساحل الشرقي لأفريقيا، ولقد وصل جنوباً حتى سفاله " SOFALA "، و عاد مرة أخرى إلى القاهرة، وكانت رحلاته بالغة الأهمية، فقد كانت أساساً لرحلات فاسكو دي جاما.^(٣)

(١) محمد علي الداود: العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي من (١٥٠٧ - ١٦٥٠) العدد الثاني من مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، شباط ١٩٦٠ م، ص: ١.

BERES DAMIO : A history of the Portuguese Discoveries _ LISBOA 1960) P. 7.

(٢) شوقي الجمل (دكتور) : الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقات بين الخليج العربي وشرق أفريقيا، ندوة رأس الخيمة التاريخية المقامة بالتعاون بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ومركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري برأس الخيمة ١٩٨٧ م، ص: ٢.

(٣) johnston .H . History of colonization of Africa by Alien Races (Cambridge 1913) (٣)

ومن هذا نستنتج أن هدف البرتغال السياسي هو الوصول إلى أماكن التجارة والتخلص من قبضة الممالك و البنادقة للتجارة وإيجاد مناطق نفوذ لتكوين الإمبراطورية البرتغالية.

دور العرب في الكشف البرتغالية:

كان الملاحون العرب قد عرفوا المرشدات الملاحية، و الخارطات البحرية منذ القرن العاشر الميلادي، وقد اتخذوا من تجاربهم الشخصية الواقعية أساسا جديداً للجغرافية الملاحية، إذ كان للعرب نشاط ملاحى في أرجاء المحيط الهندي و أرخبيل الملايو و بحر الصين، فضلاً عن البحر المتوسط و البحر الأحمر و أجزاء من المحيط الأطلسي تطل عليها سواحل الأندلس و شمال غرب أفريقيا.^(١)

وقد كان لليهود دور كبير في نقل المعلومات الجغرافية العربية الإسلامية إلى المسيحيين في الأندلس، فقد استعان ملك قشتالة الفونس العاشر ALFONSO.X ١٢٥٢-١٢٨٤م بخبرة اليهود الذين تلقوا علومهم عن العرب في معلومات و معارف العرب الفنية في مجال الفلك، و بعد أن طرد المسلمون من الأندلس كان لليهود الدور الكبير في ترجمة التراث العربي الإسلامي إلى اللغة الإسبانية، وخصوصاً في مدينة طليطلة، كما سعى البرتغاليون للحصول على علوم العرب الملاحية، قبل أن يقوموا بمغامراتهم في الشاطئ الأفريقي، واستعانوا في هذا الشأن بيهود الأندلس كجواسيس و مترجمين، بعد أن طردتهم إسبانيا عام ١٤٩٢م، فلجأوا إلى البرتغال حاملين معهم علوم العرب الملاحية و خرائطهم و جدولهم الفلكية، وكانوا قد ترجموها إلى العبرية و احتفظوا لأنفسهم بأسرارها و كان لهذه العلوم الإسلامية أكبر الأثر في تقدم البرتغاليين في مجال الرحلات الكشفية.^(٢)

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور): مرجع سابق، ص: ١١٩.

(٢) أنور عبدالعليم: ابن ماجد الملاح، القاهرة ١٩٦٧م، ص: ٤٢ - ٤٤.

وقد تعلم البرتغاليون استخدام آلات الملاحة من العرب، وخاصة الاسطرلاب^(١)، والبوصلة البحرية.

ومن واقع تجارب المسلمين العلمية أثناء رحلاتهم الكثيرة، أضافوا إلى الإبرة المغناطيسية ما يعرف باسم وردة الرياح لمعرفة اتجاه الرياح و مصدر هبوبها عند معرفة جهة واحدة من الجهات الأصلية، ولم يلبث هذا الاختراع أن انتقل إلى أوروبا عن طريق التبادل التجاري في البحر المتوسط بواسطة الجنوبيين و البنادقة، وإبان الحروب الصليبية وعن طريق الأندلس أيضا^(٢)، كما استخدم المسلمون في الملاحة آلات أخرى، أخذها عنهم الإسبان و البرتغاليون، مثل ربع الدائرة الكوادرنت (CUDRENT)^(٣)، كما وضع المسلمون الخرائط^(٤)، و الجداول الفلكية

(١) الاسطرلاب : هو عبارة عن قرص مستدير مقسم إلى درجات به ذراع متحرك مثبت من المركز ومؤشر يتخذ الموضع العمودي على الأفق، ولاستعماله يحرك الملاح الذراع على الدائرة، ليقاس الزاوية بين النجم القطبي مثلاً، والاتجاه الراسي الذي يدل على المؤشر مساوية الارتفاع القطبي فوق الأفق، والاسطرلاب هو آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم، وقد عمل البحارة العرب والمسلمون على تطويره، كما ألفوا كتباً كثيرة عن طريق استعماله، أما بالنسبة للبوصلة فرغم اتفاق معظم المؤرخين على أن الصينيين هم أول من تعرف على خواص الإبر المغناطيسية وأنها تشير إلى الشمال على الدوام، فإنهم يجمعون على أن المسلمين هم أول من استخدمها عملياً في البحار وفي الاستدلال على القبلة.

أنور عبدالمعالم (دكتور): مرجع سابق، ص: ٣٤ - ٣٥.

(٢) أنور عبدالمعالم (دكتور): نفس المرجع، ص: ٣٥، ٣٦.

(٣) ربع الدائرة الكوادرنت "CUDRENT": هي آلة تمثل قوساً قدره ٩٠° درجة من الاسطرلاب وتقيس ارتفاع الأجرام فوق الأفق عن طريق قياس رؤية الظل.

عبدالعزیز محمد الشناوي (دكتور): مرجع سابق، ص: ١٢٣ - ١٢٤.

(٤) ومما يؤيد الرأي بأن العرب قد وضعوا خرائط بحرية ممتازة للإرشاد الملاحي أن الأميرال البرتغالي الفونسوي دي البوكيرك "ALFONSO DE ALBUGUREGHER" أرفق في تقرير له لملك البرتغال عما نوبل عام ١٥١٢م، خارطة بحرية كبيرة للملاح من جاوة موضح عليها رأس الرجاء الصالح والبرتغال والبحر الأحمر والخليج العربي وجزائر الملوك، ومسالك ملاحية إلى الصين وجزيرة فرموزا، كما أن فاسكو دي جاما نفسه يقرر أنه وجد الملاحين العرب على الساحل الأفريقي يستخدمون (البوصلة) وآلات دقيقة ملاحية وخارطت بحرية.

و خطوط العرض و الأزياج^(١)

كما استفاد البرتغاليون بالخبرة العربية المتطورة المتألفة في مجال البحار نتيجة احتكاكهم بالعرب، بعد اجتياز طريق رأس الرجاء الصالح، فقد استعانوا بالمرشدين و الملاحين العرب لإرشادهم إلى طريق الهند، ورغم معرفة البرتغاليين للبوصلة والاسطرلاب عن طريق العرب و المسلمين إلا أنهم لم يكونوا على علم ودراية بما طرأ على تلك الآلات من تطور و تجديد مستمر بدليل الدهشة العظيمة التي أصابت فاسكو دي جاما عندما رأى الآلات التي يستخدمها الملاح العربي (أحمد بن ماجد) في سفينته إبان مرافقته له في رحلته الكشفية للهند.

كما استفاد البرتغاليون من كتابات الرحالة الجغرافيين العرب من أمثال الإدريسي و المقديسي و المسعودي و على رأس هؤلاء ابن بطوطة، الذي تعد كتاباته عن رحلته فتحاً للاكتشافات الجغرافية، ومقدمة لها، فإن ذلك الرحالة الإسلامي الكبير جاء إلى شمال أفريقيا و جزيرة العرب، وفي عام ١٢٢٠م ارتاد اليمن، وزار عدن ثم رحل إلى الشاطي الشرقي لأفريقيا، وزار بربرة و كلوة، ثم ذهب إلى عمان، ووصف هرمز وصفاً دقيقاً و لذا يمكن القول بأن البرتغاليين قد استخدموا في اكتشافاتهم ضد العرب كل ما أنتجه العرب من علم و معرفة.^(٢)

الكشوف البرتغالية:

ذكر أحد الباحثين الأوروبيين في معرض حديثه عن الكشوف البرتغالية أنه لولا الغزو عبر المحيطات الذي لازمه الانتصار طوال القرن الخامس عشر، لكانت البرتغال بالتأكيد عبارة عن خط ضيق طولي في ولاية ابرين.

(١) الأزياج : مفردا زيچ، وهو جدول يستدل به على حركة الكواكب السيارة حول الشمس، لتحديد موقعها.

انظر : دائرة معارف بطرس البستاني، مادة (زيچ).

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور) : فتح العثمانيين عدن، وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر، القاهرة ١٩٧٩م، ص: ٥٦.

حقاً لقد كان الغزو محرراً للبرتغال من البدائية الأولية المتواضعة، كما كان للغزو أثره في خلق أسس ثابتة و مستقبل دائم و مستقر^(١)، كان أهل جنوة أول من قام بمحاولة الطواف حول الساحل الأفريقي الغربي، ففي عام ١٢٩١م أبحر فيفالد "VIVOLDI" من أهل جنوة في سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق المؤدي إلى الهند^(٢)، ونظرا لعدم الخبرة الكافية في مجال الإبحار أدى إلى فشل الرحلة و تحطمت السفينتان قبالة الساحل الأفريقي مما أدى إلى غرق فيفالد وصحبه^(٣).

و عن أهل جنوة تلقى البرتغاليون فنون البحار، و تعلموا بناء السفن المتينة الكبيرة* و السير بها في المحيطات، وقد اشترى دون بدرو (DON PEDRO) البرتغالي نسخة من كتاب رحلة ماركو بولو وجدها في مدينة البندقية و أهداها إلى الأمير هنري (PRINCE HENRY) الذي تزعم حركة الكشف الجغرافية البرتغالية^(٤).

وقد ولد الأمير هنري في بورتو في ٤ مارس ١٣٦٤م، وهو الابن الثالث للملك يوحنا الأول ملك البرتغال^(٥). وقد تربى الأمير هنري في أحد الأديرة الإسبانية وتشرب تعاليم الكنيسة وبغضها المرير للإسلام و المسلمين، و تعلم الفروسية، فنشأ محارباً صليبياً من الدرجة الأولى واشتهر عنه كراهيته الشديدة للمسلمين، واعتبر ملاحقتهم واجباً دينياً مقدساً وأصبحت له سيرة حافلة بحروبه ضد المسلمين في شمال أفريقيا^(٦).

وترأس الأمير هنري الملاح بعد ذلك طائفة الرهبان اليسوعيين، ونظرا لكثرة أموال

(١) BERES DAMIAO. CIT. P. 5

(٢) محمد محمد صالح : مرجع سابق، ص: ١٤١.

(٣) BERES DAMIAO : OP. CIT, P. 5

* انظر شكل السفن، (ملحق رقم ١٥) ص: ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٤) يسري الجوهري (دكتور) : الفكر الجغرافي والكشف الجغرافية، الإسكندرية ١٩٧٥م، ص: ١٣٨.

(٥) وندل فيليس : تاريخ عمان (ترجمة محمد أمين عبدالله) عمان، ١٩٨٣م، ص: ٣٦.

(٦) بانيكار : مرجع سابق، ص: ٢٥.

هذه الطائفة، التي أصبحت تحت تصرفه فقد أنشأ الأمير هنري مدرسة بحرية ومرصدا في قلعته رأس ساجرس (SAGRES) في الطرف الجنوبي لشاطئ البرتغال وجمع هنري حوله في قلعته علماء الرياضيات ورسامي الخرائط الفلكيين، كما استعان بأسرى المسلمين الذين لهم دراية كبيرة بشئون الفلك و البحر والأسفار الطويلة و الجزر البعيدة و قام ببذل جهود كبيرة في تحسين بناء السفن* من حيث الحجم والقوة والمتانة^(١)

و اهتم بتعليم البرتغاليين فن الملاحة على الطرق الحديثة و الأسس العلمية الصحيحة.^(٢)

عرف الأمير هنري بلقب هنري الملاح (THE NAVIGATOR HENRY) ١٣٦٤-١٤٦٠م، على الرغم من أنه لم يركب سوى مرة واحدة سنة ١٤١٥م، حين اشترك في رحلة عسكرية أرسلها والده يوحنا الأول ملك البرتغال لانتزاع مدينة سبتة (CEUTA) على الشاطئ الشمالي لأفريقيه تجاه إسبانيا من أيدي المسلمين،^(٣)

ويرى أحد الباحثين أن السبب في إطلاق لقب الملاح على الأمير هنري يرجع إلى أن النجاح الأول للبرتغال عبر البحار يعود إليه^(٤)، وقد كانت مدينة سبتة معقلا للمجاهدين، في وقت امتلأت فيه روح هنري بالبغضاء و الحقد على الإسلام والمسلمين مما جعله يلجأ إلى أبشع الأساليب الوحشية ضد أهالي سبتة إبان احتلالها، ثم عينه أبوه حاكما عليها، كما عينه رئيسا لفرسان المسيح مكافأة له.^(٥)

* انظر شكل السفينة الحربية (ملحق رقم ١٢) ص: ٢٧٣

(١) السيد رجب حراز (دكتور) : عصر النهضة، القاهرة ١٩٧٤، ص: ٣١٤.

(٢) شوقي الجمل (دكتور) : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ص: ١٦٥.

(٣) HAMILTO GENESTA : IN THE WAKE OF DAGAMA, (LONDON 1951) P 148(٣)

BERES DAMIAO .OP. CIT, P. 20. (٤)

(٥) ونواة هذه الجماعة بعض الفرسان الصليبيين الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهم فلجأوا إلى البرتغال وكانوا بالطبع يتوقون للانتقام من المسلمين، شوقي الجمل (دكتور): المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب) القاهرة ١٩٧٧، ص: ٤٣.

و كانت من أمنيات الأمير هنري - كما صرح هو - أن يعمل عملا يتقرب به إلى الله عن طريق التبشير بالمسيحية الكاثوليكية في سواحل أفريقيا الشمالية، و بين الوثنيين الأفريقيين.^(١)

وكانت البرتغال في ذلك الوقت تتمتع بالاستقرار السياسي والاقتصادي منذ ثلاثة قرون بحيث أصبحت منيعة الجانب تحت حكم يوحنا الأول (JOHN 1) أحد ملوك أسرة أفيز (AVIZ) الذي أصدر الأمر بغزو سبته، ففي هذا العهد حظيت البرتغال بجيل من الرجال الأقوياء، قوامه التجار و البحارة و المغامرون الذين رفضوا الاكتفاء بالطرق التجارية المألونة وقتئذ، وأخذوا يسرون في طريق الاستعمار الذي لاينتهي أمده، تملؤهم الحماسة للغزو وجمع الغنائم و الأسلاب وهدم الحصون والقلاع.^(٢)

ولاشك في أن الموقع الجغرافي الذي تتميز به البرتغال قد مكنها وسهل لها مهمة الكشف و الارتياح البحري، وذلك لأنها تملك شواطئ طويلة على المحيط الأطلسي، بالإضافة إلى أن لشبونة أصبحت منذ القرن الخامس عشر الميلادي، مستودعا لتجارة الشرق وهي في طريقها إلى أوروبا.^(٣)

وفي الحقيقة أن الحملة على سبته تعتبر حملة صليبية بالمعنى الواضح المحدود وامتدادا لما سبقها من حملات مشابهة، وقام بنشاط تجاري بهدف تقوية البرتغال لتتمكن من تنفيذ مخططاتها الاستعمارية، وقام بجمع الصيادين المهرة، وجعل منهم بحارة وحوّل سفن الصيد إلى سفن للحرب و النقل، و استقدم من إيطاليا وصقلية بعض الملاحين المهرة و أسس المدرسة المذكورة.

و جاست في نفس هنري الملاح رغبة قوية لطرد المسلمين من مراكش و بلاد

(١) نفس المرجع السابق، ونفس الصفحة.

(٢) دفي جيمس: الاستعمار البرتغالي في أفريقيا (ترجمة الدسوقي حسين المراكبي) القاهرة ١٩٦٣م، ص: ٣٢ - ٣٣.

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور) مرجع سابق، ص: ٥٦، ٥٧.

المغرب كما طردوا من شبه جزيرة أيبيريا، فقام بحملة أخرى على طنجة في عام ١٤٣٧ استهدف من ورائها أن يكرر النجاح الذي أصابه في المغامرة الأولى على سبته، غير أنه باء بالفشل وأخفق في احتلال طنجة، وكان هنري قد بدأ يفقد اهتمامه بالنشاط العسكري المحدود النطاق وأصبح هدفه منذ عام ١٤١٧م وضع خطة استراتيجية كبرى لتطويق العالم الإسلامي، وحمل العالم المسيحي رأساً إلى المحيط الهندي.^(١)

ولم يلبث هنري أن تحول بمجهوده لاحتلال شواطئ مراكش المطلة على المحيط الأطلسي وإخضاع هذه الأقاليم ابتداء من نهر السنغال كمقدمة للاستيلاء على غانا، وكان قد ترامى إلى مسامعه الكثير عن ثرا هذه البلاد، التي ذاعت شهرتها بثروتها وتجارتها مع المسلمين، فرأى أن يقطع عن المسلمين هذه التجارة، وأن ينشر المسيحية بين أهلها و يستخدمهم بعد ذلك لتحقيق مشروعاته، بل فكر في الوصول إلى بلاد الحبشة المسيحية و عقد حلف معها ليتعاونوا في تطويق بلاد المسلمين وليتمكن من الوصول إلى منتجات الشرق التي تدر على البلاد الإسلامية أرباحاً طائلة من جراء احتكار السفن العربية لعملية نقل هذه البضائع حتى مواني البحر المتوسط بالإضافة إلى الضريبة التي تجبى منها.^(٢)

ومما يجدر ذكره أن الرغبة في القضاء على الإسلام قد ازدادت تأججا وضراوة وعنفاً لدى المسيحيين و يتضح ذلك من المرسوم الذي بعثه البابا نيقولا الخامس في سنة ١٤٥٤م إلى هنري الملاح و استهله بقوله: إن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه الملك جون بوصفه جندياً قديراً من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله المسيح من المسلمين و الكفرة، و مضى البابا نيقولا الخامس يقرر في نفس المنشور أنه منح هنري الملاح الحق في أن يغزو ويحتل و يخضع جميع الشعوب و الأقاليم التي يسودها حكم أعداء المسيح، و أن يحتل

HAMILTON GENESTA : OP. CIT, P. 15. (١)

(٢) شوقي الجمل (دكتور): تاريخ كشف أفريقيا، ص: ١٦٥.

ويحوز البحار اللازمة للقضاء على انتشار طاعون الإسلام^(١)

وهكذا أراد هنري انتزاع تجارة غانا من أيدي المسلمين و نشر المسيحية في ربوعها، وإنشاء إمبراطورية برتغالية في تلك الأصقاع يشرف عليها جماعة فرسان المسيح.

ولما كان الوصول إلى غانا من داخل القارة دونه أهوال لا يستطيع التغلب عليها، وكان المسلمون يسيطرون على هذا الطريق البري، فكر هنري في طريق بديل هو الطريق البحري، ومن هنا جاء اهتمامه بكشف الشاطئ الأفريقي المؤدي إليها.^(٢)

وفي عهد هنري اكتشف البرتغاليون جزر كناريا* (ANARY ISLANDS) و جزر ماديرا (MADERA ISLANDS) و جزر أرورس (AZORES) فقاموا باحتلالها وإدخال زراعة الكروم وقصب السكر فيها، واختار البرتغاليون جزيرة أرجيوم (ARGIUM)^(٣) قاعدة ملائمة لأساطيل الصيد، وقاعدة لتجارة الساحل، و كانوا يأملون في تطوير هذه التجارة في داخل أفريقيا، بحيث تقضي على طريق القوافل الواصلة بين مالي و مراکش.

وللحفاظ على مستعمراتهم بدأ البرتغاليون عام ١٤٤٨ م في بناء حصنين في هذه الجزيرة.^(٤)

(١) بانينكار: مرجع سابق، ص: ٢٧، محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي، عصر النهضة، بيروت ١٩٨٣م، ص: ٨٨.

(٢) شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ص: ١٦٦.

*انظر مواقع هذه الجزر (ملحق رقم ٨) ص: ٢٦٩.

(٣) أرجيوم (ARGIUM) هي جزيرة صغيرة تقع جنوبي الرأس الأبيض (CAPE BLANC) على الساحل الأفريقي، أنشأ فيها البرتغاليون قلعة حربية ومركزاً تجارياً في منتصف القرن الخامس عشر، ومنها تمكن البرتغاليون من التدخل في تجارة السودان الغربي ولكن أرجيوم كان مقدراً لها الأفول بسبب ضحالة عمق مياهها وصعوبة رسو السفن فيها، فما أن زاد حجم السفن حتى قضى عليها كمركز تجاري.

DUFFY. JAMES: PORTUGUESE AFRICA (LONDON 1959) P. 35.

(٤) فيج. جي. دي: تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة د. السيد يوسف نصر، القاهرة ١٩٨٢م، ص: ١١١

و منذ فتح سبته ١٤١٥م توالى فتوحات البرتغاليين لجزر الغرب الأفريقي حتى وصلوا نهر السنغال و الرأس الأخضر (CAPE VERDE)، وبعد ذلك وصل البرتغاليون إلى ماوراء الصحراء أي غينيا التي كانت و قتنذ سوقا عظيمة للذهب الوارد من تمبكتو (TEMBUKTU)^(١).

و كانت القصص قد أشاعت أنها غنية بالذهب، و البرتغاليون يطمعون في الحصول على الذهب الذي سيمنكهم من الإنفاق على رحلات كشفية أخرى للوصول إلى تجارة الهند.^(٢)

ونظرا لعدم تمكنهم من الوصول إلى مراكز الذهب في تمبكتو انصرفوا إلى تجارة الرقيق الذي كان مركز تجميعهم في أرجيوم، وبعد ذلك يعد للرحلة الطويلة عبر الأطلسي^(٣)، ويتم بيعهم في البرتغال كي يعملوا عبيداً في الأقاليم الجنوبية من البرتغال، لأن هذه المناطق الجنوبية من البرتغال كانت غير أهلة بالسكان، حيث استردها البرتغاليون حديثا من حكامها المسلمين.^(٤)

وقد كانت أهم النتائج التجارية التي ترتبت على جلب الزنوج من غرب أفريقية، اعتناقهم المسيحية، هذا إلى جانب تنشيط تجارة الرقيق في أوروبا.^(٥)

وقد لقيت تلك الرحلات تشجيعا عميقا من الأمير هنري الملاح طوال حياته حتى توفي عام ١٤٦٠م بعد أن نجح في بث روح جديدة في الشعب البرتغالي، و أصبحت بلاده رائدة الدول الأوروبية في مجال الكشوف الجغرافية، ولكن شاءت الأقدار أن يطويه الموت قبل أن يشاهد كشف بلاده لطريق رأس الرجاء الصالح ووصولها بحرا إلى الهند.

(١) شوقي الجمل (دكتور) مرجع سابق، ص: ١٦٥

(٢) محمد صفى الدين: أفريقيا بين الدول الأوروبية، القاهرة ١٩٥٩م، ص: ٧٣.

(٣) DUFFY : OP. CIT. P. 133

(٤) فيج. جي. دي: مرجع سابق، ص: ١١٢

(٥) فيج. جي. دي: مرجع سابق، ص: ٢٦.

وبعد مماته توقفت الرحلات الكشفية الأساسية في الفترة ما بين ١٤٦٠، ١٤٦٩م كما توقف أيضا النشاط البرتغالي عند جزر الرأس الأخضر، التي كان قد تم استعمارها من قبل بواسطة الحملات الكشفية البرتغالية. و بعد أن توطدت أقدام البرتغاليين في الساحل الغربي لأفريقيا أخذوا يتوسعون في اكتشافاتهم الجغرافية حتى وصلوا إلى ساحل سيراليون عام ١٤٦١م بعد وفاة الأمير هنري بعام واحد.

و اهتموا بإنشاء الحصون والقواعد على الساحل الغربي لأفريقيا لخدمة أغراضهم التجارية والاستعمارية، وكونوا أيضا شركة لتقوم بالتجارة مع ساحل غانا (GHANA) في الرقيق والذهب، بإرشادات من الأمير هنري الملاح، وازدهرت تجارة الرقيق حتى قيل إن عددهم أصبح في لشبونة يزيد على عدد عشر سكانها.^(١)

وكان الكابتن ديجو كام (DIEGO CAM) هو أول من تمكن من الوصول إلى مصب نهر الكونغو في منتصف عام ١٤٨٤م وأبحر في النهر حتى بوما (BOMA)^(٢) وأخذ البرتغاليون معهم إلى لشبونة أربعة من الزعماء الأفارقة وعاملوهم ككبار الضيوف، وكان الهدف من هذه المعاملة الطيبة، أن يكون الأفريقيون دعاة لهم في بلادهم يشهدون بتفوق البرتغال الحضاري. وبنواياها السلمية، و يبدو أن البرتغاليين أرادوا السيطرة على هذه البلاد عن طريق التسرب السلمي تحت ستار التجارة والتنصير والتمدين، وربما كان تفسير ذلك اعتقادهم في قوة ملك الكونغو وصعوبة استخدام القوة ضده - وقتئذ - فضلا عن الاعتبارات التي كانت كامنة وراء التوسع البرتغالي.

فقد كانوا يعتقدون بإمكان الوصول عن طريق الكونغو إلى مملكة القديس يوحنا الواقعة في شرق القارة، وأن التحالف مع ملك الكونغو قد يساعدهم على تحقيق هذا الهدف.^(٣)

وكان للنجاح الباهر الذي حققته حركة الكشف البرتغالية في غرب أفريقيا أثره

(١، ٢) شوقي الجمل (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٦٦.

(٣) راشد البراوي (دكتور) : الرق الحديث في أفريقيا، القاهرة ١٩٦٢م، ص: ١٦، ١٧.

البالغ على الملك جون الثاني (١٤٨١-١٤٩٥) الذي قرر مواصلة الجهود الكشفية حتى بلوغ البرتغال بلاد الهند برا وبحرا في أن واحد، فكلّف كلاً من بيرو دي كوفيلهام (PERO-DE COVILHAM) و الفونسو دي بايفا (AL FONSO DE PAITA) للبحث عن طريق يخترقان فيه أفريقيا وآسيا لكي يصلّا إلى الهند.^(١)

كما وجه- من جهة أخرى- ثلاث سفن تحت إمرة بار ثلوميو دياز (BARTHOLOMEU DIAZ) الذي جاءت رحلته المشهورة متوجة لجهود من سبقوه في محاولات ارتياد الشاطئ الغربي لأفريقيا، و قد ارتبط اسمه بكشف طريق رأس الرجاء الصالح.^(٢)

رحل دياز من لشبونة عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م، وسار بمحاذاة الساحل الغربي لأفريقيا، فوصل إلى خليج و الفيش (WALFISH) ونظرا لقوة التيارات البحرية التي تدور حول أفريقيا، عمل دياز على تفاديها بالاتجاه نحو الجنوب، حتى وصل إلى نطاق الرياح الغربية، ثم اتجه شرقا فشمالا، إلى خليج (MOSET BEY) وبعد أن أمضى عدة شهور في هذه الرحلة لاحظ أن الساحل الأفريقي قد أصبح على الجانب الأيسر من سفنه، فأدرك أنه عبر هذا الطرف، وأنه يتجه شمالا بمحاذاة الساحل الشرقي للقارة.^(٣)

ولم يستطع دياز المضي قدما في رحلته، لأنه واجه تمردا خطيرا من بحارته، مما جعله يضطر- من أجل المحافظة على سلامة سفنه - لقطع رحلته والعودة إلى لشبونة مارا بمنطقة الرأس بعد أن أطلق عليه اسم رأس العواصف (CAPE TORMENTOSO) ثم سمي بعد ذلك تفاؤلا باسم رأس الرجاء الصالح

(١) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية، ترجمة يوسف كمال، القاهرة ١٩٢٧م، ص: ٢٠٥.

(٢) محمد مخزوم : مرجع سابق، ص: ٨٩.

(١)(CAPE DE BOA ESPERANCA)

وعلي هذا يكون بارثلوميو دياز هو أول من اجتاز رأس العواصف (رأس الرجاء الصالح) على عكس الرأي الشائع بأن فاسكو دي جاما (VASCO DE GAMA) هو أول من عبر رأس الرجاء الصالح، وبهذا أخذ أمل البرتغاليين يزداد في إمكان تحقيق أهدافهم الرئيسية التي تمثلت في العمل على السيطرة على مواطن التوابل وفرض الحصار الاقتصادي على مداخل البحر الأحمر و الخليج العربي، بدايةً أساسية لانتزاع احتكار تجارة الشرق من مصر، و حرمانها من المكاسب الكبيرة التي كانت تشكل الجزء الأكبر من اقتصادها الذي تعتمد قوتها عليه، والعمل على الاتصال بالحبشة المسيحية، و تحقيق التعاون معها من أجل ضرب مصر عسكرياً من الخلف و القضاء على المسلمين و مقدساتهم.^(٢)

وبعد مضي عشر سنوات جاء دور فاسكو دي جاما ليكمل مابدأ بارثلوميو دياز في اجتياز رأس الرجاء الصالح و الوصول إلى شرق أفريقيا و الهند، وقد تمت رحلته في عهد الملك البرتغالي دون مانويل (DON MANOUL) ١٤٩٥-١٥٢١م، وقد كانت الهند وقتئذ منقسمة، وكان كل من السلاطين الأتراك و الأفغان يتنافسون فيها، و يحتفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة.

وبعد تمكن بابر- الحفيد الخامس لتيغور لنك- من مد حكمه من سمرقند إلى كابل ثم إلى دلهي، و انتصرت مدفعيته على أفيال الإقطاعيين، و سيطر على شمال الهند بعد أن نشر الإرهاب على طريقة أجداده، و أحرق النساء و الأطفال كما تمكن حفيده أكبر من إتمام عمله، و توحيد كل الهند تحت حكمه، ماعدا أقصى الجنوب، فأصبح الخان الأعظم و تمكن بذلك أحفاد المغول من حكم الهند.

(١) السيد رجب حراز (دكتور): مرجع سابق ص: ٣١٦، وانظر أحمد محمود المعمرى، عمان

وشرق أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبدالله، عمان، ص: ٤٨

(٢) محمد عبدالعال (دكتور): أضواء جديدة على ملامح فاسكو دي جاما، مجلة الدراسات

الإفريقية، العدد الخامس، القاهرة، ١٩٧٦، ص: ١٥٥، ١٥٦.

و كانت بلاد الهند بمحصولاتها الثمينة و توابلها الشهية، و تجارتها الرابعة السوفيرة هي الهدف الأول للبرتغاليين و محط آمالهم في مشروعات الكشف الجغرافي^(١).

وقد أدى نجاح بارتلوميود ياز في اكتشاف رأس الرجاء الصالح في فتح الطريق إلى الهند، حيث أصبح مفتوحاً أمام البرتغال وبقي على الملك مانويل (الملقب بالسعيد) أن يحقق ذلك الحلم. ولم يتم البت في الإقدام على هذه الحملة إلا بعد مناقشات طويلة، وفي المجلس الأكبر الذي بحث ذلك المشروع كانت المعارضة قوية وملحة تجاه الخطة الموضوعة للحملة، التي كان كثير من أصحاب الرأي والمشورة في البلاد يظنون بأنها سراب خادع، من المحتمل أن يدمر مالية الدولة، غير أن الملك مانويل وقف بقوة إلى جانب المشروع و أمر بتجهيز السفن المسلحة فوراً للحملة..^(٢)

وقد رشح لقيادة الحملة فاسكو دي جاما*، وهو نبيل من رجال البلاط الملكي وذلك لخبرته بالبحار، فقد سبق أن أرسله الملك جون الثاني (١٤٨١-١٤٩٥م) على رأس بعض السفن لاكتشاف ساحل إفريقيا، فعبريودوا انفانت (RIODO INFANT شمالاً).^(٣)

كما أرسل للاشتراك في بعض الغزوات البرتغالية بعد عودته عام ١٤١٩م لمحاصرة بعض السفن الفرنسية، بالإضافة إلى خدمته للملك جون الثاني.

وكان دياز قد نصح فاسكو دي جاما بأن السفن التي كانت معه لاتصلح لرحلة طويلة، كما أنها كانت غير صالحة للدخول في المواني الضحلة، و على هذا أشار عليه ببناء سفينتين إحداهما حمولة ١٢٠ طناً، وهي ساوجبرائيل، و الأخرى حمولة ١٠٠

(١) جلال يحيى (دكتور): التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، الإسكندرية، ص: ٣٩١ - ٣٩٢.

(٢) باتيكار: مرجع سابق، ص: ٢٩

* انظر صورة للقائد البرتغالي فاسكو دي جاما (ملحق رقم ٢٥) ص: ٢٨٧.

(٣) CORTESAO ARMANDO : THE MYSTERY OF VASCO DA GAMA, COIMBRA, 1973. P. 16.

طن وهي ساورفائيل، والجدير بالذكر أن هذه السفينة قد غرقت - فيما بعد - عند عودة الأسطول البرتغالي من الهند، بالإضافة إلى سفينتين أخريين هما (كارمل) وهي سفينة سريعة بينما كانت الأخرى سفينة بضائع بقيادة (جون الفونس) ضابط العتاد الحربي.^(١) وللأهمية القصوى التي علقها التاج البرتغالي على كشف الطريق الجديد إلى الهند، ذهب الملك مانويل بنفسه إلى المرفأ وحوله أفراد الحاشية ليكونوا في وداع فاسكودي جاما وأعضاء رحلته، وقد أبحر دي جاما مع بيتر الانكسير الذي كان مدير الدفة لسفن دياز.

ومن ميناء رستلو (RESTELO) أبحرت السفن من ثغر لشبونة في الثامن من شهر يوليو ١٤٩٧م* بين هتاف الجماهير وصياحهم، وكانت سفينة القيادة المسماة ساوجبرائيل وعليها القائد الربان الأكبر تحمل عشرين مدفعا وترفع على ساريتهما علما رسم عليه صليب كبير للمسيح، وهما الرمزان اللذان اتخذتهما القوة الجديدة الزاحفة على الشرق، أما السفينة الثابتة ساورفائيل فقد كانت بقيادة بول الشقيق الأصغر لفاسكو.^(٢)

وكان عدد بحارة الأسطول مائة وخمسين بحاراً، وزودت السفن بالأجهزة الخاصة بالملاحة، كما زودت بالخرائط اللازمة والكتب وقد سلك الأسطول طريق من سبقوه.

ومن نصائح دياز لفاسكو دي جاما أن يترك أمامه - وهو متجه جنوباً - جبهة بحرية واسعة للاستفادة من هبوب الرياح التجارية في منطقة الرهو الاستوائي بأفريقيا المدارية، وقد استفاد فاسكو دي جاما من النصائح التي قدمت له، فبعد وصوله إلى جزر الرأس الأخضر، ارتحل إلى ميناء سانتياجو حيث قضى به أسبوعاً

BESCE ANGELO : JIDDAH PORTRAIT OF AN ARABIAN (١)
CITY. ITALY 1977. P. 68

* انظر خط سير رحلة فاسكودي جاما من لشبونة إلى الهند والمحطات التي مر بها في غرب وشرق إفريقيا (ملحق رقم ٨) ص: ٢٦٩.
(٢) وندل فيلبس : مرجع سابق، ص: ٣٧.

للتزود بالمؤن.

أبحر دي جاما في ٨ اغسطس إلى ساحل أفريقيا، و بمساعدة الرياح اتجه إلى الجنوب الغربي مقتربا من أمريكا، ثم بعد ذلك استفاد من الرياح العكسية ليقرب مرة أخرى من أفريقيا الجنوبية قاطعا ٥٠٠ ميل في ثلاثة عشر أسبوعا دون أن يرى جزيرة واحدة.^(١)

وفي نوفمبر رأى فاسكو دي جاما مع بحاربه اليابسة، ورسوا عند خليج أطلقوا عليه اسم خليج القديسة هيلانة (ST.HELENA,BEY) حيث قضوا ثمانية أيام، ثم أبحروا مرة أخرى وعبروا رأس الرجاء الصالح^(٢)، ومنه استمروا في رحلتهم على الساحل حيث وصلوا إلى إقليم (ناتال) في يوم عيد الميلاد، وسميت هذه الأرض بذلك تيمنا بالمناسبة فكلمة (NATAL) تعني الميلاد.

وفي يناير ١٤٩٨م فقد دي جاما إحدى سفنه على الساحل الأفريقي شمال ناتال نتيجة العواصف الشديدة، فانتقل بحارتها إلى ظهر السفينتين الباقيتين^(٣) ثم واصل الملاحة شمالا حتى ثغر سفاله قرب نهر كليمانتي (KILIMANT) حيث رسوا لمدة شهر كامل للتمرين وإصلاح السفن.^(٤)

ثم أبحر فاسكو دي جاما مرة أخرى لمدة خمسة أيام فوصل إلى موزمبيق، حيث رحب بهم ملكها في باديء الأمر معتقدا بأنهم من المسلمين، فلما عرف أخيرا بأنهم مسيحيون وغرباء عن الشاطيء الأفريقي أوقف التعامل معهم، وبدأ الشك يساوره من ناحيتهم. ولما كان كشف البرتغاليين عن أهدافهم في تلك المرحلة من شأنه أن يثير مشاعر العداء ضدهم ويهدد بالقضاء على جهودهم وآمالهم، ويعرضهم لأخطار محققة، لهذا عمل دي جاما على معاملة أهالي المناطق التي يصل إليها بالحسنى، ولم يلجأ إلى استخدام العنف إلا إذا اقتضت الضرورة وذلك يتضح من تصريحاته، كما

(١، ٢) BESCE ANGELO : OP. CIT. P. 68

(٣) أنور عبدالعليم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٤٧.

(٤) يسري الجوهري (دكتور) : الكشوف الجغرافية. الإسكندرية ١٩٦٧م، ص: ١٢٢ - ١٢٣.

ذكر أحد الباحثين، فقد حدث ذلك أثناء تقدمه على الشاطئ الأفريقي الشرقي شمالا، إذ وجد قارباً عند موزمبيق على متنه بعض الزنوج وأحد البحارة ظنه البرتغاليون- في بداية الأمر- من المغاربة، فلما اقترب من السفن البرتغالية، هرع الزنوج، وألقوا بأنفسهم في البحر وفروا إلى الساحل، أما البحار فقد تم نقله إلى سفينة القيادة البرتغالية، حيث أحسن دي جاما استقباله، واكتشف أنه رجل هندي من أهل كمباي (CAMBAY) ويدعى دافان وليس عربياً مغربياً، وقد اتخذه دي جاما مستشاراً له، لأنه كان خبيراً بالتوابل، ومن سماسرتها، وقد وافق دافان على مرافقة البرتغاليين إلى الهند وتعهدهم بتزويدهم بحمولة من التوابل نظير توصيله إلى بلاده.^(١)

ومن المسلم به أن الملاحين الهنود كانوا يرتادون المحيط الهندي إلى الشرق الأفريقي قبل ذلك بعدة قرون، كما كانت السفن الهندية تتردد على موانئ الساحل الأفريقي الشمالي والخليج العربي.^(٢)

وكان وصول الأسطول البرتغالي إلى موزمبيق في وقت كانت فيه أربع سفن راسية في الميناء محملة بالتوابل وغيرها من البضائع الهندية، فلم يتعرض لها البرتغاليون بسوء. وطلبوا من حاكم موزمبيق تزويدهم بالمرشدين فزودهم باثنين منهم، لكنهما هربا من البرتغاليين عندما علموا أنهم مسيحيون.^(٣)

فقد قصف البرتغاليون المدينة ودمروها مما ترك لدى سكان الساحل انطباعات مبكراً عن وحشية الغزاة القادمين إليهم.

وفي ١٠ مارس ١٤٩٨ م أبحروا بقيادة فاسكو دي جاما إلى ممبسة، التي وصلوا إليها في السابع من إبريل بعد جهد شاق ومقاومة للعواصف، غير أنهم لم يجدوا ترحيباً من الحاكم والأهالي، ولذلك لم يغامر دي جاما بالرسو بأسطوله في ممبسة

(١) محمد عبدالعال أحمد (دكتور) : مرجع سابق ص: ١٥٦.

(٢) باننيكار : مرجع سابق، ص: ٣٠.

(٣) محمد عبدالعال أحمد : مرجع سابق، ص: ١٥٦ - ١٥٧.

خوفاً من احتمال قيام حاكمها بتدمير سفنه وإغراقها، انتقاماً لما فعله ضد أهالي موزمبيق.^(١)

وعلى أثر هذا العداء الذي لقيه دي جاما من كل من موزمبيق وممبسة نتيجةً طبيعية لسياسته العدائية التي مارسها ضدهما. اضطر إلى الإبحار بأسطوله فوراً تجاه ماليندي.^(٢)

وقد أقام فاسكو دي جاما بضعة أسابيع في ماليندي وأخذ يجمع المعلومات عن أقرب وأسهل طريق ملاحى يؤدي إلى الهند، ووطد علاقته مع حاكم ماليندي- وكان يدعى وجراج- الذي أحسن استقباله، وبالع في الترحيب به، فقد كان حاكم ماليندي رجلاً ذا أطماع سياسية أراد أن يتخلص من تبعيته لسلطان كلوة وظن أنه سوف يتلقى تأييداً من القادمين الجدد في الظفر بالاستقلال ولكنه كان في ظنه من الواهمين الخاسرين.^(٣)

ولما لمس دي جاما الترحيب البالغ من حاكم ماليندي طلب منه تزويده بمشرد يصحبه في رحلته إلى الهند، فوافق ووعد بتحقيق طلبه، وفعلاً أرسل إليه فوراً الربان العربي والعالم الفلكي أحمد بن ماجد.^(٤)

وقام بإرشاد فاسكو دي جاما للوصول إلى الهند، وقد ألقى البعض مسئولية وصول البرتغاليين إلى الهند على أحمد بن ماجد، وماترتب على ذلك من تحويل

(١) جيان: مرجع سابق، ص: ٢٠٩، وانظر: أحمد محمود المعمرى: مرجع سابق، ص: ٤٩.

(٢) يقع إقليم ماليندي على خط عرض ٣ جنوب خط الاستواء، ويتبع حالياً جمهورية كينيا.

(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور) مرجع سابق، ص: ١٢٢.

(٤) ابن ماجد هو: شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو فضل ابن دويك بن يوسف بن حسن بن الحسين بن أبي معلق السعدي، بن أبي الركاثب النجدي، وقد ولد في جلفار من الخليج العربي وتسمى اليوم رأس الخيمة، إحدى إمارات دولة الإمارات العربية المتحدة، وقد كان ابن ماجد بحاراً مرموقاً جم النشاط في المحيط الهندي، وبخاصة في المنطقة الواقعة بين الساحل الشرقي لأفريقيا وبين الهند، وجاب الهند وسيام والزنج وفارس، والسند، والحجاز، واليمن، وهرمز.

انظر: د. أنور عبدالعليم، مرجع سابق، ص: ١٢.

التجارة من الشرق إلى الغرب عن طريق رأس الرجاء الصالح مما ترتب عليه تغيير في موازين القوى، و تحويله لصالح البرتغال و تحقيق طموحاتها للسيطرة على تجارة الشرق، ومواجهة الدول الإسلامية و القضاء عليها.

وسوف نرى فيما بعد دور الممالك ضد الهجمة البرتغالية على الشرق الإسلامي.

* * *

الفصل الأول
العمليات البرتغالية للسيطرة
على تجارة شرق أفريقيا

الفصل الأول

* الحملات البرتغالية للسيطرة

على تجارة شرق أفريقيا

* حملة كابرال ٩ مارس ١٥٠٠م

* حملة فاسكو دي جاما الثانية مارس ١٥٠٢م

* حملة فرانسكو دي الميدا ١٥٠٥م

* حملة ترستان داكونها إبريل ١٥٠٦ م

* حملة الفونس دي البوكيرك ١٥٠٧م

* محاولة البوكيرك الاستيلاء على عدن

* ردود الفعل على سياسة الاحتكار البرتغالية

أولا : البندقية.

ثانيا : اليمن.

ثالثا : مصر.

رابعا : عرب الخليج و الساحل العماني.

الفصل الأول

الحملة البرتغالية للسيطرة على تجارة شرق أفريقيا

لماذا كانت هذه الحملة؟؟

لما كانت أوروبا قد تعاملت مع العرب في المجال التجاري ، وشعرت بأهمية التجارة العالمية بين الشرق والغرب التي سيطر العرب عليها حتى نهاية القرن الخامس عشر و وفرة الإيرادات التي امتلأت بها خزائن حكام الشرق الأدنى. هذا بالإضافة إلى احتكار البندقيه لنقل بضائع الشرق على أساطيلها التجارية و ماتدره هذه الوساطة عليها و بالتالي ارتفاع أسعار تجارة الشرق في أوروبا.

لذا فقد كانت هذه الأسباب الاقتصادية من أهم العوامل التي دفعت الأوربيين إلى حركة الكشف الجغرافية لإيجاد طريق آخر للتجارة لا يمر عبر الأراضي التي يسيطر عليها المماليك.

وقد وجدوا ضالتهم في طريق رأس الرجاء الصالح، و تشددوا في سبيل تحقيق هدف السيادة البرتغالية البحرية باحتلال الموانئ التجارية الواقعة على الطريق البحري بين الهند و رأس الرجاء الصالح، و جعلها مراكز منيعة للبرتغاليين والسيطرة على مداخل البحر الأحمر و الخليج العربي، و إغلاقها أمام التجار العرب. ولذا فقد أرسلت البرتغال إلى المنطقة مجموعة من الحملات العسكرية لتحقيق أهدافها الاستعمارية. و سنمر سريعا بهذه الحملات:

أولا : حملة كابرال ٩ مارس ١٥٠٠ كان من أهم نتائج حملة فاسكودي جاما أن وفرت للبرتغاليين بعد عودته إلى لشبونة- في أيلول ١٤٩٩م كل المعلومات الهامة والرئيسية لوضع الخطط الاستراتيجية المناسبة للاحتكار والسيطرة على الطريق المؤدي إلى الهند بأسرع وقت ممكن.*

* انظر الطرق التجارية البرتغالية المؤدية إلى الهند والخليج والبحر الأحمر (ملحق رقم ٩) ص: ٢٧٠

وقد أثار الوجود العربي في المحيط الهندي دهشة فاسكو دي جاما مما جعل القادة البرتغاليين يدركون حجم الصعوبات التي ستواجههم من قبل المسلمين في تلك المنطقة، ودفعهم ذلك إلى التفكير و التخطيط للقضاء عليهم و التخلص منهم^(١).

وبعد اكتمال المعلومات تم رسم الخطة التي بموجبها سوف تنطلق الحملات البحرية المتتابة إلى الهند، كما حددت أهدافها الاقتصادية و السياسية و الجغرافية بدقة.

وقد ساعد البرتغاليين على تحمل أعباء تمويل هذه الحملات رجال المال في مدينة انغرس (انتورب)^(٢). فقد أدرك رجال المال الفوائد الكبيرة التي يمكن أن تعود عليهم من حركة الكشف في مجال التجارة العالمية فسارعوا بمد البرتغاليين بالمال اللازم بعد تأكدهم من الأرباح الهائلة التي سيجنونها من وراء ذلك^(٣).

وصمم عمانويل OMMANUEL ملك البرتغال على الفوز بسيادة البحار فجهز أسطولاً بحرياً عظيماً، وخلع عليه البابا لقب (سيد الملاحه ر الفتح و التجارة في إثيوبيا و بلاد العرب وفارس و الهند)^(٤)

وبمجرد عودة أسطول دي جاما إلى لشبونه، كان هناك أسطول جديد يتجمع في تاجوس TAGUS للإبحار إلى الهند في أول فرصة ممكنة قبل أن يتمكن العرب في الهند من تسليح أنفسهم للدفاع، وحتى تفوت عليهم فرصة إثارة حاكم كانوري ضد البرتغاليين.

وكان من أهداف هذا الأسطول إقامة مصنع دائم في الملبار وإمداده بـ ١٢٠٠ رجل لمدة عام ونصف، كما جهزوا شحنات للتجارة، وقد عين لقيادة هذا الأسطول البحري المتجه إلى الهند بدرو الفارس كابريال PEDRO ALFARES CA-

(١) محمد عدنان : مرجع سابق - ص: ١٢٤.

(٢) تقع مدينة انغرس على ساحل بحر الشمال البلجيكي، وهي لا تزال من أكبر موانئ بلجيكا.

(٣) محمد عدنان: نفس المرجع السابق، ص: ١٢٥.

(٤) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ - ص: ١٤٣ - ١٤٤.

BRAL على رأس ثلاث و ثلاثين سفينة أبحرت من لشبونة في مارس ١٥٠٠ م^(١).

كان من رأي كابرال إقامة علاقات ودية مع زامورين حاكم قاليقوت الذي لم يكن له خيار- بسبب تفوق قوة البرتغاليين- سوي تلبية مطالبهم في إقامة المصنع بالمدينة غير أنه قد حدث في نهاية الأمر سوء تفاهم بينهما نتيجة لضغط الجالية الإسلامية أنهى الود بمذبحة ضد الحامية البرتغالية التي كانت تدير المصنع.

وكرر فعل من جانب البرتغاليين أحرق كابرال كل السفن الراسية بالميناء وأمطر البلدة بوابل مخيف من نيران المدفعية^(٢)، وأسفرت العملية عن قتل أعداد كبيرة، وكان في نيته الاستمرار في قذف المدينة عدة أيام غير أنه قوبل بمعارضة من قباطنة السفن الذين حذروه من الخطر الداهم على أسطولهم من استمرار القذف بالنار فأبحر بأسطوله نحو الجنوب إلى كوشين COCHIN و منها إلى ماليندي ثم لشبونة^(٣).

وقبل عودة أسطول كابرال كانت حكومة لشبونة قد أعدت أسطولاً آخر للإبحار صوب الهند بقيادة جوادا نوبا GOADO NOVA الذي قوبل بأسلوب غير

(١) ظل كابرال مبحراً على ظهر أسطوله حتى خط الاستواء، ثم اتجه إلى الجنوب الغربي عبر الرياح التجارية، وضبط البوصلة ناحية الغرب لكن التيارات القوية وجهته نحو سواحل البرازيل بالصدفة. وكان هذا الكشف من حسن حظ التاج البرتغالي.

انظر: BESCE ANGELO : OP. CIT. P. 72.

(٢) قُدر عدد السفن بخمس عشرة منها ثمان كبيرة.

(٣) الفقيه الشيخ زين الدين: تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين لشبونة ١٨٩٨ م، ويذكر الفقيه الشيخ في كتابه أن وصول البرتغاليين إلى الهند كان سنة أربع وتسعمائة من الهجرة النبوية ١٤٩٨ م، وأنهم وصلوا إلى فندرينة في ثلاث مسماريات (أي ثلاث سفن ثبتت أخشابها بالمسامير) بعد انقطاع موسم الهند ثم خرجوا منها إلى بندر كاليكوت في طريق البر، وأقاموا فيها شهوراً يتعرفون أخبار مليبار وأحوالها ولم يشتغلوا بالتجارة بل رحلوا إلى بلدهم برتكال وسبب وصولهم إلى مليبار على ما يحكي عنهم طلب بلاد الفلفل ليختص تجارته لهم فإنهم ما كانوا يشترونه إلا من الذين يشترونه ممن يجلبونه من مليبار بوسائط.

وذكر أنه بعد سنتين منها جاؤا في ست مسماريات ودخلوا كاليكوت على هيئة التجار واشتغلوا بالتجارة وقالوا لعمال السامري ينبغي منع المسلمين من تجارتهم ومن السفر إلى بر العرب.

ودي بمجرد دخوله إلى المياه الهندية من قبل زامورين حاكم قاليقوت الذي صمم على إبادة القوة، غير أن التفوق البرتغالي وقوة النيران ساعدت البرتغاليين على الصمود أمام حاكم قاليقوت، بل وتوجيه ضربة ساحقة إليه.

ثانيا: حملة فاسكو دي جاما الثانية مارس ١٥٠٢

أدت الأنباء التي وصلت إلى لشبونة عن مذبحه الحامية البرتغالية التي كانت تدير المصنع، وما تعرضت له القوات البرتغالية في المياه الهندية من مواقف عدائية من جانب حاكم قاليقوت وما نقله كابرال إلى حكومته عن الاشتباكات الدائمة في الهند ضد قوات بلاده إن صمم البرتغاليون على إرسال أسطول حربي قوي إلى الهند لمواجهة أية معارضة فتم تجهيز عشرين سفينة وسلحت تسليحا قويا ثقيلًا، وأشرعتها مثلثة اقتبسها البرتغاليون من العرب، وكان تعداد القوات التي استعدت للإقلاع على ظهر السفن ثمانمائة جندي^(١)

وأُسندت قيادة هذه القوات إلى فاسكو دي جاما الذي أبدى حماسا شديدا لمعالجة الأخطاء التي وقعت للحامية البرتغالية في قاليقوت و الثأر من العرب والقضاء على نفوذهم التجاري بواسطة أسطوله البحري، وتمزيق كل قواتهم التجارية لينفرد البرتغاليون باحتكار تجارة التوابل عن طريق رأس الرجاء الصالح.

وما كاد فاسكو دي جاما يصل إلى السواحل الأفريقية حتى بدأ أعماله العدوانية نحو سكان ساحل أفريقيا الشرقي - باستثناء ماليندي الموالية للبرتغاليين - ليثبت سيادة مولاة ملك البرتغال عمانويل EMMANUEL على البحار.

كما أقام مراكز للتوابل في كل من سفالة و موزمبيق وكلوة، واستولى على بعض السفن العربية التي تصادف وجودها في ماليندي وأخذ كذلك يتعرض للسفن العربية والإسلامية.

(١) يذكر ANGELO PESCE - ص: ٧٢، أن عدد السفن عشرون سفينة بينما يذكر محمد عدنان مراد في كتابه (صراع القوى) - ص: ١٢٦، أن عددها خمس عشرة سفينة فقط.

فعند وصوله إلى المياه الهندية قام في أول أكتوبر ١٥٠٢م بأسر سفينة كبيرة يمتلكها سلطان مصر تسمى مريم (MERIUM) كانت ترتبط بتجارة مع جده وكانت محملة بالتوابل كما كان عليها عدد من الحجاج الهنود يقصدون بيت الله الحرام في مكة فعاملهم بوحشية لانظير لها لطخت اسمه للأبد في سجلات التاريخ. وقد وصف أحد المؤرخين وصفا دقيقا سلوك فاسكو دي جاما تجاه حادث السفينة الإسلامية في أول أكتوبر ١٥٠٢م قائلا^(١):

ذهبت سفينة صغيرة إلى السفينة الإسلامية وشدها بالحبال، و ما إن علم القبطان العام أنها من قاليقوت حتى أمر رجاله بسلبها فنفذ الملاحون أوامره ونقلوا كل حمولتها إلى سفنهم حتى أخلوها تماما ورفض دي جاما الاستماع إلى أي من ركاب السفينة المور MOOR (أي المسلمين) ثم أمر بإشعال النيران فيها، ولم تجد محاولات قائد سفينة المسلمين وماقدمه من عروض على البرتغاليين.

فقد عرض أن يتجه معه إلى قاليقوت فيملا له سفنه بالتوابل دون أن يدفع عنها شيئا في مقابل إطلاق سراح الحجاج المسلمين وإخلاء سبيله، فرد دي جاما قائلا: "سوف تحرق حيا لأنك حرضت ملك كاليكوت ليقول البرتغاليين ويسلب المصنع. وحيث أنك قوي في كاليكوت حتى إنك تزعم منحي شحنة لهذه السفن فإنني أقول إنه ليس هناك شيء أعز في الوجود من إذاقتك الموت مائة مرة إذا كان هذا باستطاعتي.

ثم أمر بإعادته إلى سفينته وأشعل فيها النيران - رغم محاولة ملاح السفينة لإثناء دي جاما عن عزمه للاستفادة من الثروة التي عرضها القائد المسلم. غير أن محاولتهم لم تجد لدى القائد البرتغالي سوى أذن صماء، وتحمل فاسكو دي جاما كل المسؤولية عن القرصنة والفظاعة التي لامثيل لها.

BESCE ANGELO : OP. CIT. P. 79. (١)

انظر: شوقي الجمل : قضية روديسيا بين الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية، القاهرة، ص: ٥٦

وفي الوقت الذي كان البرتغاليون يغادرون فيه سفينة المسلمين بعد إشعال النيران فيها كانوا لا يزالون يسلبون منها كل ما يجدونه مما سهل لبعض المسلمين الاستيلاء على الأسلحة التي تركها البرتغاليون فقتلوا البعض و جرحوا آخرين حتى اضطروهم إلى القفز في البحر، وقاموا بقطع الحبال المربوطة بالسفينة فتجمعت حولهم القوارب البرتغالية برجالها المسلحين، وأظهر المسلمون - وكان عددهم يبلغ سبعمائة رجل - شجاعة نادرة، و أثبتوا أنهم مقاتلون بواسل لم يتورعوا عن بذل نفوسهم في الجهاد بدلا من إهلاكها بالنار فتمكنوا من الصعود على ظهر سفينة فرانسيسكو ماركوس و حاربوا بشجاعة، غير أن السفن البرتغالية أحاطت بهم من كل جانب و تمكنت من إبادةهم عن آخرهم^(١)

وكان مما ذكر عن هذه المجزرة أن فاسكو دي جاما أمر قبل إشعال النيران في السفينة بالمحافظة على حياة عشرين طفلا أمر بتحويلهم إلى النصرانية في الوقت الذي أصدر فيه أمراً آخر بسبي نساء السفينة.

وبعد أن نفذ دي جاما مذبحته في سفينة الحجاج المسلمين توجه إلى الهند وعقد مع حاكم كانوري معاهدة تجارة، وأخذ منه عهدا بإقامة المصنع البرتغالي قرب الميناء ثم اتجه بأسطوله إلى كاليكوت وقام بمظاهرة بحرية في الوقت الذي أرسل فيه رسالة إلى زامورين يطلب فيها الترضية وإصلاح التخريب الذي حدث لمصنع كابرال ودفع تعويض مناسب عن حياة البرتغاليين وأملاكهم التي فقدوها أثناء الهجوم على المصنع المذكور^(٢).

ولم ينتظر دي جاما رد رسالته بل إنه عاد إلى تصرفاته الوحشية وغير الإنسانية مرة أخرى فما أن اقترب من السفن غير المسلحة في الميناء حتى أسر خمسين مواطنا هنديا رهينة، وأرسل تحذيرا للملك زامورين بأنه إذا لم تصله منه إجابة واضحة في وقت محدد فإنه سوف يبدأ الحرب ويقتل الرهائن، وعندما لم يصله الرد المطلوب

BESCE ANGELO : OP. CIT. P. 73 - 74 (١)

(٢) محمد عدنان مراد: مرجع سابق، ص: ١٢٦.

أمر بشنق ضحاياه التعساء وقام رجاله بالتمثيل بجثثهم بوحشية متناهية، ثم أمطر المدينة بوابل من مدفعية أسطوله ثم غادرها إلى كوشين حيث استقبلهم ملكها (ترايمومبار TRIMUMPAR) بترحاب كبير، ووقع معهم معاهدة صداقة وتجارة.^(١)

وكان دي جاما وهو في طريقه إلى كانوري قد قسم أسطوله إلى مجموعتين :
الأولى : تضم ثلاث سفن كبيرة وخمس سفن شراعية صغيرة أسند قيادتها إلى فنسنت سودري (SODRE) وأمره بأن يسير بمحاذاة الساحل.
والمجموعة الثانية : تضم بعض الشحنات وبعض المراكب الصغيرة وعددها عشرة وجميعها تحت إمرته هو على أن تبعد قليلا في البحر.

ولم يكن زامورين حاكم كاليكوت غافلا عن تحركات أسطول دي جاما ولا عن أسلوبه الوحشي الذي اتسم بالهمجية في معاملة أهالي كاليكوت فأرسل أسطوله خلف البرتغاليين لتعقبهم، وكان هذا الأسطول يتكون من ٢٩ مركبا شراعية بقيادة خوجامبار (KHOJAMBA) وهو ملاح عربي تمتع بشهرة واسعة بالإضافة إلى عدة دست من السامبوكة والمبارية بقيادة خوجا قاسم وهو من أكفأ الملاحين المشهورين في هذا الساحل.^(٢)

وإذا نظرنا إلى القوة العسكرية لكل من الطرفين نجد أن كفة الزامورين أو

(١) BESCE ANGELO : OP. CIT. P. 74

(٢) السمبوكة : جمع سمبوك، وتطلق على السفن التي شاع استخدامها في عمان والخليج العربي والقرن الإفريقي والهند وهي من النوع الصغير الذي يُستعمل للأسفار والنقل كما تقوم هذه الأنواع بمهمة الاستطلاع نظرا لخفتها، وسرعتها حيث تسبق مثيلاتها من السفن الكبيرة الأخرى.

وقد أطلق عليها ابن بطوطة في كتابه (تحفة الأنظار) جـ ١، بيروت ١٩٨٥م - ١٩٦٦م اسم صنبيق، حيث قال: «تصعد الصنابق وهي القوارب الصغار» ولكنه أشار إلى أن اللفظ غير عربي والعكس صحيح فهو عربي لأنها سميت سبوقا لسرعتها ووصفها العرب بالسبوق. انظر الشيخ زين الدين - مصدر سابق، ص: ٣٩

الأسطول الشرقي كانت أكفأ وأرجح غير أن البرتغاليين يملكون أسطولا مزودا بمدافع أبعد مدى لمحاولة الإبقاء على مسافة معينة لدهام تعيينهم على النجاح في المعارك.

ونشبت المعارك بين الطرفين بقيادة أمير البحر المعروف قاسم - الذي أظهر براعة نادرة في المناورة للتخلص من قنابل الأسطول البرتغالي - من إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين بالرغم من مدفعيتهم بعيدة المدى^(١).

إلا أنه وبسبب هذا التفوق الواضح في المدفعية تمكن البرتغاليون في نهاية المطاف من إعاقة الجزء الأكبر من الأسطول الشرقي ثم هزيمته، وتلى ذلك - كعادة البرتغاليين - السلب والنهب ثم مذبحه رهية.

ولم يكتف دي جاما بما حققه من انتصارات على الزاموريين في مياه الهند، بل كلف قائده سودري بالبقاء بالخلف ليقوم بحملة تأديبية أخرى على كاليكوت وهو في طريقه إلى كانوري.

وفي كانوري حصل البرتغاليون على ملكية رسمية لقطعة أرض يقيمون عليها المصنع المنشود، وعين جل فرنار بوسا رئيسا له.

بدأ هذا الرئيس على الفور بجمع عدد كبير من قطع المدافع والذخائر والمؤن للمصنع وشرع في بناء حائط وسياج حول قطعة الأرض البرتغالية في الهند لتأمين المصنع من أي هجمات محتملة - كما حدث من قبل - وقد ترك دي جاما ست سفن ومائتي رجل بقيادة سودري، وأمره أن يتجول طوال الصيف على الساحل ويقوم باستفزاز مستمر لكاليكوت وملكها زامورين وأن يحرص على زيارة كوشين، ويفعل كل ما يأمره به ملكها، حيث أن هذه هي رغبة ملك البرتغال عمانويل.

ولم يمهل القدر سودري لتنفيذ هذه المهام الموكلة إليه فقد تحطم أسطوله على جزر كوريا موريا في نفس صيف ١٥٠٣ م وغرق.

(١) محمد عدنان مراد : مرجع سابق ص: ١٢٦.

أما دي جاما فقد غادر مياه الهند متجها إلى لشبونة التي وصلها في أول ديسمبر ١٥٠٣م حاملا ثروة عظيمة سلبها من السفن العربية والإسلامية.

وقد قدرت شحنته بـ ٢٤,٠٠٠ دوكات ذهبية DUCATS وكانت تضم ٣٥٠٠ طن من التوابل، ٥٠٠ طن من الفلفل وبعض الذهب الذي حصل عليه من سلطان كلوة بالإضافة إلى تمثال من الذهب يزن ٤٠ رطلا مع زمردتين ثمينتين سلبهما من أسطول الزامورين بعد هزيمته واحتفظ بهما لإهدائهما ملك البرتغال^(١).

وقبل عودة فاسكو دي جاما كانت هناك حملة بحرية أخرى قد أقلعت من البرتغال في السادس من أبريل ١٥٠٣م وأسندت قيادتها إلى ثلاثة من كبار القادة وهم الفونسو دالبوكيرك وأخوه فرانسيسكو وانطوان دي سالدانها^(٢).

وكان من أهم أهداف البوكيرك عند وصوله إلى الهند الانتقام من زامورين صاحب كاليكوت - الذي كان قد تمكن - بعد عودة دي جاما - من التغلب على كوشين وإحراق مدينته والقضاء على الحامية البرتغالية فيها.

وقد تمكن البوكيرك من تنفيذ مهمته وأجبر زامورين على إقامة قلعة برتغالية في بلاده، كما ألزمه بدفع غرامة عينية كبيرة ومنع تصدير تجارة بلاده إلى البحر الأحمر كما عمل البوكيرك على تمكين مركز بلاده في كوشين إلى جانب تدعيم مركز الحامية البرتغالية فيها بإمدادها بالسلاح والعتاد ثم ترك أخاه فرانسيسكو وانطوان في مجموعتين من السفن، وعاد إلى البرتغال.

وسعى البوكيرك أثناء وجوده في الهند إلى الاستفادة من جمع المعلومات ووضع الخطط عن المنطقة ضمنها تقريره الذي قدمه إلى الملك عمانويل - بعد عودته سنة

BESCE ANGELO : OP. CIT. P. 74 - 75^(١)

^(٢) يذكر، د. محمد عبدالعال في كتابه: بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (٦٢٨ - ٩٢٣هـ) / ١٢٣١ / ١٥١٧م، الإسكندرية ١٩٨٠م، ص: ٤٨١ أن الحملة غادرت لشبونة في ٦ إبريل سنة ١٥٠٣م، بينما يذكر ما يلز أن الحملة غادرت لشبونة في ٦ فبراير من نفس العام.

١٥٠٤م - بالإضافة إلى مقترحاته للمشروعات العديدة التي يرى إقامتها في المنطقة ليضمن لبلاده السيطرة البحرية.

وكانت تسيطر اعتقادات مفادها أن مشروعاته كلها قابلة للتحقيق بسبب ضعف الشعوب الآسيوية.

وقد طرحت فكرة البوكيرك وخطته على المجلس البرتغالي لمناقشتها، ورغم اعتراض بعض النبلاء عليها أمثال الماركيز سادانا وغيره إلا أنها قد اعتمدت بسبب مساندة الملك لها وتعهده بإتمامها.

وقد أدت السفن التي تركها كل من دي جاما والبوكيرك في المياه الهندية مهام جسيمة وأكثر البرتغاليون من بناء القلاع في تلك المناطق مما سهل للبرتغاليين مهاجمة السفن التجارية الإسلامية المتجهة إلى البحر الأحمر أو القادمة منه على السواء، وترتب على ذلك أن احتلت البرتغال مركز الصدارة في التجارة الشرقية.

هذا بالإضافة إلى ما كان يراود البرتغاليين من أمل في الاتصال بملك الحبشة المسيحي للتحالف معه في رسم مخطط لضرب القوى الإسلامية والولوج بمساعدته إلى مكة المكرمة لضرب العالم الإسلامي في أغلى مقدساته^(١).

ولهذا فقد استمر تدفق الأساطيل من لشبونة إلى المياه الهندية، ففي سنة ١٥٠٤م غادر البرتغال أسطول آخر متجها إلى الهند لتحقيق هذا الهدف وتمكن من إيقاع مجموعة من السفن العربية القادمة من جدة في كمين نصب لها، واستمر في تطبيق سياسة الانتقام ضد السفن الإسلامية القادمة من البحر الأحمر، كما قام بمساعدة ملك كوشين ضد السفن التي كانت راسية في ميناء كاليكوت وقام بتدمير مجموعة منها قبل خروجها من الميناء وحقق انتصارا على ملكها زامورين.

وبعد أن استقر البرتغاليون في كشي «كوشين» فرضوا على جميع السفن التجارية

(١) فائق بكر الصواف ومصطفى رمضان: أهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، القاهرة: ١٩٨٠م - ص: ٢٦٤.

أن تحمل ورقة بمثابة جواز مرور ودفع رسوم للحصول على هذه الورقة لتمكنهم من المرور بعرض البحر بسلام، وإذا وجد مركب ليس به ورقتهم أخذوه ومن فيه ومافيه^(١).

ثم عاد الأسطول إلى البرتغال حاملاً معه ما جمعه من أسلاب قدرت بأربعة وعشرين ألف قنطار من التوابل^(٢).

وقد شملت هذه الكمية بعض الهدايا التي قدمها ملك كوشين المتحالف مع البرتغاليين إلى عمانويل ملك البرتغال^{(٣)*}.

ثالثاً: حملة فرانسيسكو دي الميدا ١٥٠٥ FRANCISCO DA ALMIDA

بحلول سنة ١٥٠٥ م تبدأ مرحلة جديدة في الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي. فقد قرر عمانويل ملك البرتغال، «وهو أول من حمل لقب سيد الفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس» أن يقضي على تفوق الدول العربية التجاري مرة واحدة عن طريق احتلال عدن وهرمز وملقا والاستيلاء على القواعد العربية في أفريقيا^(٤)، فاستقر رأى ملك البرتغال على تعيين نائب له بصفة دائمة في الهند، ويتولى توجيه السفن المتجهة من لشبونة إلى المياه الهندية بما يخدم ويحقق المصالح والأهداف البرتغالية، ووقع الاختيار على الدوق فرنسيسكو دي الميدا ليكون أول نائب لملك البرتغال في المستعمرات البرتغالية في الشرق، فغادر لشبونة في ٢٣ مارس ١٥٠٥ م على رأس أسطول كبير بلغ عدده ثلاثاً وعشرين سفينة^(٥)، كما ضم إلى جانب السفن الحربية أسطولاً تجارياً، وكان دي الميدا بعكس القادة البرتغاليين الآخرين محباً للأساليب السلمية والسياسية في معاملة

(١) الفقيه الشيخ زين الدين - مصدر سابق، ص: ٢٦٤

(٢) محمد عبدالعال أحمد (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٨٧.

(٣) a. n. t. t. c. c. i. 12 - 35.

* انظر ملحق رقم (٢٩) الخاص بالوثيقة رقم ٣٥ - ١٢ - ١ ص: ٣٠٥ - ٣١٢.

(٤) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ص: ١١، ١٢.

(٥) دفي جيمس: البرتغاليون في أفريقيا، ص: ٨٢.

الشعوب، في الوقت الذي عمل فيه على تثبيت قواعد الوجود البرتغالي في الهند فجعل من كوشين مقراً لقيادته، وكانت سياسته تهدف إلى حصول البرتغال على السيادة البحرية لتأمين طرق التجارة فعمل على التحكم في مداخل البحار وقطع شرايين التجارة العربية والقضاء على نفوذ العرب الذين كانت لهم السيادة التامة على طريق التجارة ويعملون كوسطاء في نقل منتجات الهند والشرق الأوسط إلى أفريقيا واستولى البرتغاليون على سفالة SOFALA وكلوه KILWA وممبسه MOM-BOSU^(١)، وكان دالميدا يرى أن المحيطات لا تحتاج إلا لعدد قليل من الجنود، وخلافاً للمستعمرات التي تتطلب أعداداً كبيرة منهم، فكانت خطته تتبلور في قول بأكون (BACON) «إن من يتحكم في البحر يصبح ذا حرية كبيرة، ويمكنه الاشتباك في حرب واسعة أو ضيقة كيفما يشاء»^(٢).

رابعاً : حملة ترستان داكونها ابريل ١٥٠٦م TRISTAN DA CUNHA

حرص الملك عمانويل على تدعيم حملة دالميدا لتحقيق السياسة المرجوة من ورائها وهي السيطرة على طرق التجارة الدولية والقضاء على نفوذ العرب التجاري، فسارع بإمداده بحملة بحرية كبيرة أسندت قيادتها إلى ترستان داكونها عام ١٥٠٦م على رأس أسطول من ١٦ سفينة ضم إلى جانب السفن الحربية سفناً أخرى تجارية، وكان الفونس د البوكيرك مسئولاً عن الناحية العسكرية لتلك الحملة التي عززت بأسطولين آخرين في سنة ١٥٠٨م^(٣).

وكان ترستان داكونها قد تلقى الأوامر بالإبحار إلى سوقطرة*، لإنشاء قلعة فيها لحماية المسيحيين المقيمين في تلك الجزيرة بالإضافة إلى استخدامها كقاعدة لتمويل الأسطول المكلف بمواجهة الأسطول المصري، كما عهد إليه أيضاً بفرض

(١) شوقي الجمل (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٥٦، ٥٧.

(٢) محمد عبداللطيف البحرأوي: فتح العثمانيين عدن، ص: ٧٦.

(٣) محمد عبدالعال (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٨٨.

*انظر موقع جزيرة سوقطرة (ملحق رقم ٢) ص: ٢٦٤.

حصار كامل على البحر الأحمر، وإغلاقه في وجه التجارة الهندية^(١).

على أن يغادر الجزيرة إلى الهند مع بعض قطع الأسطول بعد إتمام إنشاء القلعة المذكورة، ويترك بقية قطع الأسطول تحت تصرف البوكيرك للقيام بالهجوم على جدة وعدن، ثم تدمير المدينتين المقدستين مكة والمدينة، واعتراض سفن التجار العرب، كما كان يحمل معه رسالة سرية من ملك البرتغال بتعيينه نائبا للملك وحاكما لمستعمرات البرتغال بدلا من الميدا^(٢).

وتمكن داكونها بعد محاولات وخسائر كثيرة في الرجال من الوصول إلى جزيرة سوقطرة في منتصف عام ١٥٠٧م وفي أثناء سيره بالأسطول انضمت إليه السفينة البرتغالية فلورد يليمار بقيادة الكابتن جواد نوبا، الذي كان قد توجه إلى الهند بأسطول آخر. وقد كانت سوقطرة في ذلك الوقت تخضع لحكم السلطان إبراهيم الذي رفض السماح للبرتغاليين بالنزول إلى الجزيرة أو أن يسلم بمطالب القائد البرتغالي، مما جعل داكونها يعمد إلى إصلاء حامية البلدة بوابل من نيران أسطوله، وتمكن في نهاية الأمر من احتلالها، رغم المقاومة الباسلة التي أبدتها المدافعون عن البلدة، وقام البرتغاليون بإعادة بناء القلعة التي أطلقوا عليها اسم (السينت توماس) وعين دوترونا قائدا على الحامية^(٣).

وتذكر المراجع أن خلافاً قد حدث بين داكونها والبوكيرك حول الأفضلية في العمل واتجاه الحملة، إذ كان رأي البوكيرك الاتجاه رأساً إلى رأس جارد أفوى (قرن أفريقية) الواقع في شمال الصومال ثم احتلال سوقطرة قبل التوجه إلى الهند^(٤).

(١) جزيرة سوقطرة: تقع بالقرب من الساحل الجنوبي للجزيرة العربية إلى الشرق من عدن، وهي جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية، ولها أهمية استراتيجية لمن يريد التحكم في مدخل البحر الأحمر،

انظر بدر الدين عباس الخصومي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، والمتأخر ج - ١، ص: ١٥

(٢) لوريمر: مرجع سابق. ج ١، ص: ١٢.

(٣) مايلز: الخليج، بلذاته وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله مسقط ١٩٨٦م، ص: ١٥٠.

(٤) محمد عدنان مراد، مرجع سابق، ص: ١٢٨.

غير أن الخلاف بين القائدين تمت تسويته بعد احتلالهم الجزيرة التي كانت تتحكم في الطريق البحري المؤدي إلى البحر الأحمر، في الوقت الذي تصلح فيه لاتخاذها قاعدة لشن الغارات على سواحل حضر موت وعمان وهرمز. وفي نهاية شهر يونيو ١٥٠٧م كانت جميع أمور الجزيرة قد تم تسويتها، وأصبحت الظروف مواتية لكل من القائدين أن يفترقا، كل منهما في طريقه حسب الخطة المرسومة لهما من جانب ملك البرتغال عمانويل، فتم توزيع قطع الأسطول عليهما، وكان من نصيب البوكيرك سفينة القيادة (سيون)، ثم غادر داكونها بنصيبه من الأسطول إلى الهند في يوم ٧ أغسطس ١٥٠٧م، تاركا للبوكيرك حرية التصرف في ممارسة عملياته الحربية ضد التجارة العربية^(١)، وهكذا تركزت جهود داكونها على إغلاق جميع الممرات المؤدية إلى المحيط الهندي والاستيلاء على الموانئ الاستراتيجية مثل هرمز وعدن^(٢).

خامساً: الفونس دي البوكيرك عام ١٥٠٧م - ALFONSO DE ALBUQUERQUE

يرتبط ذكر الغزو البرتغالي لمراكز التجارة في المياه الهندية والبحر الأحمر بسيرة الفونس دي البوكيرك الذي وفد إلى الشرق سنة ١٥٠٣م للانتقام من زامورين حاكم كاليكوت وإخضاع بلاده لخدمة النفوذ البرتغالي في الشرق^(٣).

وخلال مدة إقامة البوكيرك في الهند، وضع خطة حكيمة لتحقيق سيادة البرتغاليين البحرية وذلك بإحلال الموانئ التجارية الواقعة على الطريق البحري بين الهند ورأس الرجاء الصالح وجعلها مراكز منيعة للبرتغاليين، بينما كانت عودته الثانية إلى المياه الهندية عام ١٥٠٦م ضمن حملة داكونها وكان يحمل معه أمراً سرياً من ملك البرتغال عمانويل بتعيينه نائباً للملك في الهند خلفاً لـ الميدا نائب الملك السابق في الهند منذ ١٥٠٥م^(٤).

(١) مايلز: مرجع سابق - ص: ١٥٠

(٢) محمد عبدالعال (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٨٩

(٣) المسيو جياب: مصدر سابق، ص: ٢١٥

(٤) A. T. T. C. C - I - 44.

وهناك تساؤل قد يطرح نفسه عن الأسباب التي دفعت الملك عمانويل لتعيين البوكيرك نائبا في الهند، ومدى كفاءة البوكيرك نفسه لتولى هذا المنصب الخطير، والحقيقة أن البوكيرك كان من طبقة النبلاء البرتغاليين، وكان قد حصل على تجارب حربية واسعة خلال اشتراكه ضمن القوات المرابطة في الشمال المغربي الأفريقي لمقاتلة العرب بعد خروجهم من البرتغال كما عمل في البحر تحت قيادة القائد البرتغالي كابرال ووصل مع ابن عمه فرنسيسكو إلى كوشين وقام بتحصين المدينة وتوفير الحماية لها وبناء أول قلعة برتغالية في آسيا، ووضع فيها حامية، وفتح مركزاً تجارياً في (كويلون) وبعد أن عاد إلى لشبونة عام ١٥٠٤م استقبله الملك عمانويل وأصبح من مستشاريه في وضع السياسة الخارجية التي كانت تهيمن عليها روح صليبية ورثها هو ومليكه من جدهم جون الثاني. وكان البوكيرك* . نفسه يكن حقداً لامثيل له للعرب والمسلمين، وعندما كلف بالحملة البرية والبحرية كان همه القتل ونشر الذعر في كل المناطق الساحلية. فعندما احتل جوا - فيما بعد - أبلغ مليكه «بأنه وضع السيف على رقبة كل عربي حيثما أمكنه العثور على عربي، وكان إفلاته من يدي من المحال، وقد ملأت بهم المساجد وأضرمت بها النار»^(١).

وقد كانت التعليمات التي صدرت للبوكيرك - كما جاء في يومياته - تقضي بأن يقوم بعد الاستيلاء على سوقطرة بتدمير مدينة هرمز، وأن يعمل كل ما في وسعه لاعتراض وعرقلة النشاط الملاحي العربي المتجه إلى الشرق عبر الإسكندرية والبصرة وذلك قبل أن يبدأ بالهجوم العسكري على المنطقة نفسها^(٢). وكان البوكيرك يحمل معه أيضا الموافقة على خطته التي عرضها مسبقا على الملك البرتغالي، وهي سد منافذ التجارة الإسلامية المتمثلة في البحر الأحمر والخليج العربي^(٣).

* انظر صورة البوكيرك القائد البرتغالي (ملحق رقم ٢٤) ص: ٢٨٦.

(١) محمد عدنان مراد: مرجع سابق، ص: ١٢٩ - ١٣٠

(٢) مايلز: مرجع سابق، ص: ١٥١

(٣) صلاح العقاد (دكتور): التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٧٤م، ص: ١٤ - ١٥.

محاولة البوكيرك الاستيلاء على عدن :

توالى ظهور السفن الحربية البرتغالية واستخدامهم للطريق البحري إلى الهند واستقر رأى البرتغال على ضرورة تجول بعض سفنهم الحربية أمام مدخل البحر الأحمر وتدمير السفن العربية التي تحاول الخروج منه، وكذلك السفن العربية التي تتجول في المحيط الهندي. وقد كان للوجود البرتغالي الغربي، أثر ضاغط على التجار العرب في البحر العربي والموانئ الواقعة على الساحل الهندي الغربي وازداد ظهور ذلك الضغط بمضي الوقت، وأصبح واضحاً أن هدفهم النهائي هو القضاء نهائياً على طرق التجارة السابقة، ووقف سير التجارة الشرقية بين الهند والبحر الأحمر^(١).

وكان البوكيرك يؤمن بأن التفوق البحري هو الذي يؤمن الحفاظ للإمبراطورية البرتغالية الفتية دون بعثرة جهود الشعب البرتغالي في ضم ممتلكات شاسعة لا يقوى على الاحتفاظ بها بسبب عدده المحدود، والاكتفاء بالسيطرة على المنافذ البحرية كشرط ضروري لضمان التفوق البحري وحصر التجارة بيد البرتغاليين باعتبارها الهدف الاقتصادي الأول. ولذا فقد حدد البوكيرك النقاط الرئيسية التي تكون قواعد إمبراطوريته الجديدة وهي (هرمز) للسيطرة على منافذ الخليج العربي ثم (سوقطرة أو عدن) للسيطرة على مدخل البحر الأحمر الذي كان يمثل طريق الاتصال مع أوروبا عن طريق برزخ السويس، ثم (ملقا) للسيطرة على مضيق ملقا بحيث تتم مراقبة كل السفن الزاهبة أو القادمة من المحيط الهندي والشرق الأقصى، ثم (سيلان)، وتكملة هذه القواعد بما كان لدى البرتغاليين من قواعد في شرق أفريقيا، ولتحقيق المراقبة الفعلية والحماية الضرورية كان لابد من بناء قلاع دائمة تقيم فيها حاميات برتغالية، وإيجاد مستوطنات بقربها لتكوين مراكز تجارية،

(١) سعد زغلول عبدربه (دكتور): البرتغاليون والبحر الأحمر، جامعة عين شمس، سمنار الدراسات العليا، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، القاهرة ١٩٨٠ م، ص: ٢٠٧.

وتنحصر مهمة هذه القلاع في حماية المصالح التي تمثلها هذه المراكز، ونشر النفوذ البرتغالي في البر (١) *.

وكان قد تبين للبرتغاليين أن موقع سوقطرة لا يمثل المفتاح الحقيقي للبحر الأحمر، وأنهم إذا ما أرادوا إحكام إغلاقه أمام السفن التجارية العربية فعليهم احتلال عدن التي تمثل المدخل الحقيقي له. ويتضح ذلك من كتاب البوكيرك للملك عمانويل حيث كتب يقول: «لابد من أسر عدن واحتلالها بالقلاع، ففيها ميناء طيب يستطيع تقديم الحماية لأساطيلنا في الشتاء، وآخر الأخبار عنها أن الحوائط والأسوار قد أقيمت بها ودعمت وتلقت كميات كبيرة من المدفعية من ملك إياز حاكم ديو Diu الذي يظن أنني لا أعلم شيئاً عن ذلك، وأنا أعتبر عدن مفتاح المضائق ولا ينبغي لجلالتكم عقد أية معاهدة تجارة مع أي من بربرة أو زيلع ولكن تفرض إتاوة عليها ويخضع سكانها لكم (٢).

وقرر البوكيرك فعلاً الاستيلاء على عدن فخرج من جوا في ٨ فبراير سنة ١٥١٣م بأسطول كبير من عشرين سفينة تحمل على ظهرها قوى عسكرية بلغ تعدادها ألفين وخمسمائة مقاتل، ووصل إلى عدن في ٢٤ مارس ١٥١٣م، وفرض البوكيرك الحصار حول مدينة عدن ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها لقوة تحصيناتها الطبيعية وقد كان هدف البرتغاليين من هذا الحصار هو إسقاطها والاستيلاء عليها، واستخدامها قاعدة عسكرية يستطيعون عن طريقها السيطرة على البحر الأحمر، ومنع الأسطول المصري المعادي لهم من الخروج إلى المحيط الهندي، والقضاء عليه إن أمكن ومهاجمة سفن الممالك وطردهم من الهند، وبذلك يقضون على آمال أمراء

(١) محمد عدنان مراد: مرجع سابق، ص: ١٣٠-١٣١.

انظر: رسالة راشد ركن وزير هرمز لعمانويل ملك البرتغال مؤرخة في ٢٧ مارس عام ١٥١١م، ضمن الوثائق التي أعدها مركز الوثائق والدراسات - أبوظبي.

* ملحق (رقم ٢٦) ص: ٢٨٨.

BESCE ANGELO : OP. CIT. P. 78. (٢)

ANTONI RAYMUNDO : CARTAS DE AFFONOS ALBUQUERQUE LIS-BOA 1884, P. 167.

الهند في وصول الإمدادات العسكرية لهم من مصر، فتضعف مقاومتهم مما يساعد على استقرار الأمور للبرتغاليين في الهند^(١).

ولما كانت أخبار حملة البوكيرك قد سبقت وصولها إلى عدن، فقد فوّت ذلك على البرتغاليين عنصر المفاجأة التي كانوا يهدفون إليها، فاتخذ حاكم عدن للأمر عدته واستعد للقاء البرتغاليين، فقام بتحصين المدينة والاستعداد للدفاع عنها^(٢).

وعند وصول البرتغاليين كانت بالبندر^(٣) مجموعة من المراكز العربية راسية بالميناء اضطّر أهلها إلى تركها والاحتفاء في المدينة وعلى الرغم من انتفاء المفاجأة، إلا أن البرتغاليين تمكنوا من التقدم إلى الميناء وإحراق وتدمير معظم المراكب الراسية بالميناء ثم استولوا على دار البندر^(٤) وأمطروا المدينة من مدفعية أسطولهم^(٥)، فخشي حاكم عدن الأمير مرجان من تدميرها على أيدي البرتغاليين فأراد أن يهادنهم تجنباً لما قد يصيب بلاده من كوارث إذا ما حاول التصدي لهم فأرسل لهم بعض الهدايا على سبيل الضيافة، وطلب عقد هدنة معهم غير أن البرتغاليين أعادوا إليه هداياه ورفضوا اقتراحه بعقد الهدنة، بل هددوا بالاستيلاء على المدينة بالقوة إذا لم يستجب لطلبهم ويسلمها لهم دون قتال، ومُنح مهلة لتنفيذ ذلك حتى اليوم التالي^(٦).

(١) سعد زغلول عبدرية: مرجع سابق، ص: ٢١١

A. N. N. T. T. C. C. I - II - 478

التقرير المرسل من قبل اندرو مستشار رودس للملك البرتغالي عمانويل مؤرخ في ٩ مارس ١٥١٢م، ملحق (رقم ٢٧) ص: ٢٨٩ - ٢٩٩.

(٢) أحمد فضل بن علي العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص: ٩٢.

(٣) البندر: كلمة فارسية معربة، تعني المرسى والميناء والمكلا والمدن البحرية ومقر التجار.

(٤) عبدالرحيم عبدالرحمن (دكتور): النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني ١٥١٧ - ١٧٩٨، ص: ٢٤٥، وتقع دار البندر على جبل صيرة المواجه لعدن والمشرق على مينائها. (انظر بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج ١ ص: ١٢ - ١٣).

(٥) سعد زغلول عبدرية: مرجع سابق ص: ٢١١ / ٢١٢ و(قلادة النحر ج - ٣، ص: ١١٩٤).

(٦) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص: ١٦.

وبما أن حاكم عدن قد رفض تسليم عدن لهم، فقد هاجموها، وتمكن بعض أفرادهم تسلق الأسوار والنزول إلى المدينة، وحصل بذلك بعض الضرر.

فكان لهذا الحدث أثره السيء على الأمير مرجان الذي هم بالتسليم، إلا أنه عدل عن ذلك بسرعة لما رآه من استماتة أهل المدينة في الدفاع عنها واستبسالهم في المقاومة رغم قلة مالديهم من إمكانيات غير أن أهم أسلحتهم التي شددت من أزرهم روح الجهاد التي تحلوا بها والذي أصبح في تلك اللحظة فرض عين على كل مسلم للذود والدفاع عن وطنه وكيانه الإسلامي فتجمع عدد كبير من الأهالي وهاجموا البرتغاليين بكل ماوقع تحت أيديهم من حجارة في مواجهة الأسلحة النارية، مما شجع الأمير مرجان على رفض التسليم وقوى عزيمته، وهاجم بمن معه من نزل من البرتغاليين داخل المدينة، وتغلب عليهم وأجبرهم على الفرار حاملين خزي الهزيمة، كما قام بمحاصرة من تبقى منهم وأشعل النيران في الأحواش التي احتماوا بها مما اضطرهم إلى إلقاء أنفسهم من الأسوار. في الوقت الذي قام فيه الأسطول البرتغالي بقصف المدينة بوابل من النيران لتغطية انسحابهم^(١).

وهكذا فشلت محاولة البرتغاليين للاستيلاء على عدن، فانسحبوا منها بعد أن سقط منهم بعض القتلى، وأسر منهم أربعة آخرون، ولإشباع رغبة الانتقام لدى البرتغاليين على هزيمتهم في عدن قاموا عند انسحابهم بإشغال النار في المراكب الراسية في الميناء^{(٢)*}.

اتجه البرتغاليون - بعد فشلهم في احتلال عدن - إلى باب المندب ومنه إلى البحر

(١) محمد عبدالعال (دكتور): مرجع سابق، ص: ٥٠٥ - ٥٠٦، و(قلادة النحر ج ٢، ص: ١١٩٥).

(٢) سعد زغلول عبدربه: مرجع سابق، ص: ٢١٢.
* انظر تحصينات عدن (ملحق رقم ٢١) ص: ٢٨٣.

الأحمر بحذاء ساحله الشرقي متجهين إلى الشمال حتى وصلوا إلى جزيرة كمران^(١). في إبريل ١٥١٣ م، فاستولوا عليها، وعاثوا فيها فساداً، وكما هي عادتهم في إرهاب السكان دمروا مبانيها وقتلوا من وجدوه فيها من السكان اليمنيين بما فيهم حاكمها الشريف محمد بن عبدالعزيز سيفان وعدداً من موظفي إداراته دون أن يحرك سلطان اليمن ساكناً لمقاومة البرتغاليين أو نجدة أهالي الجزيرة.

وفي نفس الوقت عانى البحارة البرتغاليون كثيراً في الجزيرة وزادت نسبة الوفيات بينهم بسبب المرض والطقس السيء ونقص الغذاء، مما جعلهم يغادرون كمران في يوليو ١٥١٣ م^(٢).

ورغم نجاح البوكيرك في الوصول إلى كمران واحتلالها دون مقاومة تذكر إلا أنه لم يستطع الوصول إلى ميناء جدة لتحقيق أهدافه الصليبية وهي الدخول في البحر الأحمر واقتحام المسجد الحرام (الكعبة الشريفة) ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنشب قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ثم استئناف الزحف على تبوك ومنها إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى، وبذلك تقع المساجد الثلاثة في أيدي البرتغاليين^(٣).

(١) تقع جزيرة كمران على بعد مائتي ميل شمال مضائق باب المندب وعلى بعد يسير لا يتعدى ثلاثة أميال من ساحل اليمن الشمالية وتقع في مواجهة مدينة الصليف الشهيرة بجبال الملح، وهي أكبر جزيرة في مجموعة الجزر الصغيرة والمرتفعات الضحلة المتناثرة في تلك المساحة وتعرف كلها باسم كمران، وتقع الجزيرة على خط الطول ٤٢ درجة و ٣٦ قدماً، و ٥١ بوصة شرقاً، وعلى خط العرض ١٥ درجة و ٢٠ قدماً و ٢٠ بوصة شمال.

وقد جاء هذا الاسم في كتاب الهمداني (صفة جزيرة العرب) ص: ٢٥، بعد حديثه عن بلاد المهدي: «ثم ينقطع البحر على اليمين مغرباً وشمالاً من عدن فيمر في ساحل لحج وأبين وكثيب بيرامس وهو رباط وسواح بني مجيد من المندب فساحل العميرة.. كمران»

انظر حمزة على لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، بيروت ١٩٧٢ م، ص: ٩.

* انظر موقع جزيرة كمران (ملحق رقم ٢) ص: ٢٦٤.

BESCE ANGELO : CIT. P. 79 (٢)

(٣) ابن الديبع (عبدالرحمن بن علي الديبع) قررة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الاكوع، ص: ١٤٨.

وقد أفصح البوكيرك عن مخططه هذا في رسائله للملك عمانويل والتي قال في إحداها «كما أعلمكم أننا نستطيع أن نوجه نظرنا إلى مكة والسويس وحيث أن هناك كثيراً من الخيل في مقاطعات برستوجون (يقصد الحبشة) فإنه يكون من السهل تجهيز ٥٠٠ فارس برتغالي بمعداتهم للنزول في جدة، ومن هناك ينتقلون إلى مكة وهي رحلة يوم ليجعلوها رمادا».

وفي رسالة أخرى يقول: «إن رغبتى هي أن أذهب إلى مصوع^(١) ميناء البرستوجون لأستولى على ذلك حتى أرى ماأستطيع أن أفعله في جدة، إن الرحلة إلى البحر الأحمر تعتبر ذات قيمة قصوى نتيجة لوجود تجارة البهارات والتي تأتي كل سنة إلى هذه المناطق من الهند وحيث أنني أرغب في تصفية العرب.. وبعد أن أكون علاقات مع البرستوجون، فإنني سأدمر مكة، لهذه الأسباب فأنا مصمم على الذهاب إلى البحر الأحمر»^(٢).

غير أن الله سبحانه وتعالى الذي تعهد بالحفاظ على مقدساته - كما حدث في حملة أبرهة على الكعبة الشريفة بمكة - سخر الرياح والعواصف الشديدة لتشتت الأسطول البرتغالي مما أدى إلى فشل الحملة والقضاء على أحلام البوكيرك.

ويشيد أحد المؤرخين في معرض دفاعه عن الدولة العثمانية بما قدمته للإسلام حين وقفت في وجه الاستعمار البرتغالي فيقول: «كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة

(١) مصوع : هو اسم الجزيرة المحددة جغرافيا بخط طول ٣١ - ٢٨ - ٢٩ ، وخط عرض ٤١ - ٣٦ - ١٥ ، مساحتها ٢,٣٠ كم٢، وتقع في أقصى شمال خليج حرقيقو، وتقوم فيها المدينة القديمة التي تحمل الاسم نفسه، واسم مصوع مشتق من فعل صوع، الذي يعني باللغة الحبشية (المناداة) ذلك أنه يكفي إطلاق صيحة واحدة من على اليابسة لكي يسمعها من في الجزيرة، كما يكفي إطلاق صيحة في أول الجزيرة لكي يسمعها من هو في آخرها. انظر: دانته أو دويتستي: المستعمرة الإترية - مفوضة مصوع الإقليمية - ترجمة : جبهة التحرير الإترية - بيروت ١٩٦٩ م، ص: ٢٦

(٢) مصطفى محمد رمضان : انظر موقع مصوع (ملحق رقم ٢) ص: ٢٦٣ .
العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة سنة ١٩٨٥ م، ج ١، ص: ٨٤ - ٨٥.

العثمانية للإسلام، أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الاستعماري للبحر الأحمر والأماكن المقدمة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي»^(١).

وبعد فشل البوكيرك في الاستيلاء على جده استولى وهو في طريق عودته من البحر الأحمر على جزيرة بريم^(٢)، وشيد بها بعض التحصينات العسكرية في الرأس الشمالي للميناء، ونصب على أعلى قمة فيها صليبا وسماها «فيراتوز» غير أنه لم يبق فيها كثيرا رغم موقعها الاستراتيجي الهام، لعدم توفر الماء بها^(٣)، كما أغار الأسطول البرتغالي وهو في طريق العودة من البحر الأحمر على ميناء زيلع وأطلق نيران مدفعيته على السفن الراسية فيه، وأشعل فيها النيران^(٤)، بحجة إمداد الأهالي للأسطول المصري بالمياه أثناء حملتهم الفاشلة على عدن^(٥)، كما قام بنهب ميناء بربرة^(٦)، كما هاجم ميناء سواكن^(٧)، وهاجم جزر دهلك، وأخيرا اضطر إلى العودة إلى عدن غير أن محاولته الثانية للاستيلاء عليها قد باءت بالفشل فتركها في ٤ أغسطس ١٥١٣م عائدا إلى الهند بعد أن قصفها بمدفعيته، وأحرق رجاله جميع

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ٢، ص: ٨٦٢.

(٢) بريم تقع جزيرة بريم في مضيق باب المندب على بعد ميل ونصف من الساحل العربي، وأحد عشر ميلا من الساحل الإفريقي، وتفصل باب المندب إلى قسمين: المضيق الصغير الذي يفصل الجزيرة عن الشاطئ العربي، وعرضه ثلاثة كيلومترات، والمضيق الكبير، وعرضه نحو إحدى وعشرون كيلو مترا وتستعمل السفن المضيق الصغير نظراً لوجود مجموعة من الجزر البركانية الصغيرة المسماة «الأخوات السبع» في المضيق الكبير، وتتكون جزيرة بريم من تشكيلات صخرية بركانية هي عبارة عن مجموعة من التلال التي تنحدر نحو الشاطئ، وتحيط بالميناء، طولها حوالي ميل ونصف، وعرضها نصف ميل، ويبلغ أعلى ارتفاع في الجزيرة نحو ٢٤٥ قدما، وتبعد الجزيرة حوالي مائة ميل على ميناء عدن ومائتي ميل عن جزيرة كمران.

انظر : حمزة علي لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، ص: ١٩.

(٣) حمزة علي لقمان: معارك حاسمة من تاريخ اليمن، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء ١٩٧٨م، ص: ١٤٧. انظر موقع الجزيرة (ملحق رقم ٢) ص: ٢٦٣.

(٤) سعد زغلول : مرجع سابق، ص: ٢١٢.

(٥) BESCE ANGELO : CIT. P. 88.

(٦) رجب حراز : ارتريا الحديثة، ص: ٢٨.

(٧) كان يسكن سواكن في القرن السادس عشر حين حاصرها البرتغاليون مائة من الترك : محمد صالح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الخرطوم ١٩٨١م، ص: ٤٢.

ماكان راسيا في مينائها من سفن^(١).

ونرى الملك (D. MANUEL 1) عمانويل في تاريخ ٣ ديسمبر ١٥١٣م، ٩١٩ هـ، يرسل رسالة إلى القائد (ALFONSO DE ALBUQUERQUES) الفونسو دي البوكيرك يطلعه فيها أنه قام بدفع ١٥٠ وحدة نقد سنويا إلى سفير ملك هرمز في أول يوم في السفر لمساعدته، أي لمساعدة الفونسو دي البوكيرك في أي وقت وسمح للسفير نيكولا دي فيريرنا (NICOLAU DE FERREIRA) بهرمز للعودة إلى البرتغال ومعه ثلاثون كونتالاً^(٢) أي قنطاراً «من القرنفل والقرفة وستون كونتالاً من أي توابل أخرى»^(٣).

ردود الفعل لسياسة الاحتكار البرتغالية :

كانت لسياسة عمانويل التي أعلنها منذ ١٥٠٥م والتي تهدف إلى القضاء على تفوق العرب التجاري في المياه الهندية والاستيلاء على قواعدهم التجارية في شرق أفريقيا واحتكار طرق التجارة عن طريق السيطرة على المنافذ البحرية، وتعيين دالميدا (DALMIDA) ليكون أول نائب له في المستعمرات البرتغالية في الشرق، أثرها السيء على مناطق التصدير والموانئ الواقعة على الطريق التقليدي للتجارة كهرمز وعدن وجدة مما أصابها بأضرار بالغة، كما عرّض كلاً من الاقتصاد المصري والهندي للانهايار التام، خاصة وأن البرتغاليين كانوا في وضع يسمح لهم بتعزيز قواتهم العسكرية باستمرار، ويجعلهم يشنون الهجمات المتتالية على الموانئ العربية وسفن التصدير التي تحمل التوابل، دون أن تجرؤ أي من القوى الموجودة بالمنطقة على التصدي لهم. ويعلق انجلو بيس (ANGELO PESCE) على ذلك

(١) محمد عبدالعال (دكتور): مرجع سابق، ص: ٥٠٨، انظر سواكن (ملحق رقم ١٠) ص: ٢٧١.

(٢) الكونتال الواحد : ١٢٠ رطل.

انظر رسالة الملا عمانويل رقم ١٤ - ١٣ بتاريخ ١٥١٣/٩/٣م. ملحق رقم ٣١، ص: ٣٢٦ - ٣٣١

(٣) A. N. T. T. C. C. I - 14 - 138

الأرشيف الوطني البرتغالي، بـ «توري تومبوء لشبونة».

قائلا «إذا كان الغرض الأصلي للبرتغاليين هو للتجارة مع الهند، فقد كانت وسائلهم غريبة تماما عن أسلوب العرب الذين كان لهم نفس الهدف التجاري، ولكن دون المحاولة مرة واحدة للتدخل في شؤون أهالي البلاد أو استبعادهم أو اللجوء للقرصنة للقضاء على المنافسة^(١) .

وسنستعرض ردود الفعل على مختلف البلاد التي تأثرت بهذه السياسة البرتغالية :

أولا : البندقية

في عام ١٥٠١م بعث دوق البندقية بسفيره السنيور (بتروبيالجو) إلى لشبونة لاستطلاع الأمور هناك، وقد استقبله الملك عمانويل بحفاوة بالغة، ولكنه ذكر أنه إذا كانت حكومته ترغب في إرسال سفنها التجارية إلى لشبونة فإنه سيرحب بذلك، وأن تجار البندقية سوف يجدون كل تسهيل وترحيب وحماية من البرتغال، غير أن السنيور بترو الذي أدرك أن عهد احتكار البندقية لتجارة الهند كان يقترب من نهايته، وبأن طريق البحر الأحمر لم يعد يستطيع منافسة رأس الرجاء الصالح، الأمر الذي سيؤدي إلى دمار تلك الدولة، قد قرر العودة إلى بلاده، أما دوق فينيسيا فإنه لم يرحب بدعوة الملك عمانويل لفتح موانئ بلاده للجالية النيتسية، بسبب اشتراكها الفعلي مع سلطان مصر الذي كان في ذلك الوقت في حالة حرب مع البرتغاليين في البحر العربي مما يفرض عليه القيام بدور مزدوج خوفا من أن تتعرض مخازن السلع في كل من الإسكندرية والقاهرة للخطر، الأمر الذي سوف يدفع بحلفائه المصريين إلى أن ينقلبوا عليه ويصبح معزولا تماما بالإضافة لتأثر الدوق بعوامل الهيبة والكرامة إلى جانب العوامل السياسية وذلك رفضة شراء التوابل من حلفائه السابقين.

وإلى جانب الاعتبارات السابقة فقد كان من الطبيعي أن يرفض أهل البندقية

BESCE ANGELO : OP. CIT. P. 75 (١)

الذين لم يسبق لهم قط أن اشتركوا في أي اكتشافات على الساحل الأفريقي - الاشتراك في التجارة البحرية الجديدة، على أثر أول رحلة يقوم بها فاسكو دي جاما للهند، ربما بدافع غرورهم و صلفهم وقد كرسوا جهودهم لإحباط محاولات البرتغاليين إيجاد مصدر تجاري جديد لهم، غير أن أهل البندقية لم يحققوا نجاحا يذكر في تلك المحاولات ^(١)، كما كلفت حكومة البندقية فرانسوا تالدي في ١٥٠٤م بالتوجه إلى القاهرة في مهمة سرية إلى سلطان الممالك الغوري، للتفاوض معه على الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسيع البرتغاليين التجاري في المحيط الهندي، على أن يسافر السفير المذكور على أول سفينة متجهة إلى جزيرة كريت ومنها إلى ميناء دمياط ثم إلى القاهرة. وفي الوقت الذي حث فيه مبعوث البندقية السلطان الغوري على التصدي للبرتغاليين لمنعهم من الملاحة في المياه الهندية إلا أنه أشار إلى أن ذلك لا يمكن أن يتم بواسطة بلاده، وعلل ذلك بقوله : «إن المسافة من بلدنا للبرتغال طويلة لاتقل عن ٤٠٠٠ ميل، فضلا عن المسافة من البرتغال إلى الهند، ثم إن إسبانيا وملكها القوي المحالف للبرتغال يقع في الطريق بيننا وبين البرتغال، علاوة على أنه استولى حديثا على مملكة نابولي من لويس الثاني عشر، وله حدود مع مملكتنا في أماكن عدة من البحر والبر» ^(٢).

وطلبت حكومة البندقية من مبعوثها أن يذكر للسلطان أن الرحلة إلى الهند من الآن فصاعدا ستصبح أكثر سهولة للبرتغاليين مما يترتب عليه نشوء ضرر بالغ للسلطان فضلا عن مصالح تجارة البندقية التي بدأت تنهار مما تترتب عليه خسائر جمة في الجمارك والضرائب. وضرب فرانسوا تالدي مثلا على أقواله للسلطان بأنه قد وصل إلى البرتغال أربعة عشر مركبا من الهند محملة بالتوابل، ومن بين ماتحملة خمسون ألف حمل من الفلفل أرسلها ملك البرتغال إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا

(١) س. ب. مايلز: مرجع سابق، ص: ١٤٣ - ١٤٨.

(٢) انظر : ترجمة الوثيقة في د / نعيم زكي : طرق التجارة الدولية، ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخرالعصور الوسطى) القاهرة ١٩٧٣م، ص: ٢٨٢ - ٢٨٥.

وغيرها من دول العالم، ولما كانت أسعار التوابل مرتفعة أكثر من المعتاد في كل من الإسكندرية ودمشق، في الوقت الذي كانت فيه الأسعار منخفضة في كل من الهند ولشبونة فقد لجأ عملاء نابولي إلى أسواق البرتغال.

ولم ينس مبعوث البندقية أن يلح للسلطان الغوري بأن ملك البرتغال كان قد دعا بلاده للاشتراك في الرحلات وإرسال تجارها إلى أسواق لشبونة لطلب التوابل، وأن كثيرا من رعايا بلاده ترغب في التوجه إلى لشبونة لأنهم لا يدفعون بها ضرائب جمركية، وأخيرا فقد عرضت حكومة البندقية على السلطان خطة عمل للحد من نفوذ البرتغال في الهند وهي من شقين:

الأول: العمل بأية وسيلة على وصول أكبر كمية ممكنة من التوابل إلى بلاد السلطان لتقاوم بها إغراق البرتغاليين أسواق أوروبا بالتوابل لأن هذا سيمنع عن البرتغاليين المكاسب الضخمة، وبالتالي يمنع سفنهم من الوصول إلى الهند لجلب التوابل.

الثاني : يرسل السلطان من طرفه سفراء إلى ملك كوشين بالهند وکانانور والأماكن الأخرى التي يتعامل معها البرتغاليون، وأن يطلب عدم التعاون معهم، وأن يبين لهم السلطان الأضرار التي تترتب على استمرارهم في التعامل مع البرتغاليين التي ربما تصل إلى استيلائهم على بلادهم نفسها ويصبحون أسياد هذه الجزر وبلاد كوشين وکانانور^(١).

ومن الجدير بالذكر أن البندقية في الوقت الذي كانت تلح فيه على سلطان مصر باتخاذ الإجراءات الكفيلة بوقف تدفق البرتغاليين في الشرق رفضت القيام بدور فعال في هذا الصراع الاقتصادي العالمي - وقتئذ - إذ لم تكن ترغب في ضم البرتغال إلى أعدائها^(٢).

(١) د. نعيم زكي: مرجع سابق، ص: ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٢) عثمان صالح سبي: تاريخ ارتيريا، بيروت ١٩٧٧، ص: ٦٣.

وكان السلطان المملوكي قد حاول أن ينهي النزاع بين بلاده ودولة البرتغال بطريقة سلمية فأرسل مبعوثاً من طرفه هو السيد ماور وجوارديان إلى أوروبا على أن تشمل جولته كلاً من إيطاليا وإسبانيا والبرتغال لحث الأخير على عدم الملاحقة في طريق الهند.

ولما كانت جولة مبعوثه إلى أوروبا لم تحقق أهدافها فقد أرسل الغوري بإيعاز من البندقية رسالة شديدة اللهجة إلى كل من البابا والملك عمانويل يطلب منهما منع المسيحيين من الملاحة أو الاتجار في البحر العربي، ويهدد بقتل جميع المسيحيين في مصر، غير أن ذلك التهديد قوبل بالإهمال من البابا وملك البرتغال^(١).

ثانياً : اليمن :

كانت لوصول البرتغاليين إلى المياه الهندية، وإغلاق طريق التجارة أمام السفن العربية، ومحاولة إغلاق البحر الأحمر أثار سيئة على حركة التجارة في ميناء عدن، فانخفضت تبعاً لذلك حصيلة الرسوم الجمركية بدرجة كبيرة جعلت السلطان عامر ابن عبدالوهاب^(٢). آخر سلاطين آل طاهر مضطراً للاستيلاء على نصف متحصلات الأوقاف ليستعين بها في مواجهة النقص في إيرادات بلاده، مما أثار عليه سخط الفقهاء^(٣).

(١) مايلز : مرجع سابق، ص: ١٤٨.

(٢) عامر بن عبدالوهاب: هو آخر سلاطين الدولة الطاهرية في اليمن، (١٤٥٤ - ١٥١٧) تولى الحكم في عام ٨٩٤ هـ (١٤٨٩ م) وعمل على توسيع رقعة أملاكه فقد ورث ثلثي اليمن فقط عند توليه الحكم أما الثلث الباقي فقد كان موزعاً بين عدد الأئمة الزيديين، وفي عام ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) تمكن من ضم صنعاء وظل طول فترة حكمه يرسل الحملات إلى جهات اليمن المختلفة للقضاء على مقاومة الزيديين وتدعيم سلطانه، وكان ينجح في ذلك لولا الحصار البحري الذي فرضه البرتغاليون على السواحل الجنوبية للبحر الأحمر، ومطاردتهم للسفن اليمنية، مما أدى إلى ضعف إيرادات الدولة، واستفاد من ذلك خصومه الزيديون في المنطقة الشمالية من اليمن، انظر: د/ محمد عبدالعال، مرجع سابق، ص: ٢٨١.

(٣) د. مصطفى محمد رمضان: العالم الإسلامي، ص: ٧١.

كما اضطر أيضا الأمير مرجان والي عدن إلى الاستيلاء على خراج الحج حتى يتمكن من سد النقص الناجم عن عجز إيراداته بسبب شدة الحصار المفروض على التجارة في سواحل البحر الأحمر الجنوبية، وحتى يتمكن من مواجهة متطلبات الدفاع عن مدينته ضد أية محاولة قد تتعرض لها من قبل البرتغاليين. ويصف ابن الديبع مآلت إليه اليمن نتيجة للحصار الذي فرض على موانئها فيقول: كاد الدر أن يعدم، وقل وجوده في الدواب، ومات أكثر البهائم جوعا، ولم يحصل في الصيف مطر، وضافت الأحوال وعدمت المكاسب^(١).

وقد اشتدت الأطماع البرتغالية للاستيلاء على عدن وغيرها من المدن اليمنية، في وقت زادت فيه الحركات الداخلية المضادة لحكم الطاهريين، وعجز السلطان عامر ابن عبدالوهاب عن الدفاع عن مصالح بلاده التجارية أمام التهديد البرتغالي الذي واصل عمليات القرصنة والسلب والنهب ضد السفن وتعرض ركابها من بحارة وتجار وحجاج للأسر أو القتل^(٢) وكان من المفروض أن تتعاون مصر واليمن - وكلتاهما متضررة من الزحف البرتغالي على الشرق - غير أن شيئا من هذا لم يحدث، فقد كان عامر مشغولا بتوحيد اليمن وإحكام سيطرته عليه، وفي الوقت نفسه لم يكن يملك أسطولا مزودا بالأسلحة النارية ليتمكن به من مجابهة أعدائه البرتغاليين.

وعلى الرغم من الأوضاع السيئة لليمن وضعف قدرته الحربية، فقد أمر السلطان عامر بن عبدالوهاب بتجهيز حملة بحرية في سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦م) لقتال البرتغاليين في الهند، تتكون من أربعة عشر مركبا اشترك فيها ستمائة مقاتل بالإضافة إلى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين، وقد أبحرت هذه الحملة من ميناء عدن في ٢٧ من شوال ٩١٢ هـ (١١ من مارس عام ١٥٠٦م)^(٣). ويغلب على الظن أن هذه الحملة كانت فريسة سهلة

(١) ابن الديبع عبدالرحمن الديبع: الفضل المزيّد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق الدكتور / يوسف شاكر، مركز الدراسات والبحوث اليمنى صنعاء ١٩٨٣م، ص: ٣٠٨.

(٢) محمد عبدالعال (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٩١.

(٣) ابن الديبع: مصدر سابق، ص: ٣٠٠ - ٣٠١.

للبرتغاليين وأنها عجزت عن مواجهة البرتغاليين الذين تغلبوا عليها، خاصة وأن المصادر اليمينية قد صممت عن ذكر أخبار تلك الحملة التي كانت أضعف بكثير من أن توكل إليها هذه المهمة الصعبة ولم تجد اليمن أمامها - بعد عجزها أمام البرتغاليين - سوى طلب المساعدة من سلطان مصر الغوري^(١).

ثالثا : مصر :

كان النشاط البرتغالي في المحيط الهندي سبباً في استفحال خطر السياسة البرتغالية ضد المسلمين في هذه المنطقة ودفع سلطان مصر قانصوه الغوري^(٢) لأن يضع سياسة جديدة وتخطيطاً واضحاً للدفاع عن تجارة الشرق وكيان المسلمين الديني والسياسي.

ولذلك كرس الغوري جهوده لإعداد أسطول بحري كبير للقيام بعمل جاد ضد البرتغاليين في المياه الهندية للتخلص من أخطارهم في المنطقة فقام الغوري بالاتصال بالعثمانيين لإمداده بالمعدات والأخشاب اللازمة لبناء هذا الأسطول.

واستجاب السلطان العثماني بايزيد الثاني لذلك وقدمها هدية للسلطان الغوري ورفض قبض الثمن من رسوله يونس العادلي - وفي ذلك يقول ابن إياس في أحداث ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) «فيه حضر يونس العادلي وكان السلطان قد أرسله إلى بلاد بن عثمان ليشتري له أخشاباً وحديداً وباروداً، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذي

(١) لم يشر إلى هذه الحملة سوى ابن الديبع في كتابه الفصل المزيّد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، ص: ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) قانصوه الغوري : هو قانصوه بن عبدالله الجركسي المشهور بالغوري نسبة إلى طبقة الغور التي كانت بمصر، كان مولده في عام ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م ترقى في المناصب وتولى نيابة طرسوس بالشام ثلاث مرات ثم توجه إلى الديار المصرية واستطاع تولي السلطنة في مستهل شوال ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م، واستمرت مدة حكمه نحو خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وتوفي في ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م وكان عمره عندما تولى السلطنة نحو من ستين سنة.

الشيخ نجم الدين محمد الغزي - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ج ١، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، بيروت ١٩٤٥ م، ص: ٢٩٤، ٢٩٥.

كان مع يونس العادلي وقال أنا أجهز من عندي زرد خاانه للسلطان وأرسلها فيما بعد»^(١).

ويتضح من قول ابن إياس مقدار اهتمام السلطان العثماني وإحساسه بالخطر الداهم على البلاد الإسلامية، مما جعله يقدم المساعدة لمصر المملوكية من آلات وأسلحة نارية حتى الحبال والعجل وكل ما يلزم المراكب أرسله هدية لمصر.

ويدل هذا على ما كانت عليه الدولتان من علاقات طيبة وحسن جوار^(٢)، في ذلك الوقت. ويدل ذلك على خلاف ماتوصلت إليه الدولتان في عهد سليم الأول الذي تولى بعد بايزيد الثاني في ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م من حروب أدت في النهاية إلى انتهاء دولة المماليك الجراكسة.

وطلب الغوري من حليفته البندقية إمداده بالأخشاب والمعدات والأسلحة اللازمة للإنشاء وإعداد القطع البحرية المطلوبة لمواجهة البرتغاليين، حيث أن الغوري كان يدرك مدى اهتمام البنادقة بأمر التخلص من النشاط البرتغالي وخطره على تجارة الشرق. والذي سوف يكون له أثره السيء على البندقية عاجلاً أو آجلاً من الناحية الاقتصادية، ويبدو أن البندقية أمدت الغوري بالمعونة وإن كان ذلك سرا^(٣)، خوفاً من اتهام البابوية لها بالتعاون مع الدولة المملوكية المسلمة البرتغال المسيحية^(٤) كما أن ذلك سوف يحرك ضدها الرأي العام الأوروبي.

وأرسلت البندقية مبعوثها - سانو توني ٩٠٨ هـ - (١٥٠٢ م) للغوري ينذره من الخطر البرتغالي، وقدمت له النصائح من أجل التحرك بإرسال النجيدات الحربية

(١) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: بدائع ازهور في ودائع الدهور ج٤، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٤ م، ص: ١٩٦، ٢٠١، الزردخانة: هي البارود والنفط.

(٢) ابن إياس: مصدر سابق، ص: ٢٠٢

(٣) عبدالعظيم حامد خطاب: قانصوة الغوري ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام - دكتوراه غير منشورة بأداب عين شمس ١٩٧٣ م، القاهرة، ص: ٢٧٣.

(٤) محمد عبدالعال أحمد (دكتور) البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية، ص: ٨٨

لأهل اليمن والهند والتعاون معهم ضد البرتغاليين لوقف نشاطهم هناك واهتم سلطان مصر بإحضار الأخشاب اللازمة لهذا الأسطول من بلاد الجون وغيرها، حتى يساعد ذلك على بناء هذا الأسطول بالإمكانات التي تجعله يواجه أسطول البرتغال القوى - وتمكن الغوري من إقامة ترسانة بحرية في السويس^(١)، ودور للصناعة في كل من الروضة وبولاقي بمصر^(٢)، وبذل هذا السلطان كل مايمكنه ولم ييخل بمال ولارجال في سبيل ذلك، وجعل كل إمكانات الدولة للدفاع عن هيبتها لتظل في المركز المرموق الذي وضع كل العالم الإسلامي آنذاك أملة فيه، كما قام الغوري بتوزيع الأعطيات والمرتبات على جنود هذه الحملة لدرجة أنه صرف للممالك نحو أربعة أشهر مقدما، مما يعطينا دليلا على مدى اهتمامه بهذا الأمر، ومدى جهده المبذول في إعداده. (٣).

ولم يهمل الغوري نظام التسليح، فأدخل فيه تعديلات هامة واستبدل الأسلحة النارية بالسيوف والرماح التي كان الممالك يعتمدون عليها في حروبهم. وكان نظام الفروسية بحاجة إلى تغيير، لأن العدو يعتمد على الأسلحة النارية الفتاكة، والتي لايسطيع نظام الفروسية أن يصمد أمامها، وحث السلطان الممالك على استعمال البارود، وكان بعض الممالك في النيابات الشامية على خبرة كافية بكيفية استخدام البارود، لذلك استعان بهم السلطان في حملته على الهند^(٤)، ومع أن دولته لم تكن

(١) خُربت مدينة القلزم منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بعد أن كانت تلك المدينة ميناء للملاحة البحرية إلى الحجاز والهند في القرون الإسلامية الأولى وأنشأ التجار قاعدة جديدة لهم بجوار مدينة القلزم وهي السويس، تعرف اليوم باسم قلعة القلزم. انظر: أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، جامعة بيروت ١٩٧٢م، القاهرة، ص: ٢٦٣.

(٢) العبادي (دكتور): مرجع سابق، ص: ٢٢٣، ٢١٧.

(٣) ابن إياس: مصدر سابق، ج٤، ص: ٨٤.

(٤) نفس المصدر ج٣، ص: ٢٦٨.

بحرية، إلا أن الغوري تمكن من اجتياز هذه العقبة وقام بجلب الصناع والمهندسين من الخارج، وجلب الأخشاب والمعدات لصنع السفن القوية لمواجهة الخطر البرتغالي، وقد اختلفت المصادر في تحديد عدد قطع الأسطول المملوكي، فقد ذكر ابن الديبع أنها كانت ثلاث برشات وثلاثة أغرية^(١)، وذكر الملباري: أنها ثلاثة عشر غرابا يقودها الأمير حسين الكردي، وقد أطلق على الحملة المملوكية للهند اسم «التجريدة المعينة إلى الهند» وأطلق على قائدها «باشي تجريدة الهند»^(٢).

ويذكر ابن إياس: أن جنود حملة حسين الكردي كانوا في مجموعهم من جنود الطبقة الخامسة أي من العساكر التي جردها الغوري في أيامه^(٣)، وكانوا يتكونون من المغاربة الذين يرأسهم أميرهم على المسلاتي الذي أطلق عليه اسم باشي المغاربة، أي رئيسهم، ومعهم بعض أولاد الناس^(٤)، وبعض ممالك سلطانية، وعبيد سود رماة وتراكمة (تركمان) وكان المغاربة يؤلفون أغلب أفراد الحملة لأنهم من البحارة، ومعهم فريق من البنائين والنجارين، وضم إليهم عددا من العمال الفنيين لإقامة التحصينات اللازمة حول جدة.

(١) برشات : مفردها برشة، وترجع إلى الأصل الإيطالي "BARCA" وهي نوع من القوارب أو الزوارق الشراعية الصغيرة وهي ذات شكل انسيابي طويل ومغطى وتعمل بالمجاديف، والأغربة مفردها غراب وهي من أقدم السفن الحربية وعرفت بهذا الاسم لطولها وسوادها نتيجة لطلائها بأنواع الطلاء المانعة للماء مثل القار فصارت بلونها الأسود أشبه بالغراب.

انظر : وجيه الدين الشيباني عبد الرحمن بن علي الديبع : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون - مخطوط بدار الكتب المصرية، صورة بالميكروفيلم رقم ١٨٤٧٤ - ١٣١١ هـ، ورقة ١٤٩، محمد عبدالعال: مرجع سابق، ص: ١٠٣.

(٢) فائق بكر الصواف، مصطفى رمضان: البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية مستخرج من أبحاث الأسبوع العلمي الثالث، ١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩ م، ص: ٢٦٤ بكلية آداب عين شمس.

(٣) ابن إياس: مصدر سابق، ص: ٢٤، ٨٥.

(٤) أولاد الناس: فرقة خاصة من أبناء الأمراء المماليك المتفوقين حيث جرت العادة أن يعطى للواحد منهم إقطاع يتناسب مع رتبة أمير خمسة في النظام الحربي المملوكي رعاية لسلفه، بشرط أن يندرج في الرديف السلطاني ويكون صالحا للخدمة في الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم.

انظر : القلقشندي: (أبي العباس أحمد القلقشندي) صبح الأعشى القاهرة ١٩١٥ م، ج ٤، ص: ٥١٠

وأراد الغوري أن يجعل لهذه الحملة دعاية في الداخل لأهميتها في مصر، ومستقبل الاقتصاد المصري والتجارة الإسلامية في البحار الشرقية، وشهد في القاهرة احتفالاً لتوديع الحملة، ويقول ابن إياس مايلي: «في يوم الإثنين سادسه (أي سادس جماد الآخر عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م) خرجت تلك التجريدة المعينة إلى بلاد الهند، وكان لها يوم مشهود، فكان باشي الممالك الذين توجهوا في المراكب إلى جدة والتركمان والعبيد الذين بها حسين المشرق وباشي المغاربة الذين بها الخواجا نور الدين على المسلاتي المغربي، فلما خرجوا توجهوا نحو السويس ونزلوا من هناك في مراكب إلى جدة، وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك.

ومهمة هذه الحملة كما ذكرها ابن إياس في يومياته تتلخص فيما يلي :

أولاً: تأديب أعراب بني إبراهيم^(١) المتضامنين مع أمير ينبع يحيى بن سبع وأمير خليف مالك بن روس الذين قاموا بكثير من أعمال السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام، وهددوا ثغر جدة ومكة المكرمة بكثرة غاراتهم المتكررة عليهما.

ثانياً: تحصين جدة ببناء سور ضخمة ذي أبراج عالية لتكون على استعداد لصد أي عدوان مفاجئ تتعرض له من قبل البرتغاليين أو الأعراب^(٢).

ثالثاً: الاطمئنان على أهم ثغور البحر الأحمر وعلى الأخص سواكن في الساحل الأفريقي تجاه جدة، وعدن قرب مدخل البحر الأحمر، وذلك لتأمين خط الدفاع عن هذه المنطقة.

(١) بنو إبراهيم : أشهر القبائل التي كانت تسكن يومئذ بين ينبع ومكة، وكانت السلطات المصرية توكل إليهم حراسة قافلة الحج المصرية في بعض مراحل الطريق بين ينبع ومكة، وفيما بين عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م، وعام ٩١١هـ / ١٥٠٥م، قام أعراب بني إبراهيم بكثير من السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام، وبعد أن قوي أمر بني إبراهيم عام ٩١١هـ أمر السلطان الغوري بإيقاف التوجه إلى الحج في هذه السنة من مصر والشام وسائر الأمصار، حتى يقوم بتأمين طرق قوافل الحج من هؤلاء المفسدين، انظر : ابن إياس: مصدر سابق، ج ٤، ص: ٨٩، وما بعدها.

(٢) انظر سورة السجدة (ملحق رقم ١٤) ص: ٢٧٥.

رابعاً : التوجه إلى الهند لمحاربة البرتغاليين وإجلالهم عن المراكز التي نزلوا بها في الشواطئ الهندية والسبب الرئيسي في القيام بهذه الحملة هو بناء السور وتحصين ميناء جدة من هجمات الأعراب والخطر البرتغالي المرتقب.

ولما وصل الأمير حسين الكردي إلى جدة بنى عليها سوراً، وذلك في عهد الشريف بركات شريف مكة الذي ساعده في عملية البناء للسور وملحقاته. كما ساعد الشريف في نزع ملكية بعض البيوت التي كانت قريبة من السور، وحضر بنفسه عملية الميناء.

وكان ارتفاع السور من الأساس حتى قمته ١٢ ذراعاً، وطول الحائط من ناحية مكة واليمن والشام ٣,٠٠٠ ذراع، وعرض جداره أربعة أذرع، أما الأبراج فكانت ستة أبراج ومحيط كل برج ستة عشر ذراعاً وارتفاعه فوق وجه الأرض خمسة عشر ذراعاً. والأبراج هي : برج شامي تجاه الشمال، وآخر يمني تجاه الجنوب، وبرجان قبليان تجاه مكة ملاصقان لبابين يسمى أحدهما: باب الفتوح وهو الأيمن ويسمى الآخر باب النصر وهو الأيسر، أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون في البحر اثني عشر ذراعاً^(١) وقد تم بناء السور في تسعة أشهر من عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م.

وبعد انتهاء تحصين ميناء جدة تحرك حسين الكردي إلى سواكن عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٦^(٢) فاستولى عليها دون مقاومة، وأقام الاستحكامات اللازمة ثم تابع سيره

(١) نص الشيخ عبدالقادر بن فرج علي بن فرج علي أن هذا الذراع هو ذراع العمل وهي نحو ٧٧,٥ سم $1,5 \times 116,25 =$ سنتيمتراً، انظر: فائق بكر الصواف، مصطفى رمضان، (دكتور): مرجع سابق ص: ٢٦٩.

(٢) يذكر دي كاسترو (DECASTRO) في وصفه لسواكن أنها أصبحت أغنى مدن التجارة في الشرق الأوسط ولا يضارعاها في نظره إلا ميناء لشبونة البرتغالي، وكان مروره بها سنة ١٥٤١ م، انظر: صلاح الدين الشامي (دكتور): المواني السودانية، القاهرة ١٩٦١ م، ص: ١٢٢.

وانظر

DAVIDLOPES: TEXTOS ALGAMIA PORTUGUEAS(LISBOA 1897) P. 71

إلى الموانئ اليمنية فمر بجيزان وبجزيرة كمران^(١) ومنها إلى مخا ثم عدن.

واستقرت حملة الكردي قليلاً بعدن حيث طلب الكردي أمير الحملة من والي عدن تزويدها بما تحتاجه من المؤن لمواصلة سير الحملة إلى الهند، فتجاوب معه الوالي وقدم له كل ماطلبه.

وواصل سيره إلى الهند، وعند وصوله إليها دخل كجرات واجتمع بسلطانها خليل شاه مظفر بن السلطان محمود شاه الكجراتي، فأكرمه وعظمه، وأُنعِمَ عليه بنعمة طائلة، ولما سمع البرتغاليون به تركوا بندر كجرات واتجهوا إلى بندر الدكن وتحصنوا بقلعة متقنة تابعة لهم وتسمى «كوة»^(٢) وتوجه حسين الكردي مع حاكم ديو مالك إياس، على أسطولييهما إلى كاليكوت للاشتراك مع أسطول السامى في القضاء على البرتغاليين في ساحل ملبار^(٣)، وطردهم نهائياً من الهند، وفي أثناء الطريق قابل القائدان بالقرب من ميناء شول الصغير أسطولا برتغاليا مكوناً من ثماني سفن. فنشبت بين الطرفين معركة بحرية انتصر الأسطول المملوكي وحليفه الكجراتي بفضل تعاونهما في موقعة شول عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م.

(١) جزيرة كمران: تقع جزيرة كمران على بعد مائتي ميل شمالي مضيق باب المندب وعلى بعد يسير لا يتعدى ثلاثة أميال من ساحل اليمن الشمالية، وتقع في مواجهتها مدينة الصليب الشهيرة بجبال الملح، وهي أكبر جزيرة في مجموعة من الجزر الصغيرة والمرتفعات الضحلة المتناثرة في تلك المسافة المعروفة كلها باسم «كمران».

انظر: حمزة علي لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، ص ٧

وانظر: الخريطة وموقع الجزيرة، (ملحق رقم ٣) ص: ٢٦٤

DAVED LOPS: OP. CIT. P. 71. (٢)

* انظر موقع كوة في الهند (ملحق رقم ٧) ص: ٢٦٨.

(٣) يحتل إقليم مليبار الجزء الجنوبي من ساحل الهند الغربي، وهو أقليم خصب تكثر به التوابل، وبه كثير من الموانئ الهامة مثل كاليكوت وكوشن وكنا نور، وكولم، وينقسم الساحل إلى عدد من الوحدات السياسية الصغيرة، وتعد مملكة كاليكوت أهم هذه الوحدات السياسية وأغلب سكان هذه السواحل كانوا وثنيين.

انظر: السيد مصطفى سالم (دكتور): الفتح العثماني الأول لليمن، (١٦٣٥ - ١٥٣٨)، القاهرة ١٩٧٤ م، ص: ٤٩.

ويذكر ابن إياس عن هذه الحملة: «جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه نحو بلاد الهند صحبة الأمير حسين قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يعبثون في البحر، وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة، فسر السلطان لهذا الخبر، وأمر بدق الكوسات، فدقت ثلاثة أيام متوالية، ثم إن حسيناً أرسل يطلب عسكرياً ثانياً حتى يتقوى بهم على من بقى من الفرنج^(١) وهذه المعركة سقط فيها قائد الأسطول البرتغالي لورنز دالميدا (LORENS DE ALMEDA) قتيلاً.

ثم عاد الأسطول إلى ديو لإصلاح بعض سفنه وانتظاراً لانتهاء موسم الأمطار، وقد أثار هذا الانتصار البرتغاليين، فقد كان وصول الأسطول المصري إلى هناك مفاجأة لهم وزاد من إحساس البرتغاليين بالخطر، ماشهدوه من قيام حلف بحري من المصريين وبعض الولايات على ساحل الهند الغربي مثل كجرات وبيجامور وأحمد ناجايال وكاليكوت، مما جعل نائب الملك البرتغالي في الهند فرنسيسكو دالميدا (FRANSESCO DE ALMEDA) يحشد قواته البحرية لمواجهة هذا الحلف الهندي المملوكي، فأعد تسع عشرة سفينة واتجه بها إلى ديو، واشتبك مع الأسطول المملوكي، في معركة فاصلة وتمكن من إنزال هزيمة ساحقة بالممالك وحلفائهم عام ٩١٥ هـ الموافق الثامن من فبراير ١٥٠٩ م واضطر الأمير حسين للانسحاب بما سلم من سفنه إلى جدة^(٢).

ويشير ابن إياس إلى هذه الحادثة بقوله: «جاءت بأن العسكر الذي توجه إلى الهند صحبة حسين المشرف قد كسرهم الفرنج كسرة فاحشة، وقتلوا العسكر عن آخره، ونهبوا ما في مراكبهم أجمعين، فتكدر السلطان الغوري لهذا الخبر^(٣).

وتأخر السلطان المملوكي عن المبادرة لمواجهة الخطر البرتغالي في حينه بعد

(١) ابن إياس: مصدر سابق، ج ٤، ص: ١٤٢، وانظر: فائق بكر الصواف، مصطفى رمضان

(دكتور): مرجع سابق، ص: ٢١٠.

(٢) محمد عبدالعال أحمد (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٩٨.

(٣) ابن إياس: مصدر سابق، ج ٤، ص: ١٥٦، وانظر: مصطفى سالم، (دكتور): مرجع سابق، ص: ٦٢، ٦٣.

تهديده للمياه الهندية وتمكنه منها، وساعد هذا التأخير الغزاة على بناء قوتهم التي مكنتهم من هزيمة الأسطول المملوكي الذي وصل بعد قوات الأوان.

أما الفظائع التي ارتكبها دالميدا كأخذ الأسرى لإعدامهم بعد ذلك في تلذذ وبشاعة فهذه وتلك تعد وصمة سوداء لطخت جبينه استحق عليها اللوم حتى من أكثر المؤرخين البرتغاليين تعاطفاً معه مثل أوزوريو (OZORIO) الذي قال: «إن الأسرى الذين أصبحوا عبيده بحكم غنيمة الحرب كان عليه أن يحميهم» أما بيا دي جواس PAIA DE GOIS فقد كان أشد عنفاً في نقده لدالميدا إذ قال: «إنه بعد الاشتباك رحل دالميدا إلى كانانوري.

وعندما كان على مدى البصر من قلعتها أمر بشنق الوزيرين اللذين تم أسرهما. ومع الآخرين استعمل وسائل أشد قسوة فقد ربطهم على فوهات مدافع كبيرة وبقذف هذه المدافع تتناثر أشلاء هؤلاء المساكين لإرهاب المدينة^(١).

ويبدو من هذه الأعمال الوحشية أن الله^(٢) في سبيل عقابه على هذا العمل غير الإنساني، تركه يموت على أيدي أكثر الناس همجية في العالم: «وكان البرتغاليون يدركون مدى خطورة الأسطول المملوكي الذي يحمل المدافع النارية وقد ركزوا كل قوتهم ليشلوا حركته، رغم كثرة عدد السفن المتحالفة، إلا أن سبب الهزيمة يعود إلى الغرور الذي انتاب الأمير حسين الكردي، من الانتصار الذي أحرزه في موقعة شول، مما جعله يستهين بقوة العدو، ورفضه لنصيحة حاكم ديو بالانتظار في ميناء ديو لحماية ظهور السفن، وإصراره على مقابلة سفن البرتغاليين في عرض البحر^(٣).

أما مالك إياس حاكم ديو فلم ير بدأً من عقد صلح مع البرتغاليين فأرسل رسله

(١) BESCE ANGELO : OP. CIT. P77

(٢) عند سفرد الميدا قاصداً لشبونه، مات قتيلاً بيد زنجي في خليج سودانها وكان قد رسى فيه بسفنه، انظر: المسيو جيان ربان سفينة: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص: ٢٥٨.

(٣) شول CHOUL : كانت تتبع مملكة الدكن، وتقع جنوب سلطنة كجرات.

وهداياه إلى دالميدا القائد البرتغالي نائب ملك البرتغال، معبرا عن رغبته في السلام، وقد أخرت هذه الخطوة، وقوع ديو تحت سيطرة البرتغاليين إلى عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م. ومن الملاحظ أن سياسة القائد البرتغالي كانت الاكتفاء بالسيطرة البحرية دون التوسع في البر، وهذا الانتصار الذي حققه البرتغاليون في معركة ديو البحرية فتح لها آفاقا جديدة ورسخ أقدامهم في السواحل الهندية، وحقق السيطرة البرتغالية على طريق التجارة الشرقية حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وفي ذلك الوقت تم تعيين الفونسو دا البوكيرك ALFONSO DE BUQUERQUE نائبا للملك في كوشين بدلا من دالميدا^(١).

رابعاً : عرب الخليج والساحل العماني :

يعد البوكيرك أول مؤسس للاستعمار الأوربي في الشرق، فقد عمد إلى احتلال المراكز البحرية الهامة وإقامة الحصون القوية في جميع جهات المحيط الهندي. حتى يحكم السيطرة البرتغالية على مصادر التجارة في الشرق، أما دالميدا الذي سبقه فكانت سياسته أنه لا يرى مبررا للاستيلاء على مراكز برية تكلف البرتغاليين الشيء الكثير. والهدف هو السيطرة على الطرق البحرية، لا يمكن أن يتم إلا بإيجاد حصون برية تكون ملجأ للسفن الحربية.

ولكن البوكيرك كان يرى أنه من الأفضل إيجاد القلاع الحصينة أينما يقيم المراكز التجارية ويهدف من ذلك إلى حماية التجارة البرتغالية ودعم قوة البرتغاليين وفرض سيطرتهم على الحكام الوطنيين أيضا^(٢).

ويتضح من هذه السياسة التي انتهجها البوكيرك أنها سياسة حكمية ومنطقية نظراً لبعدها البرتغال عن المناطق التجارية، فكان لابد من إيجاد مستعمرات ومراكز حربية لتأمين سلامة القوة البرتغالية ضد ثورات الحكام الوطنيين.

ويمكن أن نقسم عهد البوكيرك إلى فترتين :

(١، ٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٦٤

الفترة الأولى تبدأ من عام ٩١٢هـ / ١٥٠٦م عندما وصل إلى رأس الرجاء الصالح ضمن حملة بحرية كبيرة.

وتبدأ الفترة الثانية من عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م عندما عين نائباً للملك في كوشن، حتى توفي في أواخر عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م في الهند.

والسنوات الثلاث الأولى قضاهما البوكيرك أمام السواحل العربية الجنوبية وعند مدخل الخليج القريب، فساعدته ذلك على تكوين فكرة عامة عن المنافذ العربية لتجارة الشرق.

وكانت الحملة البحرية التي شارك البوكيرك فيها مكلفة بالاستيلاء على جزيرة سوقطرة بالقرب من مدخل البحر الأحمر للسيطرة على مدخله لإغلاقه أمام التجار العرب. ونجحت هذه الحملة في احتلال الجزيرة في عام ٩١٢هـ / ١٥٠٧م وأقامت بها حصناً للبرتغاليين ومكث البوكيرك في سوقطرة يقود بعض السفن لمهاجمة السفن العربية عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي وتوجهت باقي السفن إلى الهند.

ونرى البوكيرك بعد ذلك يقوم بأعمال عدوانية تخريبية في المنطقة من ساحل عمان حتى جزيرة هرمز شرقاً، فاتجه بأسطوله في عام ٩١٢هـ / ١٥٠٧م حتى وصل قرب رأس الحد^(١) بالساحل العماني الذي كان خاضعاً لسيادة هرمز، فهاجمه وأضرم النار فيه، وأغرق سبع عشرة سفينة كانت راسية في الميناء، وواصل البوكيرك جرائمه العدوانية على ساحل عمان، وهاجم مدينة مسقط ذاتها بالرغم من استعداد حاكمها لدفع الجزية التي كان يدفعها ملك «هرمز» إلى البرتغاليين.

كما ضرب المدينة بالمدافع وتسبب في إحراقها وأحرق مسجدها وجميع السفن الراسية بالميناء وقبض على كثيرين من الأسرى وأخذ عدداً منهم للخدمة في سفنه، وترك النساء والأطفال والضعفاء منهم بعد أن شوههم وقطع

(١) انظر موقع الأماكن التي مر عليها البوكيرك من رأس الحد حتى هرمز (ملحق رقم ٦)، ص: ٢٦٧

(٢) وزارة الإعلام والثقافة في سلطنة عمان، عمان وتاريخها البحري، ص: ٥٨

أنوفهم وقطع آذانهم^(٢).

واستمر في فعله هذا على طول السواحل العمانية حتى خورفكان^(١) وواصل سيره إلى جزيرة هرمز وقبل وصوله إلى الجزيرة ذاع صيته، ووصلت أخباره إلى أهالي هرمز مما أثار الفزع في نفوسهم على الرغم من الاستعدادات الدفاعية بالجزيرة، واستسلمت هرمز للبرتغاليين بعد معركة قصيرة، وتم الصلح بين الطرفين، وهذا الصلح بداية سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج العربي التي استمرت حتى أوائل القرن السابع عشر رغم الثورات المتتالية من الأهالي وسكان الساحل العربي المواجه للجزيرة.

أما الفترة الثانية من عهد البوكيرك في الشرق عندما كان نائباً في كوشين، فقد اتسمت هذه المرحلة الجديدة بالاهتمام السياسي والعسكري إذ قامت سياسة البرتغاليين على احتلال المراكز التجارية الهامة، وبناء التحصينات القوية لتتيح لهم فرصة البقاء والهيمنة على هذه المراكز البعيدة عن مركز العاصمة لشبونة، بدلا من مطاردة السفن التجارية في عرض البحر^(٢)، لذا انحصرت خطة البوكيرك - في هذه المرحلة - في ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : اختيار مركز في وسط الساحل الهندي، بدلا من كوشين الواقعة أقصى الجنوب.

والثاني احتلال هرمز ليتمكن من السيطرة على مدخل الخليج العربي والمؤدي إلى

(١) (خورفكان) عبارة عن خليج صغير تحيط به الجبال على شكل فكين ومن ذلك جاءت تسميتها خورفكان، وخورفكان كانت خاضعة لمملكة هرمز، وهي ميناء بحري عظيم يقع على ساحل خليج عمان، وقد وصفها البوكيرك بقوله: «إنها من أجمل المدن فمناخها معتدل وصحي وهي على شكل (قدم الجمل الكبير) يكثر بها التجار، كما أنها غنية بالزراعة فيكثر فيها القمح والذرة والبرتقال، والبلح وغيره من الفواكه، وهي تابعة لإمارة الشارقة، (دولة الإمارات العربية المتحدة) انظر : عائشة السيار : (دكتوراه): دولة البعارة في عمان وشرق أفريقيا، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٧٥م، ص: ٢٣.

وانظر : شكل خورفكان وتحصيناتها البرتغالية (ملحق رقم ١٨) ص: ٢٨٠، وملحق رقم (١٩)، ص: ٢٨١.

(٢) السير أنولدت، ويليون: الخليج العربي، مجمل تاريخ من أقدم الأزمنة، حتى أوائل القرن العشرين، نقله إلى العربية، عبدالقادر يوسف الكويت ١٩٧٩م، ص: ٢١١.

البصرة والثالث الاستيلاء على عدن لإغلاق طريق البحر الأحمر المؤدي إلى مصر المملوكية ^(١) وقام البوكيرك باستعادة جوا (GOA) من جديد بعد أن كان البرتغاليون قد خسروها، وصمم على أن يفتح الحصون القديمة، وقبل الشروع في ذلك أرسل البوكيرك رسالة إلى الملك البرتغالي دون مانويل (DON MANOEL) مؤرخه في ١٧ أكتوبر ١٥١٠م يخبره فيها بعزمه على احتلال جزيرة جوا (GOA) نظرا لأهميتها بالنسبة للمواقع البرتغالية بالهند، وعزمه على الالتحاق فور ذلك بالبحر الأحمر ^(٢).

وبعد احتلاله جوا نقل البوكيرك مقر البرتغاليين في الهند إليها نظراً لتوسط موقعها على ساحل الهند الغربي ^(٣).

وأثر هذا الاحتلال على الممالك الهندية على الساحل الغربي للهند مما جعل سلطان كجرات يوافق للبرتغاليين على إقامة محطة تجارية وحصن لهم في ديو، كما عقدت كاليكوت صلحا مع البرتغاليين وسمحت لهم بإقامة حصن فيها ^(٤).

وتوج البوكيرك خطته في السيطرة على المراكز التجارية الهامة باحتلال ميناء ملقا عام ٩١٧هـ / ١٥١١م، ويعد هذا الميناء من أهم الموانئ التجارية في العالم. وكانت ملقا أهم المراكز لتجمع منتجات الهند الشرقية، وغيرها من مناطق الشرق الأقصى حتى الصين شرقا ^(٥).

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) مرجع سابق، ص: ٦٦، ٦٧

(٢) ANTONIO RAYMUNDG : OP. CIT. P. P. 21 - 238

(٣) السيد مصطفى سالم (دكتور): مرجع سابق، ص: ٦٧

(٤) زين الدين الملباري : مصدر سابق، ص: ٤٣

(٥) تقع مدينة ملقا عند طرف شبه جزيرة الملايو، وكانت تتبع في البداية مملكة سيام ولكنها تمكنت من تحقيق استقلالها بفضل قوتها الاقتصادية، وقد وصل العرب إليها في وقت مبكر، ونشروا الإسلام بها، وكانت تعد من أهم المراكز التجارية للعرب في هذه الجهات، كما يعد استيلاء البوكيرك عليها ضربة اقتصادية شديدة الأثر للتجارة العربية. بالإضافة إلى أن استيلاء البرتغاليين على ملقا حينئذ كان بداية لامتداد النشاط البرتغالي التجاري إلى المعازل الإسلامية الأخرى.

انظر : السيد مصطفى سالم (دكتور): مرجع سابق، ص: ٦٧

وكان البوكيرك يدرك أهمية هذا الميناء بالنسبة للعرب، وهذا يتضح من خطابه الذي وجهه للمحاربين البرتغاليين قبيل الهجوم عليها حيث قال: «إني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين ولا تمتنع عن البندقية كل تجارة التوابل مالم يذهب تجارها إلى البرتغال لشراؤها من هناك^(١)».

وقد أراد البوكيرك بذلك بث روح التضحية في جنوده، لكي يتمكن من تحقيق مطامع مملكتهم وفي عهد البوكيرك سيطرت البرتغال على أهم المراكز التجارية على الساحل الأفريقي الشرقي، فمنذ عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م كانت جميع المراكز التجارية الإسلامية الهامة قد تمت السيطرة عليها من قبل البرتغاليين، من سوفيلا جنوباً إلى براوة شمالاً، وجزيرة زنجبار وموزمبيق وبمبا، ومافيا^(٢) كذلك تم أول اتصال مباشر بين الحبشة والبرتغاليين في عهد البوكيرك.

ففي عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م أرسلت الإمبراطورة هيلينا الوصية على عرش الحبشة ابنها الطفل وأحد أتباعها ويدعى ماثيوس إلى الهند ليعرض على نائب الملك البرتغالي التعاون بين البلدين للقضاء على العرب وتجارتهم الشرقية، خاصة الممالك في مصر، وتمكن ماثيوس من مقابلة البوكيرك في عام ٩١٨هـ / ١٥١٢م فأرسل ماثيوس إلى البرتغال لمقابلة الملك هناك، بعد أن زود البوكيرك بمعلومات قيمة عن زيلع تمكنه من الاستيلاء عليها بسهولة، وعاد ماثيوس إلى الحبشة ومعه أول سفارة دبلوماسية برتغالية إلى أباطرة الحبشة^(٣)، وأرسل رسالة للملك «عمانويل» يشكو فيها القبطان لوبو سوارس^{(٤)*}.

(١) باننيكار : مرجع سابق، ص: ٤٨

(٢، ٣) السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص: ٦٨

(٤) رسالة ماثيوس وربرست جوان للملك البرتغالي عمانويل مؤرخ في ٢٧ فبراير ١٥١٧م، ضمن الوثائق البرتغالية التي أعدها مركز الوثائق والدراسات - أبوظبي.

تاريخ الرسالة ٢٧ فبراير ١٥١٧م.

* انظر ملحق رقم (٣٣) ص: ٣٢٨ - ٣٤٠

ولم يتمكن ماثيوس من العودة إلى الحبشة إلا عام ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م ويعود ذلك إلى صعوبة المواصلات والأخطار المحيطة بالسفر حينئذ وتوفي ماثيوس بعد قليل من وصوله إلى ساحل الحبشة وقبل أن يقابل نجاشي الحبشة. ولكن نستطيع القول إن مهمته كانت ناجحة، وكان هدف هيلينا الحقيقي هو إنشاء علاقة مع البرتغاليين للحصول على المساعدات البحرية لتواجه النشاط الإسلامي وخطره على مملكتها، ونشاط الممالك في البحر الأحمر، وقد شجع ذلك الإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا على محاربة أباطرة الحبشة^(١).

وكان لهذه الدويلات الإسلامية علاقة وطيدة قديمة مع ملوك وسلطين المسلمين خاصة مع اليمن ومصر، وأشرف مكة، وجعلت هذه العلاقة القوية كلا من الطرفين البرتغالي والحبشي يسعى إلى إيجاد علاقات قوية ليتمكنوا من تطوير العالم الإسلامي من الجنوب، وإيجاد مراكز بحرية في البحر الأحمر لمهاجمة الحجاز ومصر وقد قام البوكيرك في عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م وبالتحديد في ٢٠ أكتوبر عام ١٥١٢ م بتحرير رسالة للملك عمانويل (DON MANOEL) خلال رحلة إلى جوا يطلعه فيها على أخبار عدن وعلى الشائعات المتعلقة بقرب تحرك أسطول الممالك نحو مدخل البحر الأحمر^(٢) وقال فيها: «إن أعظم الشرور كلها بالنسبة إلى جوا هو أن الرومان قادمون.. إن هذا مصدر عظيم للخطر على الهند ويسبب كثيرا من القلق والاضطراب بين المواطنين والمسيحيين على حد سواء، وفيما يتعلق بهذه الملاحظات المجربة أعرض لجلالتكم بكل احترام أنه لن تكون هناك ثقة أو سلام لرعايا جلالتم في هذه الأجزاء، إلا بأن نذهب إلى البحر الأحمر ونؤكد لهؤلاء الناس أن مخلوقات اسمها الرومان ليس لها وجود..»^(٣).

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٦٨

(٢) * وتشير الوثائق البرتغالية إلى انتشار الجواسيس البرتغالية ليحملوا أخبار الاستعدادات الملوكية. انظر. A. N. T. T. C. C. I - II - 61.

(٣) RAY MUNDO ANTONIO : CARTAS DE ALFFONSO DE, ALBUQUE RQUE, LISBOA 1884. P. 95 - 98.

وبعد إرسال هذه الرسالة غادر جوا بكامل أسطوله إلى عدن ومكة، ونظراً لسوء الأحوال الجوية لم ينجز البوكيرك سوى تعطيل حصن سوقطرة الذي برهن على كونه لانهج يرمى منه، ثم جمع الجزية المستحقة من هرمز.^(١)

وفي عام ٩١٩هـ/ ١٥١٢م وعلى أثر تسليم البوكيرك الأوامر السريعة من الدون منويل للاستيلاء على عدن واتخاذ طريقه إلى مضائق البحر الأحمر، أقلع بأسطوله المؤلف من عشرين سفينة تحمل قوة من ١٧٠٠ برتغالي و ٨٠٠ مالاباري و كاناري، واتجهوا نحو رأس غارد افوى ومن ثم اتجهوا في الوقت المناسب نحو عدن، وهذا أول هجوم للالبوكيرك على عدن والسواحل اليمنية، ويعد أول زحف برتغالي إلى داخل البحر الأحمر^(٢). ويعد تهديداً مباشراً لليمن والحجاز ومصر، وعندها بدأ الصراع العربي البرتغالي يمر بمراحل جديدة من مراحله الخطيرة، وكان الهدف من هذا الزحف هو القضاء على قوة الممالك البحرية، حتى لا يتعرض نفوذ البرتغاليين في الهند إلى الخطر الذي تعرض له الوجود البرتغالي عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م على يد الأمير حسين الكردي على الرغم من هزيمة الممالك في معركة ديو البحرية.

فقد ظل الممالك يشكلون خطراً على تواجد البرتغاليين في المحيط الهندي خاصة وفي الشرق عامة. وقد أرسل البوكيرك في عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م إلى ملك البرتغال يستأذنه في مهاجمة عدن والبحر الأحمر^(٣).

وأشار في رسالته إلى أن الهنود مازالوا يرددون أن هناك نجدة مملوكية سوف تصل إلى الهند لنجدتهم وتخليصهم من البرتغاليين. ويرى البوكيرك أنه لاستقرار إلا بالقضاء على القوة المملوكية في البحر الأحمر، لأنه قد شاهد فلولهم عند هزيمتهم

(١) السير آر نولدت، و بلسون: مرجع سابق، ص: ٢١٢

(٢) السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص: ٧١

* انظر الوثيقة رقم ٦١ - ١١ - ١ (ملحق رقم ٢٨) ص: ٣٠٠ - ٣٠٤

ANTONIO RAYMUNDO : CARTAS AFFONSO DE ALBUQUERQUE, (٣)
GAV 15 MAC. 14, NO. 38. P. 95 - 89.

في ديو البحرية، وكيف ساعدهم شاه ملك بيجاور الإسلامية - الجنوب من كجرات - للممالك ودعاهم للإقامة في بلاده، وأمدتهم بما يحتاجون إليه من أخشاب وأدوات لازمة لبناء السفن^(١).

وكان هدف البوكيرك من الزحف على البحر الأحمر هو الاستيلاء على ميناء عدن الاستراتيجية ليتمكن من غلق باب المندب والسيطرة على مداخل ومخارج البحر الأحمر، لأنه قد أدرك من خلال تجاربه - أن الجزء الأكبر من التجارة الشرقية يتم عن طريق البحر الأحمر وليس الخليج العربي، وتعد عدن أكبر مستودع للسلع التجارية والاستيلاء عليها ضرورة ملحة، لتأمين طريق البرتغال الجديد طريق رأس الرجاء الصالح^(٢).

وفي ١٦ محرم ٩١٩م / ٢٤ مارس ١٥١٣م بدأ الهجوم على عدن* فأسرع الأهالي بإبلاغ الأمير مرجان حاكم عدن الذي انزعج لظهور البرتغاليين أمام الميناء فأرسل الخبر إلى السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري، الذي كان يواصل حروبه الداخلية، فقام السلطان بتجهيز حملة حربية إلى عدن لنجدتها وأصدر أوامره لباقي الموانئ اليمنية لتأخذ حذرهما، لأن عدن تمكنت من صد الهجوم بنفسها، وتطورت الأحداث سراعاً قبل وصول الإمدادات الداخلية. وهاجم الأسطول البرتغالي عدن بقيادة البوكيرك وقواته البحرية مقدارها ١٧٠٠ جندي برتغالي و ١٠٠٠ من الهنود محملين على ظهر ٢٤ سفينة، واستولى البرتغاليون على البضائع المحملة على السفن الراسية في الميناء، دون إبداء أية مقاومة، وكانت خطة أهالي عدن الدفاعية عن المدينة هي الاعتماد على حصانتها، وعدم منازلة البرتغاليين في معركة بحرية حاسمة، نظراً لقوة الأسطول البحري البرتغالي، وعدم المقاومة في بداية الأمر شجع البوكيرك على أن يأمر جنوده بالنزول إلى المدينة حيث دارت خلف الأسوار معركة شرسة مع الأهالي

(١) السيد مصطفى سالم : (دكتور) مرجع سابق، ص: ٧٢

(٢) السير أرنولد، ويليون: مرجع سابق، ص: ٢٦٢

* انظر ميناء عدن عند هجوم البوكيرك عام ١٥١٣م (ملحق رقم ١٣) ص: ٢٧٤.

استبسّلوا فيها للدفاع عن أنفسهم، مما اضطر البرتغاليين للانسحاب إلى السفن بعد أن فقدوا بعض جنودهم^(١).

وبقى البوكيرك في المدينة لمدة أربعة أيام يمارس هوايته في التخریب فأحرق حوالي أربعين سفينة كانت راسية هناك، واتجه البرتغاليون بعد ذلك إلى باب المنذب حيث دخلوا البحر الأحمر لأول مرة في تاريخ البرتغال، فمروا بالموانئ اليمنية، حتى وصلوا جزيرة كمران واحتلوها عام ٩١٩ هـ / إبرایل ١٥١٣ م ودمروا كل ما فيها من مظاهر الحياة حتى آبار المياه كي لا يستفاد بالجزيرة بعد رحيلهم عنها، لأنها تعد محطة هامة بين جدة وعيذاب، وكان حلم البوكيرك الكبير هو الوصول إلى ميناء جدة وتدميره، فغادر جزيرة كمران متجها شمالا، ولكن الرياح لم تمكنه من المضي في اتجاهه، بل اضطر للرجوع إلى الجزيرة قبل أن يصل إلى جدة فمكث هناك شهرين^(٢) وخلال هذه المدة أرسل سفينتين إلى زيلع، وضربها بالمدافع وحرق السفن الراسية بالميناء، وعاد إلى عدن لضربها ثانية، واستمر ذلك خمسة عشر يوماً حتى غادرها إلى الهند في أول جمادى الثاني عام ٩١٩ هـ (أغسطس ١٥١٣ م) وفشل البوكيرك في الاستيلاء على عدن وجدة، ولكن نجح في دخوله البحر الأحمر، ورسم خطة لمن يأتي من بعده لغزو هذا البحر، وأصبح لدى البوكيرك معلومات كافية عن البحر الأحمر، وكيفية التعامل مع المدافعين عنه، ولمس عمليا كيفية التعاون مع الحبشة عند إعلان الحرب الشاملة ضد الإسلام والمسلمين^(٣).

وقد قام البوكيرك - نائب الملك البرتغالي - دون منويل الأول ٩٠١ - ٩٢٨ هـ / ١٤٩٥ - ١٥٢١ م بإرسال رسالة ملك البرتغالي مؤرخة في عام ٩١٩ هـ / ٢ ديسمبر ١٥١٣ م يخبره فيها بالغنائم التي حصل عليها البرتغاليون بعد إغارتهم على السفن بالبحر الأحمر وأرسلت الرسالة من حصن كنتور بالهند^(٤).

(١) Kammerer : OP. CIT. P. 185.

(٢) السير آرنولد، ولسون: مرجع سابق، ص: ٢١٣

(٣) السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص: ٧٣

(٤) ANTONIO RAYMUNOO : OP. CIT. P. P 174 - 175

والمعلومات التي حصل عليها البوكيرك من خلال جولاته في البحر الأحمر أظهرت أهميته بالنسبة للبرتغال لتمكينها من السيطرة الكاملة على مداخله، وظهر ذلك في خطابات الملك الدون منويل حيث أشار إلى اقتراحاته العملية.

ففي خطابه المؤرخ في ٢٠ أكتوبر عام ١٥١٤م ذكر البوكيرك أنه يجب الاستيلاء على عدن وإقامة حصن قوى بها للبرتغاليين، إذ إن بها ميناء صالحا لرسو السفن البرتغالية، كما أنها تعتبر البوابة الحقيقية للبحر الأحمر، أما جزيرة بريم فهي جزيرة قاحلة وليس فيها ماء عذب للشرب، وذكر كذلك أنه على البرتغاليين تأمين جانبهم في مصوع حتى يضمنوا لأنفسهم المؤن والإمدادات اللازمة^(١).

وفي رسالة أخرى أشار إلى أنه يرغب في التقدم إلى ميناء مصوع التابع للقديس يوحنا PRESTER JHON «أي إمبراطور الحبشة ليستولى على جزيرة دهلك، المواجهة لجدة ومنه يرى كيف يهاجم جدة، وذكر في هذه الرسالة للملك منويل: «أن في نيتي أن أسير إلى مصوع ميناء برستر جون لأحتل دالكا»^(٢) وأرى مأسأفعله في جدة، ولو أن مسائل أخرى تتعلق بشئون التجارة تدعوني للعودة إلى هرمز حيث أن السفر إلى البحر الأحمر على أية حال سيكون مفيدا على أساس التوابل الثمينة التي

(١) السير آرنولد، ولسون: مرجع سابق، ص: ٢١٣، ٢١٤

(٢) دهلك أرخبيل إريتري يضم أكثر من مئة جزيرة أهمها (دهلك كبير) و(نخرة) و(دخل) و(حارات كبير) و(دقنين) و(حرمل) وتقع قبالة مصوع على بعد ٦٠ ميلا منها شرقا عند تقاطع خط الطول ٤٠، ١٠ شرقا مع خط العرض ١٥، ٤٥ شمالا، تضاريسها سهلية مع تلال منخفضة، طقسها حار جاف صيفا معتدل قليل الأمطار صالح للسياحة شتاء، وقد أعدت إحدى الشركات الإيطالية مشروعا سياحيا كلفته ٦٠ مليون دولار إلا أنه لم ينفذ لانعدام الأمن والاستقرار في إريتريا، عدد سكانها مع توابعها من الجزر نحو عشرة آلاف عام ١٨٩٣م، يشتغلون بصيد الأسماك واللآلي، وكلهم مسلمون يتحدثون العربية والتيجرية الخليطة بلهجات الدناكل والبجة والتجريدية وغيرها لاختلاط سكانها بمختلف أجناس المنطقة وتعرضها للغزوات، وتعد من أغنى المناطق الإريتريّة بالآثار التاريخية من فارسية وعربية وتركية، وبرتغالية وغيرها، ويقع عدد من جزرها مثل دقنين وحرمل وسط المجرى الدولي للملاحة في البحر الأحمر وبها منارات لهداية السفن .
انظر : رينية باسيه : النقوش والكتابة في جزيرة دهلك، ترجمة ونشر البعثة الخارجية لجهة التحرير الإريتريّة ١٩٧٧م، ص: ٥، وانظر الخريطة رقم: ٢، ص: ٢٦٣.

تأتي سنويا إلى هذه الأجزاء من الهند، ونظراً لأنني أرغب في القضاء على الروم، وبعد فتح العلاقات مع برستر جون PRESTAR JHON سأدمر مكة. لهذه الأسباب صممت على الذهاب إلى البحر الأحمر أولاً، وتحطيم قوة السلطان في هذه المياه^(١).

وعندما اطمأن البوكيرك على الأحوال في الهند أقلع في فبراير ٩٢١هـ / ١٥١٥م بأسطول يتألف من ٢٦ قطعة بحرية عليها ١٥٠٠ برتغالي و ٧٠٠ هندي، من ساحل الملبار^(٢)، وقبل البدء جرى بحث جدي حول ما إذا كان الأسطول ينبغي أن يمضي نحو عدن أو إلى هرمز، وأخيراً استقر الرأي على التخلي عن فكرة الذهاب إلى عدن مؤقتاً نظراً لأن الأمور في هرمز كانت تبدو أكثر تأزماً، وبنفس القدر كان الملك الذي يحكم الجزيرة وهو سيف الدين مجرد صنيعه للشاه إسماعيل الصفوي الذي كان يخشى من أن يحاول في أي وقت معاودة الحصول على ملكية هرمز مما يترتب عليه طرد البرتغاليين.

وصل الأسطول خارج قريات، ومضى نحو مسقط حيث علم البوكيرك أن هرمز كانت في حالة ثورة، وأن الملك قد وقع أسيراً في قبضة أحد الثوار واسمه الرئيس حامد، وبناء على ذلك أخذ يعد العدة لمهاجمتها، ومهما يكن من أمر فلم تكن استعادتها تحتاج إلى عملية بحرية وعسكرية، فعند الوصول إلى الميناء أطلق البوكيرك المدافع على المدينة دفعة واحدة وأنزل الذعر في نفس الرئيس حامد الذي أطلق سراح الملك في الحال^(٣).

وبعد مفاوضات مع الرئيس سلمت القلعة، وأعيد احتلالها ورفع العلم البرتغالي فوق القصر الملكي، وبعد ذلك وصل سفير من الشاه إسماعيل، وتم الدخول في اتفاقية محددة، ما بين البرتغاليين والفرس^(٤).

ANGELO PESSE : JIDDAH, PORTRAIT OF AN ARABION (١)
CITY. ITALY 1977. P. 79.

(٢) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ٧٨

(٣، ٤) السير أرنولد ، ويليون : مرجع سابق، ص: ٢١٤.

وأهم بنود الاتفاقية :

١ - تساند البحرية البرتغالية القوات الإيرانية في الاستيلاء على البحرين * والقطيف.

٢ - تعهد البرتغاليون بمعاونة الشاه في القضاء على الحركات الانفصالية في إقليم مكران.

٣ - قيام تحالف عسكري بين الطرفين ضد الدولة العثمانية.

٤ - إعادة توران شاه إلى هرمز نائباً عن الملك البرتغالي دون منويل^(١)

وبعبارة أخرى سلم الشاه بتبعية هرمز للبرتغاليين، وستتكرر مساعي حكام فارس في عهد الدولة الصفوية للاستفادة بالقوى الأجنبية سواء ضد العثمانيين، أو لتحقيق أهداف خاصة، وعين البوكيرك ابن أخيه بيرو، ليكون قائداً على القلعة ووجه تعليمات شاملة فيما يتعلق بإكمالها وإصلاحها.

وقد وقعت الجزيرة تحت عبء اقتصادي كبير بسبب قبول الوزير نور الدين لدفع ١٥,٠٠٠ كسارفين^(٢) (XERACIN) للمحتلين بعد أن اتفق شاتوراك - شاه هرمز - مع الوزير رئيس حامد، وتمكنا من إلقاء القبض على الوزير نور الدين وألقوه في غياهب السجن، وهكذا أصبحت هرمز قلعة من أحصن القلاع البرتغالية في آسيا وظلت خاضعة لهم حتى عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢ م.^(٣)

هذا بالإضافة إلى الموانئ الهامة التي تقع على ساحل الهند، وقد تمكن البوكيرك

* انظر جزر البحرين، (ملحق رقم ١١) ص: ٢٧٢

(١) صالح أوزبران : مرجع سابق - ص: ٧٩

(٢) كسارفين : XERACIN - عملة ذهبية، ثم أصبحت فضة متداولة في أوروبا، انظر صالح

أوزبران: مرجع سابق، ص: ٧٩

(٣) صالح أوزبران: نفس المرجع والصفحة.

من نقل جنوده، من تلك السواحل الهندية إلى هرمز^(١)، حيث أنها باتت تشكل أهمية استراتيجية كبيرة.

وهكذا تمكن البوكيرك بهذه الصورة من أن يضرب نطاقاً من حديد على التجارة التي كانت جارية على طول امتداد البحر الأحمر.

وقد أثمرت هذه الجهود البرتغالية التي خطط لها البوكيرك ونفذها عن ازدياد نقل البضائع التجارية من السواحل الهندية إلى لشبونة حيث قدر جود ينهو (GIODINSHO) التوابل التي كانت تصل إلى لشبونة كما يلي^(٢):

السنوات	عدد السفن	قفل	زنجبيل	دارسين	بهار	قرنفل	جوز الهند
١٥١٣	٣	٥٧٠	١٦٨٠	٧٢٠	٣٣٣٠	٢١	٣٣٣٠
١٥١٧	٦	٤٤٠٣٢	٤٢٧٠	٣١٥٠٥	١٨٠٥	٨٦	---
١٥١٩	٨	٣٥٠٠٠	٣٠٠	٨٠٠	٤٠	٦٦٠	١٢٠

وهذه الأرقام بالقنطار وهو يساوي في ذلك الوقت ٥٠ كم^(٣) وبعدها أقفل البوكيرك عائداً إلى الهند على السفينة فلوردا روسا FLORDA ROSA بحالة صحية سيئة، وقد ازداد مرضه يوماً بعد يوم، وبعد وصوله إلى جوامات بعد أن ألفت سفينته مراسيها في الميناء في عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م وكانت آخر رسالة موجهة

(١) انظر تحصيلات هرمز (ملحق رقم ١٦) ص: ٢٧٨

(٢) يتضح من خلال الجدول المبين مدى ارتفاع الكميات التي كانت تصل ميناء لشبونة في السنوات المذكورة، فنجد مثلاً أن القفل قد وصل في سنة ١٥١٣م، إلى ٩٥٧٠ قنطاراً وتضاعف عدة مرات بعد ذلك ووصل في ١٥١٧م إلى ٤٤٠٣٢ قنطاراً، ونفس الشيء يذكر عن القرنفل مثلاً، وهذا التذبذب في الأرقام خلال السنوات المذكورة يدل على أن التجارة بين الهند والمواني الإسلامية كمصر والشام لم تنقطع بل كانت مستمرة ولو أنها لم تكن كما كانت عليه قبل وصول البرتغاليين.

(٣) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ٧٩

منه إلى ملكه كتبها وهو في عرض البحر، ونصها كما يلي:

«هذه الرسالة إلى جلالكم ليست مكتوبة بيدي لأنني إذا كتبت ينتابني الفواق وهو دليل على دنو الموت، إن لي هنا ابناً أمنحه القليل مما أملك، إن الأمور في الهند ستحدث عن نفسها كما ستحدث عني، إن لي المكان الأسمى في الهند بقوة جلالكم والشئ الذي تُرك بحاجة إلى عمل هو إغلاق أبواب المضايق إنني أتوسل إلى جلالكم أن تذكروا كل ماصنعتة للهند وأن تجعلوا ابني عظيماً إكراماً لي^(١).

وهكذا قبل التحقق الكامل لمشروعاته الكبيرة توفي الإداري القدير الذي وضع أول أساس لإمبراطورية أوروبية (برتغالية) تأسست في آسيا، وكان من مظاهر قوة شخصيته، المثابرة والجلد، التي مكنته من التغلب على معارضة خطه في تطوير القوة البرتغالية، والحصول على احتكار التجارة الشرقية، لكن على الرغم من كل هذا تبقى معاملته القاسية الخالية من الرحمة لأعدائه، التي أدت إلى تدمير الإمبراطورية التي أنشأها بعد وفاته سنة ٩٢١ هـ / ١٦ ديسمبر ١٥١٥^(٢).

وتتابع حكم الملوك الوطنيين الذين مالبثت سلطتهم أن أصبحت اسمية فقط، واستمرت خلال الاحتلال البرتغالي للجزيرة^(٣)، ولكنهم كانوا مضطرين لأن يقسموا يمين الولاء للملك البرتغالي، فما كان بمقدرتهم ترك الجزيرة من غير موافقة الحاكم البرتغالي، وفي منتصف القرن السادس عشر الميلادي حاول الأتراك العثمانيون أن يتحدوا السيادة البرتغالية في الخليج وفي المياه الهندية.

لقد ضعفت دولة المماليك في مصر والشام اقتصادياً وعسكرياً نتيجة لوصول البرتغاليين إلى مياه بحر العرب والهند، ودخولها في صراع معهم، مما أثر على قواتها المحاربة، وبعد أن كانت التجارة العالمية - التي يسيطر عليها المماليك - قد انحسرت من منطقة الشرق الأدنى إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وسمح ذلك للدولة العثمانية

(١) السير آرنولد، ويليون: مرجع سابق، ص: ٢١٥

(٢) نفس المرجع، ص: ٢١٥، ٢١٦

(٣) نفس المرجع، ص: ٢١٣

- التي كانت علاقاتها مع مصر قد ساءت - بالزحف بجيوشها على الشام ومصر، وسقوطها في يدها، مما غيّر من خريطة الشرق الأدنى، وقلب موازين القوى الموجودة فيها، وسمح للدولة العثمانية * بإمكانات عمل جديدة في هذه المناطق الحيوية من العالم^(١).

* انظر : موقع الدولة العثمانية والمواقع التي تتطلع إليها (ملحق رقم ٥) ص: ٢٦٦.
(١) جلال يحيى (دكتور) : التاريخ الأوروبي، مرجع سابق، ص: ٤٣١.

الفصل الثاني
دور العثمانيين
في الشرق العربي والأفريقي

الفصل الثاني

دور العثمانيين في الشرق العربي والأفريقي

- * المدن والإمارات العربية في شرق أفريقية**
- * رد الفعل المملوكي عند وصول البرتغاليين إلى الشرق**
- * التوجه العثماني إلى الشرق**
- * الغزو العثماني للشام ومصر**

الفصل الثاني

دور العثمانيين

في الشرق العربي والأفريقي

المدن والإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا :

تمدنا المراجع العربية بمعلومات وافية عن هذه الممالك الإسلامية، عن نشأتها ونهضتها في شرق أفريقيا خلال العصور الوسطى، وهذه الممالك منها ما اتصل بدولة الحبشة والبحر الأحمر، وبحر العرب إلى الجنوب، وفي ذلك الوقت كانت الحبشة هي المنطقة التي يحدها البحر الأحمر من الشرق والنيل غربا والنوبة شمالا وخط الاستواء جنوبا، وتشمل ما يعرف اليوم باسم السودان (الحبشة) وارتيريا والصومال.

وخلال التوسع المنظم للإسلام في أفريقيا الشرقية بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين قامت مدن * متناثرة على ساحل أفريقيا الشرقي ابتداء من مقديشيو شمالا إلى جنوب سفالة في (موزمبيق اليوم)^(١) ونعتها المؤرخون بالطراز الإسلامي، لأنها على جانب البحر كالطراز له^(٢)، ولم يكن يجمع هذه الدويلات علاقات سوى الصلة الروحية والمنافسات بين كل منها والأخرى، ولذلك كانت ضعيفة تخضع لملك الحبشة، إلا في فترات محدودة، وكان الأمراء لا يتولون العرش إلا بأمر من بيت الأحباش وموافقته، وكانت سلطنة «أوفات» أقوى سلطنة قامت في الحبشة أسسها قوم من بني عبد الدار أو من بني هاشم ولد عقيل بن أبي طالب^(٣). ومدينة أوفات هي جبره أو جبرت، من أكبر مدن الحبشة، وتقع غربي زيلع وهي تتحكم في الطريق التجاري الذي يربط الداخل بميناء زيلع على البحر الأحمر، ولعل تأسيس هذه

(١) عبدالرحمن زكي (دكتور): الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، مجموعة محاضرات ألقيت في معهد الدراسات الإسلامية، ص: ٣٩.

(٢، ٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج٥، ص: ٣٢٤.

* انظر مواقع هذه المدن (ملحق رقم ٤) ص: ٢٦٥.

المدن الإسلامية التي شكلت حزاما يحيط بمملكة الحبشة من الجنوب والشرق، وإحاطة الإسلام بها من ناحية السودان، من الشمال والغرب، أدى ذلك إلى عزلة مملكة الحبشة عن العالم الخارجي، ولا سيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء «عدن» قرب مصوع، مما جعل الحبشة تتطلع إلى إيجاد منافذ لها وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين الذين كانوا يسيطرون على التجارة، كما كانت الموانئ في أيديهم، لذلك دارت بينهم صراعات محلية، وكانت سمة من السمات التي ميزت تاريخ المنطقة، وترجع في أصولها إلى أسباب دينية واقتصادية^(١)

وأصبحت هذه الإمارات والدويلات الإسلامية مزيجاً تجمع في أنظمتها بين أشياء أفريقية أصلية وبين أشياء عربية إسلامية، وحتى اللغة السائدة أصبحت لغة أفريقية عربية (اللغة السواحلية) ولكن مما لا شك فيه أن العرب المهاجرين إلى هذه الجهات قد حملوا معهم حضارتهم الزاهرة^(٢)*

وهناك إمارات عربية في شرق أفريقيا تحدث عنها الرحالة العرب والأجانب على السواء وعما رأوه بهذه الإمارات من مظاهر الحضارة والرقى، فيذكر ابن بطوطة أن في مقديشيو (موجاديشو MOGADISHU) نوعاً من صناعة الأقمشة التي تصدر لمصر كما ذكر الإدريسي أنه سمع أن في مالندي وسفالة مناجم للحديد مشغلة، كما أن العرب المهاجرين أدخلوا في هذه الجهات زراعة البرتقال والفواكه الأخرى بالإضافة إلى البلح والبقول والأرز، وكانوا يزرعون هذه الفواكه والخضراوات بجوار مجرى المياه، وزار ابن بطوطة (كلوة) و (ممبسة) و (مقديشيو) عام ١٣٢٣ م، ودهش لما كانت عليه هذه المدن من تنظيم ومن حالة الرخاء السائدة في هذه المناطق، ووصف الشوارع المنظمة التي رآها، ومنازل العرب المبنية هناك من

(١) عبدالرحمن زكي (دكتور) مرجع سابق، ص: ٤٠، ٤١

(٢) جمال زكريا قاسم (دكتور): الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر، من مجموعة أعمال العلاقات العربية الإفريقية دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٧ م، ص: ٢٢.

* انظر الحبشة والدويلات الإسلامية (ملحق رقم ٢) ص: ٢٦٣

الحجارة الملونة ذات النوافذ الخشبية المزينة بالنقوش، المحفورة، كما كانت للمنازل حدائق غناء وشاهد في كل مدينة زارها مسجدا مزينا بنقوش يبدو فيها تأثير الفن الفارسي^(١)

كما شاهد فاسكودا جاما (VASCO DA GAMA) الذي اشتهر برحلته حول أفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي في موزمبيق مثلا الناس يرتدون الملابس الحريرية الموشاة بالذهب، وكانت سيوفهم وخناجرهم مرصعة بالفضة، كما شاهد وهو مار (بمقديشيو) المنازل العالية من عدة طوابق والقصور في وسط المدينة، وفي ماليندي استقبلت بعثة (داجاما) في قصر مفروش بالسجاد ومؤثت بأثاث فاخر، وقدمت له عدة هدايا فاخرة، كما شهد نفس هذه المشاهد (دوار بربروسا DUARTE BARBOSA) وهو رحالة زار كلوة وممبسة وماليندي وبمبا وزنجبار.

رد الفعل المملوكي عند وصول البرتغاليين إلى الشرق :

تعد مصر - في هذا الوقت - هي القوة الرئيسية في المنطقة، وحاملة لواء الجهاد ضد الصليبيين وغيرهم من الغزاة، فكانت محط اهتمام القوى الصليبية للسيطرة عليها وإضعاف قدراتها تمهيدا لتوجيه ضربة قاصمة لباقي القوى الإسلامية في الشرق الأفريقي والسيطرة عليها^(٢).

وضمنا لنجاح السيطرة العسكرية البرتغالية على مصر والشرق الأفريقي، كان لابد من إيجاد حليف لهم في هذه المنطقة على أن تتوافر فيه الشروط اللازمة، وأهمها الولاء الديني، وهذا في علمهم أنه متوافر في الحبشة حيث يوجد الملك الكاهن برسترجون أو القديس يوحنا^(٣).

(١) شوقي الجمل (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٥٣

انظر: إبراهيم علي طرخان (دكتور): الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن القاهرة ١٩٥٩م، ص: ٤٥

(٢) محمد عبدالعال (دكتور) البحر الأحمر: مرجع سابق، ص: ٦٨

(٣) أحمد دراج (دكتور) الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري، القاهرة ١٩٦١م، ص: ٧

والهدف من هذا الاتصال البرتغالي - الحبشي، ضمان نجاح مهمة القضاء على المسلمين عامة بنفس الطريقة التي مارسوها في الأندلس وطردهم المسلمين فيها وتتبعهم إلى الشمال الأفريقي، مما جعل هذه التطورات الدولية، تنعكس سلباً على القوى الإسلامية في الشرق الأفريقي^(١) من أقطار مسيحية أخرى، وتحقيق الهدف المنشود وعلى رأسه تدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز، وتكتيل الجهود للقضاء على المسلمين عامة، بنفس الأسلوب الذي تم استخدامه مع مسلمي الأندلس من قبل^(٢)

إن فشل الحروب الصليبية في الشمال ضد الشام ومصر، واستيلاء المسلمين على شبه الجزيرة الأيبيرية بما فيها الجنوب الغربي لإسبانيا، الذي يشكل جزءاً من البرتغال الحالية، جعل الروح الصليبية قد تجسدت في البرتغاليين إلى هذه الدرجة البغيضة من التعصب، وإذا كانت جهودهم قد أدت بعد زمن طويل إلى تحقيق الدوران حول أفريقيا، ووصلت طلائعهم عام ١٤٩٨ م إلى الهند^(٣)، فقد كان ذلك بمثابة البداية لتحقيق كافة الأهداف الأخرى، فإذا كانت مخاطرهم قد بلغت هذا الحد فلماذا لم يُبادر المسلمون عامة والمصريون خاصة إلى تعبئة الجهود وإعلان الجهاد لحماية المسلمين ومقدساتهم الإسلامية ومقوماتهم الاقتصادية وهذا التساؤل يقود متتبع الأحداث إلى سؤال هام حول أسباب تأخر المواجهة المملوكية للبرتغاليين إلى حين موقعة شول (CHUL) البحرية، على الساحل الغربي للهند عام ١٥٠٨ م، وذلك بعد عشر سنوات من وصول البرتغاليين إلى المياه الهندية لو أن المواجهة تمت من اللحظة الأولى لوصول البرتغاليين وقبل أن يستفحل خطرهم

(١) محمود متولي (دكتور)، رافت الشيخ (دكتور): أفريقيا في العلاقات الدولية، ص: ٤٤، ٤٥، وانظر: حسين مؤنس، (دكتور): الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة ١٩٢٨ م، ص: ٤٠، ٤١.

(٢) محمد عبدالعال أحمد (دكتور): البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني «بامخرمة» كما سجلها في مخطوط قلادة النحر دراسة وتحقيق القاهرة ١٩٨٠ م، ص: ٦٩.

(٣) حسين مؤنس (دكتور): مرجع سابق. ص: ٤٠

ويستكملوا استعداداتهم الحربية لتغير الموقف، ولتمكن العرب والمسلمون من وضع حدٍ لمخاطرهم وتحطيم أحلامهم ولكن بعد أن استفحل خطرهم نرى الحوليات تشير إلى وصولهم إلى المحيط الهندي وجنوب شرق أفريقيا، ويتضح من ذلك فيما أورده المؤرخ المملوكي ابن إياس متناثراً في ثنايا حوادث شهر ربيع الآخر سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م تتعلق باستعراض العسكر وتعيين التجاريد، منها تجريدة واحدة إلى الهند بسبب عبث الفرنج بسواحل الهند»^(١)

وهذه الإشارة لا تفيد تأخر علم الممالك بوصول البرتغاليين إلى شرق أفريقيا والهند لأنه أشار إلى الاستعدادات، مع أن اليمن أقرب من مصر للأحداث، إلا أن النصوص المعاصرة لم تشر إلى الوجود البرتغالي إلا ابتداء من حوادث سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ — ١٥٠٣ م،^(٢) أي بعد نحو خمس سنوات من وصول البرتغاليين، والإشارة خالية من التفصيلات، وهذا يدل على عدم توفر المعلومات بل وانقطاعها أربع سنوات أخرى، وفي حوادث سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ — ١٥٠٧ م ذكر ابن الديبع: «وفي هذه السنة قويت شوكة الإفرنج، وحصل على المسلمين منهم ضرر عظيم في ناحية الهند وهرموز»^(٣)

ومن خلال هذه المصادر نستنتج أن بداية علم السلطات اليمنية بالوجود البرتغالي في المياه الهندية، كان في سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٣ م، وفي ذلك دليل أيضاً على أن تأخر ابن إياس في ذكر أخبار البرتغاليين، كان بسبب عدم توفر المعلومات لديه عنهم إلى حين إشارته المفاجئة لهم.

ويشير النهروالي إلى هذه الأحداث ويعد من المصادر المتأخرة زمنياً عن ذلك (٩٩٠ هـ / ٥٨٢) فالنهروالي قال إنه «وقع أول القرن العاشر من الحوادث

(١) ابن إياس : مصدر سابق، ج٤، ص: ٨٢، ج٥، ص: ٨٢

(٢) عبدالرحمن بن علي الديبع، مصدر سابق، ص: ٢٠٦.

(٣) عبدالرحمن بن علي الديبع، مصدر سابق، ص: ٢١١

الفوداح النوادر دخول البرتغال» اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند»^(١)
وذكر الشبلي اليمني في حوادث ٩٠١ هـ / ١٤٩٥ م قوله، ومنها: «ظهر الإفرنج
البرتغال خذلهم الله تعالى في ديار الهندية»^(٢)

إلا أنه من الواضح أن كلاً من هذين المؤرخين غير معاصر للأحداث، وإذا كانا
أرادا تلافي التأخر في الإشارة إلى البرتغاليين، وحددا السنة الأولى من القرن العاشر
الهجري تاريخاً لوصولهم إلى الهند فإنهما قد وقعا في خطأ تاريخي، لأنهما بهذا
التحديد قد جعلاً وصولهم إلى الهند عام ١٤٩٥ م أو التي تليها، وهذا غير صحيح لأن
الثابت تاريخياً أن ذلك تم عام ١٤٩٨ م.

هذا فيما يتعلق بالمصادر المعاصرة، منها والمتأخرة، أما معرفة أو التعرف على
التاريخ الصحيح لعلم السلطات المملوكية بأمر وصول البرتغال إلى شرق أفريقيا
والمياه الهندية — فينبغي استعراض القوى المؤثرة والمتأثرة بهذه الحوادث بالنسبة
للبنديقية، فمما لاشك فيه أن البنادقة كانوا على علم منذ البداية بالتحركات البرتغالية
وبنواياها ومخططاتها للالتفاف حول أفريقيا والوصول إلى المياه الهندية وقطع
الطريق على التجارة المملوكية، ولكن طول أمد تلك الجهود التي استغرقت حوالي
ثمانين عاماً ١٤١٨ — ١٤٩٨ م جعل البنادقة يطمئنون من عدم فعالية هذه
الجهود، لهذا اكتفى البنادقة بمراقبة الموقف مع العمل على تخويف البرتغاليين من
مغبة هذه المغامرة التي لن تجدي نفعاً، لما لهذا الطريق من مشاق بسبب العواصف
الشديدة التي كانت كافية لتحطيم السفن البرتغالية وعدم إمكانية البرتغال من بناء
سفن أخرى، وهناك عوائق أخرى مثل طول الطريق وإحجام البحارة والجند عن
المشاركة في هذا العمل المؤكدة مخاطره، وفي حالة النجاح في الدوران حول أفريقيا لن
يسلموا من مقاومة أهالي المناطق التي يصلون إليها، وأهم هذه المخاطر، خطر

(١) قطب الدين النهرأولي: البرق اليمني في الفتح العثماني، ١٩٦٧ م، ص: ١٨

(٢) السنن الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم

٢٠٣٣ تاريخ تيمور، ص: ٧

السلطان الملوكي الذي سيواجه القوة البرتغالية وصدها عن الوصول إلى الموانئ الهندية وأشاع البنادقة بأن السلطان اتصل بسلاطين الهند للاستعداد لمواجهة الخطر البرتغالي^(١) لحين الاستعداد لهم، وإرسال أساطيله إلى الهند للقضاء عليهم، وكل هذه المخاوف كان لها الأثر بالنسبة إلى البرتغاليين حيث أدركوا خطورة الموقف لهذا نجدهم تجنبوا — في المراحل الأولى الدخول في صدام مسلح مع سلطات المناطق التي يصلون إليها.

وهناك تعليمات صادرة للملاحين تقضي بحسن المعاملة مع أهالي تلك المناطق وعدم الظهور بالأسلحة، وذلك تحسبا لمودة الأهالي وصداقتهم^(٢) حيث نهج «دي جاما» هذه السياسة ولم يستخدم العنف مع حاكم «كاليكوت» ولم يعارضه وقبل منه شراء أنواع رديئة من التوابل، وبأسعار باهظة حتى ينفي عنه ما أشيع أنه عدو أو جاسوس^(٣)

وبجنب هذا الحذر ابتعد البرتغاليون في هذه المرحلة المبكرة عن الاقتراب من السواحل الغربية أو مداخل البحر الأحمر والخليج، واقتصرت رحلاتهم على المنطقة الواقعة فيما بين جنوبي القرن الأفريقي والساحل الغربي للهند، كما كان حرصهم شديدا على مغادرة السواحل الهندية قبيل وصول سفن المسلمين التجارية إليها، وخلال هذه الفترة البسيطة من تاريخ وصولهم إلى الهند نهجوا أسلوب المسالمة، ولم يتعرضوا لسفن المسلمين بسوء، تفادياً للمخاطر، والذي يؤيد ذلك ما حدث عند عودة "فاسكو دي جاما" من رحلته الأولى من الهند، فقد شاهد وهو في طريق عودته إلى الساحل الأفريقي الشرقي كثيرا من السفن التجارية المحملة بالسلع الثمينة حيث ألح رجال دي جاما عليه كثيرا للتعرض للسفن في عرض البحر، ولكنه

(١) نعيم زكي فهمي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٧٤، ٧٥.

(٢) سونيا هاو : في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، ومراجعة، د. محمود النحاس، القاهرة ١٩٥٧م، ص: ١٠٢، ١٠٣.

(٣) ك. م. بانينكار : مرجع سابق، ص: ٢٧.

لم يسمح بذلك^(١)، وهكذا حرص البرتغاليون في تلك المرحلة على التعامل بالحسنى مع موانئ السواحل الشرقية الأفريقية والساحل الغربي للهند مع تجنب الوصول إلى شواطئ جنوبي الجزيرة العربية والبحر الأحمر والخليج وهذه السياسة ساعدت كثيرا على إخفاء نواياهم الحقيقية من وراء وصولهم إلى شرق أفريقيا والمياه الهندية، وفي هذه الفترة كان اهتمام البرتغاليين منصبا على زيادة عدد السفن الحربية لتثبيت وجودهم البحري للمواجهة الفعلية والخلاص من التواجد البحري للمسلمين والهنود على السواء، فاهتموا بتقوية نفوذهم وتثبيت مركزهم في شرق أفريقيا والهند وإقامة المراكز التجارية والقلاع والحصون، قبل الدخول في عمل مباشر ضد السفن العربية أو القيام بإغلاق البحر الأحمر والخليج، وإحكام الحصار الاقتصادي عليها، والقضاء على أية مقاومة من جانب العرب والمسلمين وعلى رأسهم الدولة المملوكية، كل هذا ومصر كانت تمر منذ نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين)^(٢) بحالة من التفكك والضعف وخاصة بعد عهد قايتباي، فهناك عدة عوامل أدت إلى ضعف دولة المماليك وقدرتها، منها: انتشار الأوبئة والقحط، وما ترتب عليها من غلاء فاحش مع المبالغة في فرض الضرائب^(٣) وكذلك عدم الاستقرار الناتج عن الخلافات المستمرة بين طوائف المماليك^(٤) مما أدى تولى السلطنة خمسة من السلاطين خلال خمس سنوات التي أعقبت وفاة السلطان قايتباي، مما جعل حكم سادسهم وهو السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠٠ - ١٥١٦ م) فترة تنذر بالخطر، وهذا الخطر ليس من الداخل فقط، بل هناك أخطار خارجية منها إغارة الفرنج على السفن والمواني المملوكية في البحر المتوسط، منهم القراصنة الكتلان، بالتعاون مع القبارصة وفرسان الاسبتارية برودس، الذين أخذوا في ممارسة القرصنة على السواحل

DUFFY JAMES : Portugal in Africa, London 1962, p. 75^(١)

(٢) سونيا هاو : مرجع سابق، ص: ٢٠٣

(٣) ابن إياس: مرجع سابق، ج ٢، ص: ٢٨٧

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور) العصر المملوكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥ م، ص:

١٧٥ - ١٧٩.

والثغور المصرية والتربص لسفن التجار المسلمين، مشاركة ومغاربة في عرض البحر، واشتدت هذه الحملة وبلغت من العنف بحيث أدت إلى إذكاء روح الجهاد من جديد بمصر والشام ضد الفرنج وكذلك خطر إحدى القوتين المتصارعتين الصفوية الشيعية في فارس والعثمانية السنية وأن المنتصر من هاتين القوتين سيعمل على فرض سيطرته على الدولة المملوكية، وعلى رأس هذه الأخطار الخطر البرتغالي الذي لم تكن مصر على استعداد لمواجهة حيث أن الممالك رجال حرب في البروليس في البحر، وكل ذلك جعل من فترة حكم السلطان الغوري فترة مليئة بالمشاكل والمخاطر الداخلية والخارجية على حد سواء^(١).

وعند تولية السلطان الغوري السلطة لم يكن على علم بالوجود البرتغالي في شرق أفريقيا والمياه الهندية كذلك فوجيء البنادقة في منتصف عام ١٤٩٩ بنجاح الجهود البرتغالية، وعودة فاسكو دي جاما إلى لشبونة محملاً بالتوابل الهندية.

وعلى الرغم من هذا كله لم يتحفز البنادقة لهذا الحدث ليُبلغوا الممالك بالموقف، لعلمهم بما تكبده البرتغاليون من خسائر جسيمة، فهذا لن يشجعها على الاستمرارية في هذه المغامرة، ولكن كل الحسابات لدى البنادقة كانت خاطئة، وما قامت البرتغال إلا لتستمر في طريقها، وتنفيذ مخططاتها التوسعية وسياسيتها الاقتصادية الاحتكارية، وفي عام ١٥٠١م علم السفير البندقي في البلاط الإسباني بعودة الفاريز كبرال CABRAL بكميات كبيرة من التوابل، وعليه قدم الملك الإسباني النصح للسفير البندقي بالتعامل مع الموانئ البرتغالية بدلا من المملوكية، لأن الممالك كثيرا ما تحكموا في مصير تجار الغرب وأساؤا معاملتهم^(٢)

ومع أن البنادقة كان لديهم علم بكل المخططات البرتغالية، إلا أنهم أمسكوا عن إبلاغ الممالك، أملاً منهم أن البرتغال سوف تفشل في هذا الطريق، لكنها في عام

(١) أحمد دراج: (دكتور): مرجع سابق، ص: ٩

KAMMERER : LA MER ROUGE L'ABYSSINIE ET L'ARABIE (٢)
(LE CAIRE - MCMLL 1952) T. II. P. 139.

١٥٠٢م أوفدت مبعوثها "بنديتو سانوتو" BENEDETTA SANUTO إلى البلاط المملوكي لعرض تطورات الموقف في المياه الشرقية على السلطان الغوري وإمداده بما لديها من معلومات خطيرة، وتقديم النصح للسلطان بأن يحذر سلاطين الهند ليكفوا عن معاملة البرتغاليين ومواجهتهم حتى يتمكنوا من إرسال أسطول بحري لنجدتهم ودرء الخطر عنهم وطلب كذلك تخفيض الأسعار وتحديد الرسوم الجمركية كي تقوى على منافسة البرتغال التي أصبحت لديها القدرة على الحصول على التوابل من منبعها^(١).

التوجه العثماني إلى الشرق :

مما لاشك فيه أن الدولة العثمانية كانت أكبر وأبقى دولة أنشأها قوم يتكلمون اللغة التركية في العهود الإسلامية المختلفة، وهي في نفس الوقت أكبر دولة قامت في قرون التاريخ الإسلامي المتأخرة، وقد كان مركزها الأصلي آسيا الصغرى في أقصى الركن الشمالي الغربي من العالم الإسلامي^(٢).

فحين نجح السلاجقة الأتراك في القضاء على البويهيين والاستيلاء على بغداد عام ١٠٥٥م، اجتذبوا كثيراً من القبائل التركية من بلاد ما وراء النهر نحو العراق وغيره من البلاد الإسلامية في غرب آسيا.

وفي أثناء الحروب التي وقعت بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى قامت مجموعات من قبائل مختلفة بغزوات مستقلة خدمة للدين، وطلباً للاستقرار في أحد أجزاء الدولة البيزنطية، ثم استقلت دولة سلاجقة الروم عن الدولة السلجوقية الكبرى بعد وفاة ملكشاه، إذ تفككت هذه الدولة السلجوقية الكبرى، واستقل بجزء منها أرطغرل والد عثمان مؤسس الدولة العثمانية^(٣).

(١) محمد عبدالعال أحمد (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٧٨

(٢) السيد محمد الدقن (دكتور) : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية، القاهرة ١٩٧٩م، ص: ٧

(٣) إبراهيم أحمد العدوي (دكتور) : مصر والشرق العربي، القاهرة ١٩٨٥م، ص: ١٧٠.

وقد كان من الطبيعي أن تنشأ دولة إسلامية لتملأ الفراغ الذي نتج في الصف الإسلامي نتيجة لضعف الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين اللتين كانتا قد أفلقتا المسيحيين في الماضي، ففي القاهرة كانت دولة المماليك قد أخذت تبدد قواها في ثورات القصر، كما أنها كانت من ناحية أخرى في حالة قلق مستمر نتيجة لعدم خضوع أمراء سوريا الذين أصبحوا مستقلين بالفعل^(١).

وكانت هناك عدة إمارات مفتتة بشكل يمنعها من القيام بعمل جاد، ولكن سرعان ما ظهرت الدولة العثمانية بقوتها الفتية^(٢)

وكان الشرق الإسلامي في أواخر القرن الخامس عشر، ومطلع القرن السادس عشر يتكون من عدة ممالك إسلامية بعضها ضعيف في الهند وجنوب شرقي آسيا، وبعضها قوي في الشرق الأوسط، هي سلطنة العثمانيين السنية في آسيا الصغرى وشرق أوروبا، ومملكة الصفويين الشيعة في فارس، ثم سلطنة المماليك السنية في مصر والشام وجزيرة العرب^(٣).

وعلى الرغم مما كانت تخطط له الدول الأوروبية المعتدية من الالتفاف حول العالم الإسلامي من الشرق، إلا أن القوى الإسلامية لم تتحد للوقوف في وجه أوروبا التي تمكنت من السيطرة عليها، ويعلل أحد الباحثين ذلك بأن العالم الإسلامي في المشرق لم يصل إلى مرحلة التضامن في الملمات، وإنما حدث العكس، وهو التناحر والتنافس مما أدى إلى ضعف الجبهة الإسلامية في الشرق ضد الغزو الأوروبي المتمثل في البرتغال الناشئة والمدعومة من قبل الغرب الأوروبي بجميع فئاته وعلى رأسها الكنيسة. فالهجمة البرتغالية على الشرق، وسد منافذ التجارة أضعف من قوة المماليك، مما ترك للعثمانيين الفرصة لاحتلال كل ما كان يملكه المماليك في مصر والشام والحجاز، مع أنه كان ينبغي على العثمانيين اتخاذ موقف مغاير لتمتكن

(١) جلال يحيى (دكتور): مرجع سابق، ص: ٢٤١

(٢) جلال يحيى (دكتور): مرجع سابق، ص: ٢٤١، ٢٤٣

(٣) انظر مواقع هذه الممالك الإسلامية (ملحق رقم ٥) ص: ٢٦٦

الجبهة الإسلامية مجتمعه من التصدي للخطر الزاحف من الغرب، والابتعاد عن الدخول في صراعات جانبيه التي من شأنها أن مكنت العدو من السيطرة على الأماكن التي وصل إليها في الشرق الأفريقي والخليج العربي والساحل الهندي^(١).

لقد أثار ترك العثمانيين ميدان الفتوحات في أوروبا واتجاههم ناحية الشرق تساؤلات الباحثين عن أسباب ذلك، فمنهم من أرجعه إلى درجة التشبع في الميدان الأوروبي. إلا أن ما يبطل هذا الرأي اتجاه سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) إلى الفتح والتوسع في أوروبا مرة أخرى. ومن الباحثين من عزى اتجاههم ناحية الشرق لرغبتهم في حماية المشرق العربي الإسلامي من الخطر البرتغالي الاستعماري الذي دأب على مدافعة النشاط العربي الإسلامي في البحار الشرقية.

وعلى الرغم مما يلاحظ من أن العثمانيين قد نجحوا في الوصول إلى اليمن وجنوب الجزيرة العربية، واتخذوا منها قواعد للتصدي للبرتغاليين وجعلهم من البحر الأحمر بحيرة إسلامية، فإن هذه الإجراءات من جانب العثمانيين كانت وقائية دفاعية بحتة، هذا بالإضافة إلى أنهم لم يقدموا عليها إلا بعد وصولهم إلى تلك المناطق، وأصبح من الواجب عليهم حمايتها والدفاع عنها، بعد أن أصبحت ممتلكات عثمانية^(٢).

وثمة رأي يقول: إن اتجاه العثمانيين إلى الشرق، يرجع لرغبة السلطان سليم الأول في إخضاع العالم العربي والإسلامي والأماكن المقدسة في دولة واحدة تحت سيادته ليعطي دولته الصبغة الإسلامية السنية في مواجهة المسيحية من جهة، والدولة الصفوية الشيعية من جهة أخرى^(٣).

وفي الحقيقة يمكن القول إن السلطان سليم - وإن كان قد استطاع فعلا تحقيق هذه النتائج، غير أنه لا يمكن القول بأنه كان في مخططة وهو يتجه ناحية الشرق السيطرة على فارس والشام، ولكن كثيرا ما تتمخض الأحداث عن نتائج لم تكن في

(١) مصطفى محمد رمضان (دكتور): مرجع سابق، ج١، ص: ٤٥

(٢) السيد محمد الدقن (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٣

(٣) السيد محمد الدقن (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٣

الحسبان قبل وقوعها. وقد تجمعت أسباب جوهرية أدت في نهايتها إلى ازدياد حدة التوتر بين الدولتين الكبيرتين - العثمانية والصفوية - مثل اضطهاد أهل السنة في بلاد فارس لإرغامهم على التحول إلى المذهب الشيعي، ومناصرة الشاه إسماعيل الصفوي للأمير أحمد (العثماني) ضد أخيه سليم^(١).

أضف إلى ذلك ما قيل عن محاولة إسماعيل الصفوي الاتفاق مع دولة المماليك في مصر لوقف التوسع العثماني المرتقب^(٢).

ولم يلبث السلطان سليم الأول أن أعلن الحرب على الدولة الصفوية، حيث تحرك من مدينة أدرنة في ٢٢ من المحرم ٩٢٠هـ / ١٩ مارس ١٥١٤م صوب العاصمة تبريز، التي سقطت في يده في ٢ رجب ٩٢٠هـ / ٢٣ أغسطس ١٥١٤م بعد هزيمة الصفويين في موقعة تشالديران.

الغزو العثماني للشام ومصر :

تأرجحت العلاقات بين الدولة العثمانية، والدولة المملوكية الجركسية بين الود وحسن الجوار الذي وصل إلى حد تبادل الهدايا والتهاني بالانتصارات العسكرية حيناً، وبين النفور والشقاق والتنازع الذي وصل إلى حد الصدام العسكري حيناً آخر^(٣).

فقد بدأ التوتر في العلاقات بين الدولتين منذ عهد السلطان المملوكي قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٢م) عندما لجأ الأمير جم المطالب بالعرش العثماني إلى مصر، وكان هذا الأمير على خلاف مع أخيه السلطان بايزيد الثاني فاستقبله السلطان المملوكي بحفاوة بالغة وساعده على الخروج لقتال أخيه السلطان بايزيد الثاني، غير أن جم هذا قد هزم وفر هارباً، وقد غضب السلطان بايزيد من موقف السلطان قايتباي هذا،

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة، ص: ٢٣

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي (دكتور) مرجع سابق، ص: ١١٢

(٣) السيد محمد الدقن: مرجع سابق، ص: ٤٥.

فهاجم أمراء آسيا الصغرى الموالين لمصر، ولكنه هزم على يد القائد المصري أوزبك^(١)

كما أن هناك عاملاً آخر ساعد على توتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك ذلك أن أحد ملوك الهند كان قد أرسل مع بعض رجاله هدايا قيمة إلى بايزيد العثماني ومن بينها خنجر نفيس فاعترضهم رجال قايتباي، وسلبوا ما معهم من الهدايا، وأرسلوها إلى سلطانهم فاضطربت العلاقات بين الطرفين بسبب هذه التصرفات^(٢) وفي سنة ١٤٨٧م كادت الحرب تنشب بين الدولتين بسبب الحدود المشتركة بينهما عند أطنة وطرسوس، وبعد مناوشات خفيفة على الحدود توسط باي تونس لإنهاء حالة الحرب بينهما، فاتفقا على حل مرضٍ للطرفين وساعد على ذلك ميل السلطان بايزيد للسلم^(٣).

وقبل أن نستطرد في أحداث الصراع العثماني المملوكي والذي انتهى باستيلاء العثمانيين على دولة المماليك، لنعد إلى الوراء لنرى تطور العلاقات التي سادت بين الدولتين.

يرى أحد الباحثين أن العلاقات الخارجية تميزت بثلاث سمات:

١ — قيام علاقات ود وصداقة بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية، وبخاصة خلال حكم بايزيد الثاني، وقد تفاوضت الدولتان لتقفا أمام خطر الدولة الصفوية في إيران - وزادت زيارات الوفود العثمانية إلى القاهرة من هذا الود، وكانت تجرى لهم الاحتفالات العسكرية وتقام الألعاب بغية إظهار قوة الدولة وعظمتها.

واستمرت هذه العلاقات حتى وفاة بايزيد الثاني عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢م وتولى ابنه السلطان سليم، فسار على سياسة التظاهر بالصداقة والود بينما كان يخفي أطماعه في أملاك الدولة المملوكية ويهييء نفسه لهذا الأمر بعد أن اطلع بشكل جلي

(١) نور الدين حاطوم (دكتور): تاريخ عصر النهضة الأوروبية، الكويت ١٩٦٨م، ص: ٤٣٤، ٤٣٥.

(٢) محمود رزق سليم (دكتور): الأشرف قانصوه الغوري، سلسلة أعلام العرب، العدد ٥٢، ص: ٣٨.

(٣) محمد فريد بك: مرجع سابق، ص: ٧٠.

على أحوال البلاد عن طريق الهاربين من الغوري^(١).

٢ — ظهور خطر الدولة الصفوية، والتي هاجمت قواتها الأراضي الواقعة على الحدود الشمالية لبلاد الشام، إلا أن نواب السلطان الغوري تمكنوا من رد الصفويين.

٣ — تزايد الخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وفقدان الدولة لنفوذها في هذين البحرين^(٢).

ومما يجدر ذكره أن السلام وحسن الجوار قد سادا الدولتين العثمانية والمملوكية بين سنتي ٩٠٦ - ٩٢٠ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٤ م.

وخلال هذه الفترة تعرضت حدود الدولة المملوكية لاعتداءات الصفويين، ففي ربيع الآخر عام ٩١٣ هـ / الموافق أغسطس عام ١٥٠٧ م جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن إسماعيل شاه بن حيدر الصفوي قد تحرك على بلاد السلطان، ووصل أوائل عسكره إلى ملطية، وحكوا عنه أموراً شنيعة في أفعاله، ولكن الحاميات المملوكية تغلبت على الصفويين وأعادوهم منهزمين إلى بلادهم^(٣).

وفي خلال هذه المحاولات بين الصفويين في فارس للاستيلاء على الشام كانت أيضاً هناك محاولات عثمانية لنفس الغرض.

ففي عهد السلطان سليم الأول ابن بايزيد الثاني استولى على السلطنة عام

(١) ولي الغوري السلطنة يوم الاثنين غرة شهر شوال عام ٩٠٦ هـ / الموافق ٢٠ من أبريل عام ١٥٠١ م، وهو كاره لها، ممتنع عنها، ولقب بالملك الأشرف، له من العمر نحو ستين سنة، وكان ملكاً مهاباً جليلاً، مبجلاً منظره يملأ العيون، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وكانت صفته طويل القامة، غليظ الجسد، ذا كرش كبير، أبيض اللون، مستدير الوجه، جهوري الصوت، مستدير اللحية، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال لكان من خيار ملوك الجراكسة على الإطلاق.

(٢) نفس المرجع السابق، ص: ٢١٨

(٣) محمود بن محمد الحلبي: مرجع سابق، ص: ٢٢٠ - ٢٢٣

١٥١٢م تحت ضغط من الانكشارية^(١) الذين التفوا حوله، ثم أوعز إلى من دس السم لآبيه بايزيد. وباعتلاء سليم عرش السلطنة، وقع انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية، إذ توقف زحفها على الغرب الأوروبي، واتجهت نحو المشرق العربي الإسلامي.

وبعد معركة جالديران حدثت مناوشات بين علي دولات (التابع للسلطان الغوري) وبعض فرق الجيش العثماني فأرسل السلطان سليم على أثر ذلك قوات كبيرة احتلت بلاد علي دولات الذي قتل واحتزت رأسه، وعين علي بيك بدلاً منه. فاثارت هذه الحوادث السلطان الغوري وأمراءه، فأعلن النفير العام بالجند وأنه سيخرج إلى حلب بنفسه على رأس الجيش.

وفي أوائل رمضان ٩٢١هـ / ١٥١٥م سافر الغوري إلى الإسكندرية ودمياط ورشيد وفي صحبته معظم رجال الدولة، ففتقد خلال رحلته أوضاع الدفاع عن السواحل المصرية المطلة على البحر المتوسط، وزار أبراجها، وأمر ببناء سور يفصل رشيد عن البحر ونبه المسؤولين عن الثغور والقلاع إلى اليقظة التامة لاحتمال قيام العثمانيين بغزو بحري^(٢).

أصبحت الحرب بين الطرفين أمراً لا مفر منه، خاصة بعد أن استولى سليم على المناطق التي كانت تفصل بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية شرقي الشام وغربي

(١) دأبت المراجع على تسمية الجيش العثماني بالانكشارية، وهي كلمة تركية البنية شرية ومعناها (الجنود الجدد) وكانوا من أطفال المسيحيين، جمعهم العثمانيون جزية من مختلف البلدان المسيحية التي خضعت لحكمهم، ثم أدخلوهم في الإسلام بعد أن تلقوا تعليماً كفيلاً، بنسبائهم المسيحية، كما خصص العثمانيون جزءاً من البنية شرية لوظائف الحكم والإدارة المدنية، أما الجزء الأكبر من البنية شرية فأضحى فيلق المشاة التي اشتهرت بالاستماتة في القتال، ويرجع ذلك إلى صرامة النظام الذي نشأ فيه الفرد منهم، ذلك أن الجندي من البنية شرية تعلم أن ينسى أباه وأمه وإخوته وأقاربه، فالتكنة العسكرية ماواه، والحرب مهنته والقرآن عقيدته، وما عليه إلا أن يمضي في قتال أعداء السلطان بروح ملؤها الحماس المتأجج إبراهيم العدوي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٧١

(٢) محمود رزق سليم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٢٩

الفرات، وأصبحت الدولة العثمانية بحدودها الجديدة في مواجهة دولة المماليك في تلك المنطقة وبات الخطر وشيكاً بعد أن فشلت محاولات الصلح بينهما^(١).

فقد كان الغوري قد بعث رسولا إلى سليم الأول يؤكد له رغبته في الصلح وعدم الحرب، فرفض سليم الحديث في أمر الصلح، وقال للرسول: «قل لأستاذك فليلقنا عند مرج دابق» أي داخل الأراضي الشامية، وهي عبارة تدل - إن صحت - على عزم السلطان سليم على تسوية حساب قديم مع السلطنة المملوكية التي هزمت الجيوش العثمانية داخل الأراضي العثمانية زمن السلطان قايتباي^(٢).

ولما كان الغوري قد خرج على رأس قواته متوجهاً إلى الشام في صيف ١٥١٦ للدفاع عن حلب - أول معاقلة الشمالية أمام العثمانيين - فقد كان وجود هذه القوات المملوكية هناك يدفع العثمانيين إلى الصدام معها ما دامت جبهتهم مع فارس مفتوحة.

وقد كان هناك اختلاف واضح بين قوة كل من المماليك والعثمانيين في نوع العتاد، وفي القوات المسلحة، ومدى تدريبها وقوة تسليحها، وحرية الحركة لكل من الطرفين. فبينما كان السلطان سليم شاباً في مقتبل العمر، كان السلطان الغوري شيخاً طاعناً في السن بلغ الثامنة والسبعين من عمره، وفي الوقت الذي بلغت فيه قوات المماليك الزاحفة شمالاً ما يقرب من خمسة آلاف رجل كانت قوات العثمانيين من الصعب تقدير عددها، وكان المماليك قد فقدوا الكثير من رجالهم في حملاتهم على الحجاز واليمن وفي صراعهم ضد البرتغاليين، وأصبح رجالهم الذاهبون إلى شمال سوريا أقل كفاءة من غيرهم، وذلك في الوقت الذي زاد فيه تدريب العثمانيين على الحرب بمنازلتهم لقوات الشاه إسماعيل الصفوي، علاوة على تميزهم باعتمادهم على سلاح جديد فعال هو المدفعية^(٣).

(١) السيد محمد الدقن (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٤٦.

(٢) إبراهيم أحمد العدوي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٧٧.

(٣) جلال يحيى (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٤٣٧، ٤٣٨.

استعد كل من الطرفين للقتال، وقد أسند الغوري ميمنة الجيش للأمير برسيباي نائب الشام، ومعه جنود الشام بينما أسند ميسرته للأمير خاير بك نائب حلب ومعه جنود حلب، كما رافق الجيش المملوكي الخليفة المتوكل على الله والأمير العثماني قاسم بك أخو سليم الذي فر منه إلى الغوري وقد رأى الغوري أن يبرزه أمام الجند العثماني فلعلهم يلتفون حوله ويخذلون سلطانهم^(١)

وكانت الميمنة التي تحت قيادة الأمير برسيباي ومعه المماليك القرانصة - دون الجلبان - قد قاتلت قتالا شديدا أدى إلى إحراز نصر مؤقت للمماليك على العثمانيين، وكانت هذه بداية موفقة للجيش المصري، ولو استمر يقاتل على قلب رجل واحد، لانتهى المعركة إلى نصر محقق في صالحه، وحاسم في نفس الوقت، ولتغير وجه التاريخ، ولكن الدسياسة أطلت بقرونها، فسرعان ما فشت الشائعات بين الجند، وبلغ المماليك القرانصة بأن السلطان الغوري قال للمماليكة الجلبان:

" لا تقاتلوا، وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم " فيتخلص منهم، وصدق القرانصة هذه الشائعة فثنوا العزم عن القتال^(٢) وتراخوا عن إتمام المعركة مما أتاح الفرصة للعثمانيين لاسترداد معنوياتهم، فاستأنفوا القتال بنشاط جديد وحماسة بالغة، وتمكنوا من إلحاق هزيمة ساحقة بالمماليك^(٣).

وبعد موقعة مرج دابق تمكن السلطان سليم العثماني بكل سهولة من احتلال مدائن حماة وحمص ودمشق، وعين بها ولاية من طرفه^(٤).

أدت هزيمة المماليك في مرج دابق ومقتل السلطان الغوري، إلى وقوع فوضى شاملة عمت بلاد الشام ومصر، حتى اختلف المماليك فيمن يولونه سلطانا على مصر

(١) محمود رزق سليم: مرجع سابق، ص: ١٥٨

(٢) محمد بن محمود الحلبي: مرجع سابق، ص: ٢٤٩، ٢٥٠

(٣) محمد بن محمود الحلبي، مرجع سابق، ص: ٢٤٩، ٢٥٠، ومحمود رزق سليم (دكتور) مرجع سابق، ص: ١٥٨، ٢٥٩.

(٤) نور الدين حاطوم (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٢٥

بعد الغوري، وأخيراً أجمعوا أمرهم على اختيار طومانباي سلطاناً للبلاد وتمت البيعة في رمضان ٩٢٢هـ / أكتوبر ١٥١٦م^(١).

ومن الجدير بالذكر أن السلطان سليم - بعد استيلائه على الشام - لم يكن في نيته الزحف على مصر، بل كان يريد الاكتفاء بذلك والعودة إلى بلاده بعد أن يتوصل إلى صلح مع المماليك تظل مصر بمقتضاه في حوزتهم في ظل السيادة العثمانية، إلا أن خايربك الذي خان الغوري أثناء موقعة مرج دابق، زين لسليم الزحف على مصر والاستيلاء عليها خوفاً على نفسه من المماليك^(٢).

ولم يدخر طومانباي وسعاً في سبيل تجهيز جيشه بأحدث ما يمكنه الحصول عليه من سلاح، فلم يكتف بما لديه من أسلحة وجنود، بل استعان بحاكم رودس الذي أمدّه بألف رام يرمون بالبندقية الرصاص، كما أرسل إليه عدة مراكب فيها بارود، فوصلت إلى ثغر دمياط ومنه إلى القاهرة^(٣).

زحف العثمانيون على مصر، حتى بلغوا الريدانية (من ضواحي القاهرة) ودارت معركة فاصلة بينهم وبين المماليك انتهت بهزيمة المماليك وفرار سلطانهم طومانباي الذي قبض عليه فيما بعد وأعدم على باب زويلة، في ١٢ أبريل سنة ١٥١٧م^(٤).

وبذلك أصبحت مصر ولاية عثمانية، وتم الدعاء للسلطان سليم بالمساجد لتنتهي بذلك دولة المماليك من مسرح الأحداث مع نهاية آخر سلاطينها.

وباستتباب الأمر للعثمانيين في مصر بعد موقعه الريدانية، أصبح عليهم - كذلك - أن يتولوا أمر الأقاليم التي كانت ملحقة بها، وخاصة في شبه الجزيرة العربية، وهي أقاليم الحجاز واليمن، كما كانت سوريا الجنوبية ضرورية من الناحية الاستراتيجية، كخط دفاع أول عن مصر، أمام أية هجمة قد تفاجئنا من المحيط

(١) السيد محمد الدقن (دكتور): السلطان الأشرف، ص: ٣٥

(٢) محمود رزق سليم (دكتور)، مرجع سابق، ص: ١٦٦

(٣) السيد محمد الدقن، السلطان الأشرف، ص: ٥٠

(٤) ابن إياس: مصدر سابق، ج٥، ص: ١٤٥، ١٤٦.

الهندي وخليج عدن، وبخاصة في الوقت الذي ظهر فيه البرتغاليون هناك^(١)

ولم يكن من الصعب أن ينضم أشراف الحجاز إلى الدولة العثمانية التي سيطرت على مقدرات مصر، فبادر الشريف بركات شريف مكة بإعلان ولائه للعثمانيين إبقاء على الروابط الاقتصادية التي تربط أقاليم الحجاز بمصر، فأرسل ابنه إلى القاهرة يحمل إلى السلطان سليم تهنئة بفتح الشام ومصر، ويحمل إليه أيضا مفاتيح الحرمين الشريفين، فأكرمه سليم وأعطاه تفويضا بحكم والده، وقرىء التفويض في مكة المكرمة حيث خطب على منابرهما باسم سليم، وقد ترتب على سيطرة العثمانيين على أقاليم الحجاز ظهورهم في البحر الأحمر، ومحاولتهم استكمال سيطرتهم عليه باستيلائهم على اليمن، وإنقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالي الزاحف عليه من المحيط الهندي، بعد أن أصبح لهم ممتلكات تقع على شاطئه، وأصبح الدفاع عن هذه الممتلكات واجبا مقدسا تفرضه كرامة الدولة العثمانية ومصحتها^(٢).

كما اتجه العثمانيون - بعد سيطرتهم على الحجاز - إلى اليمن مما أدى إلى زعزعة النفوذ العثماني، الأمر الذي دفع حسين بك (حاكم جدّه) لأن يطلب من الوالي العثماني على خيربك (١٥١٧ - ١٥٢٢م) السماح له بالاستيلاء على اليمن، وبالرغم من موافقة خيربك على ذلك، إلا أن الحملة لم يكتب لها النجاح وربما يرجع ذلك إلى وفاة السلطان سليم الأول^(٣) وسوف يؤدي هذا النزاع بين الجراكسة - في نهاية الأمر - إلى محاولة العثمانيين القضاء عليهم عن طريق تجريد إحدى حملاتهم لهذا الغرض^(٤).

وقد أخذ العثمانيون يتوغلون بعد ذلك شرقا وغربا وجنوبا، ويستولون على البلاد العربية الواحدة تلو الأخرى، بحيث لم يمض على موقعه مرج دابق ١٥١٦م

(١) جلال يحيى (دكتور) : التاريخ الأوروبي، مرجع سابق، ص: ٤٤٠

(٢) السيد محمد الدقن (دكتور)، مرجع سابق، ص: ٤٧

(٣) صالح أوزبران - مرجع سابق - ص: ٨٨

(٤) سوف تجرد الدولة العثمانية ضد الجراكسة في اليمن حملة في عام ١٥٢٨م بقيادة سليمان باشا الخادم والي مصر (انظر تفاصيل هذه الحملة في الفصل التالي من الكتاب).

أربعون عاما حتى كان العثمانيون قد استولوا على جميع البلاد العربية، عدا المغرب الأقصى من جهة، وقلب شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى^(١) على أن التواجد العثماني في البحر الأحمر كان يتطلب بلا شك أسطولا قويا، وأن الأمر الذي سيجعل الدولة العثمانية تنشط بحق في البحر الأحمر والمحيط الهندي هو إعداد أسطول قوي وفعال، وأن أول من آمن بهذه الفكرة هو البحار التركي الأصل سليمان الرئيس^(٢).



(١) السيد محمد الدقن (دكتور) مرجع سابق، ص: ٤٧

(٢) صالح أوزبران - مرجع سابق، ص: ٨٨

الفصل الثالث

مراحل الصراع البرتغالي العثماني

الفصل الثالث

مراحل الصراع البرتغالي العثماني

أولاً : موازنة العثمانيين للماليك في مواجهة الفطر البرتغالي

*** المرحلة الأولى : الصراع العثماني البرتغالي**

في البحر الأحمر والمحيط الهندي .

*** المرحلة الثانية : الصراع البرتغالي العثماني في شرق أفريقيا .**

*** المرحلة الثالثة : الصراع البرتغالي العثماني في الخليج العربي .**

الفصل الثالث

مراحل الصراع البرتغالي العثماني

إن العثمانيين، في واقع الأمر، لعبوا دوراً حاسماً وهاماً في كبح جماح المغامرين البرتغاليين الذين دفعتهم دولتهم الناشئة - بتشجيعها لهم وإنفاقها عليهم - إلى العبث بمقدرات السواحل الإسلامية في مناطق شتى، كان من بينها الشرق الأفريقي. ويخطئ البعض إذ يتصور أن الدور العثماني في صد البرتغاليين لم يبدأ إلا بعد أن ورث العثمانيون ممتلكات ودور الممالك في المنطقة.

فقد بدأ هذا الدور مبكراً وقبل اتجاه العثمانيين بفتوحاتهم إلى الشرق، وهذا ما سنتناوله في بداية حديثنا عن مراحل الصراع العثماني البرتغالي.

أولاً: مؤازرة العثمانيين للممالك في مواجهة الخطر البرتغالي :

بعد هزيمة الممالك في موقعة ديو البحرية في عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م شعر السلطان العثماني بعظم المسؤولية الملقاة على حكام المسلمين، فلم يلبث أن استنجد به السلطان الغوري الذي بات يخشى من تطلعات البرتغاليين لملاحقة القوى المملوكية وشل حركتها في المحيط الهندي والبحر الأحمر، بالإضافة إلى تهديدهم للأماكن المقدسة الإسلامية.

حينئذ أمر السلطان العثماني بإرسال ثلاثين ألف سهم وأربعين قنطاراً من البارود، وألفين من البحارة العثمانيين بالإضافة إلى بعض لوازم الحرب الأخرى دون مقابل للمساعدة في الحملة البحرية المتجهة إلى الهند^(١).

(١) فائق بكر الصواف، مصطفى رمضان: مرجع سابق، ص: ٢٧١، ويُذكر في هذا الصدد أن الغوري طلب من بايزيد الثاني السماح له بشراء مواد حربية عثمانية سعياً لتعزيز الجهود، وأوفد الغوري بالفعل مبعوثه يونس العادلي إلى استانبول لشراء أخشاب وذخائر حربية، ومع ذلك فقد رفض السلطان العثماني أن يتقاضى ثمناً لهذه المساعدات الحربية، وقام برد المال الذي كان يحمله يونس العادلي وجعل المساعدات هدية إلى السلطان الغوري، انظر: عبدالعزيز الشناوي (دكتور) المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق أفريقيا، ص: ٦٥٧، ٦٥٨.

وقد جعل السلطان العثماني على رأس القوة العثمانية قائده سليمان الرئيس^(١)

وأُسند الممالك إلى سليمان مهمة نيابة حسين الكردي، وعلى الرغم من اختلافهما في الطباع والسلوكيات - مما جعل كلاً منهما يشك في الآخر، والاتفاق بينهما قصير الأمد - فقد غادرا جدة بعد اشتراكهما في تحصينها واتجها نحو اليمن، حيث استعصت عليهما عدن مما كان سبباً في نشوب الخلاف بينهما^(٢).

وبعد دخول العثمانيين مصر واستيلائهم على الشام وما تلاهما من خضوع الحجاز لهم، أمر السلطان سليم بتولية سليمان الرئيس القيادة في جدة بعد أن تم التخلص من حسين الكردي بإغراقه في بحر جدة.

وقد خلا الجو للعثمانيين في المنطقة بعد قضائهم على الممالك، وأصبح عليهم وحدهم مواجهة الخطر البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر. وجرّد العثمانيون عدة حملات ضد البرتغاليين، وسنحاول تتبع هذه الحملات ومراحل الصراع فيها ونتائجها فيما يلي:

المرحلة الأولى : الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي

الفترة الأولى : وتشمل فترة سليمان الرئيس ومن تلاه من القادة العثمانيين في خط المواجهة ضد البرتغاليين حتى تولى سليمان الخادم القيادة العثمانية.

(١) سليمان الرئيس عبدملكوكي من أصل تركي وينعته انجلوبيش بأنه كان قرصانا في البحر المتوسط مع أنه كان قائداً لجيش يمد عادية القراصنة البرتغاليين.

انظر : BESCE ANGELO : OP. CIT, P. 84.

وكان أول عمل يقوم به سليمان الرئيس بعد توليته أن قام بإعداد تقرير مفصل أرسله إلى السلطان العثماني سليمان القانوني تضمن هذا التقرير مقدار حجم وأهداف القوات العثمانية والبرتغالية الموجودة في المحيط الهادي ، دعا سليمان في تقريره إلى: «هجمات أكثر ضد البرتغاليين وتكثيف الجهود العثمانية».

انظر : عبدالوهاب القيس : موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية - مجلة الخليج العربي - عدد ١ - العسراق ١٩٨٠م. ص: ٤٧.

(٢) KAMIMERER - OP. CIT. T. 111, P. 66, BESCE ANGELO - CIT. P. 84

فقد فكر نائب الحاكم البرتغالي في مدينة جوا الهندية أن يحد من سلطة القوى العثمانية التي أخذت في التوسع وباتت تهدد المصالح البرتغالية في المنطقة.

فأرسل حملة لمواجهة الأتراك كان على رأسها (لوبواسواريز) عام ١٥١٧م^(١)، إلا أن هذه الحملة لم تتمكن من تحقيق أهدافها، فقد كانت حملة لوبواسواريز تتكون من أربعين سفينة وألفين من الجنود البرتغاليين، وقصد سواريز جدة إلا أن التحصينات التي سبق أن أقامها المماليك قد ساعدت على صد البرتغاليين.

وقد تحمل القائد العثماني سليمان الرومي (سليمان الرئيس) مسئولية صد الهجوم البرتغالي، وتمكن من إجبارهم على مغادرة ميناء جدة إلى كمران، فتبعهم القائد العثماني بفريق من رجاله وطاردهم حتى نجح في الاستيلاء على إحدى السفن البرتغالية وأسر بحارتها، ثم أرسلهم إلى استانبول وبعدها عادت بقية الحملة البرتغالية إلى هرمز^(٢).

وفي ذلك يصف المؤرخ اليمني بامخرمة هذا الحدث بقوله ثم ساروا إلى جدة، فأرسوا ببندرهما، وبها الأمير سليمان في جمع من الترك وغيرهم، وكانوا قد علموا بمسيرهم إلى جدة، فاستعدوا لقتالهم، فلم ينزل أحد من الفرنج إلى ساحل جدة، بل قصدهم الأمير سليمان إلى البندر في غراب أو غرابين، فلما قرب منهم رماهم بالمدافع، فأتلف عليهم من مراكبهم مركبين أو ثلاثة، ولكن بامخرمة يعود مرة ثانية ليضيف إلى روايته بقوله: «واستمر الفرنج راجعين عن بندر جدة إلى اليمن فتبعهم الأمير سليمان أو بعض أصحابه في غراب إلى قرب اللحية فاستنفذوا من الفرنج غرابا به جماعة من الفرنج فعزموا بهم إلى جدة»^(٣).

ثم عاد حاكم جوا الكرة مرة ثانية، وأرسل حملة أخرى بقيادة لوبو سكويرا

(١) انظر خط سير حملة لوبو سواريس (ملحق رقم ١٠) ص: ٢٧١

(٢) عبدالعزيز الشناوي (دكتور): المراحل الأولى للوجود البرتغالي، ص: ٦٦٥.

(٣) في مخطوط قلادة البحر نقلًا عن د/ محمد عبدالعال أحمد: البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، ص: ٢٠١، ٢٠٢.

لوبيز دي سيكيرا (DIEGO LOPER DE SEGEUIRA) سنة ١٥٢٠م لكسر شوكة الأتراك، إلا أنها باءت بالفشل هي الأخرى ولم تحقق أيًا من نتائجها سوى أن هذا القائد قد حاول إنزال بعض قواته بالمواني الإريترية، فلم يتمكن من ذلك، ومَرَّ في طريقه بجزيرة دهلك وأحرقها كما هدد ميناء عدن^(١).

ومثل الحملات السابقة كانت حملة لوبيز دمينيز إلى مصوع، ولكنها عادت هي الأخرى دون مهاجمة الشواطئ العربية^(٢).

ويغلب على الاعتقاد أن هذه الحملات كانت ضمن أهدافها عملية جس النبض بعد ظهور العثمانيين في البحر الأحمر واستيلائهم على بعض موانيه وسواحه.

وبعد ذلك نفاجأ بحملات أخرى تظهر بين الحين والآخر، ففي عام ١٥٢٤م حاول القائد البرتغالي سيلفيرا الاستيلاء على مدينة دليما (DELIMA) في أثيوبيا دون جدوى، وفي رحلة العودة عقد اتفاقية مع حاكم عدن، حيث كانت مدينة عدن ماتزال مستقلة ولم تدخل في طاعة العثمانيين، ومع ذلك فإن فاسكو دي جاما الثاني (VASCO DE GAMA SECOND) لم يحترم هذه الاتفاقية.

واستمر الحال على ما هو عليه دون صدام بين العثمانيين والبرتغاليين، وكان كلاً منهما في حالة ترقب وجس للنبض وانتظار للفرصة، وإعداد العدة ليكيل لغريمه حتى سنة ١٥٢٥م.

أما سليمان الرئيس فقد تركناه يتولى مكان حسين الكردي، ويتم تكليفه للقيام بحملة بعد إعدادها لمواجهة الأسطول البرتغالي، ولم يكن سليمان الرئيس هذا على كفاءة ولا استعداد يؤهله لهذا الأمر الجلل، فقد كان يطمع في الانفصال عن الدولة العثمانية والحصول على مكاسب شخصية له^(٣).

(١) يذكر د/ عبدالعزيز الشناوي، ص: ٦٦٥، أن هذه الحملة كان لها هدفان: احتلال ميناء وثغر جدة، وإنزال أول بعثة دبلوماسية إلى بلاد الحبشة، وتعرضت هذه الحملة لريح شديدة قرب جدة فعدت من حيث أتت.

(٢) KAMMERER: OP. CIT. P. 66 - 67.

(٣) BESCE ANGELO : OP, CIT. P. 87.

ففكر الرئيس في الاستيلاء على جنوب اليمن، وبالتحديد على شاطئ تهامة ومكث في مدينة زبيدة مدة معلنا انفصاله عن الدولة العثمانية، إلا أنه قتل في سنة ١٥٢٦ م وخلفه ولاية أترك.

ومع ذلك فلا يغفل له بعض الجهود في محاربة البرتغاليين، والكيل لهم على الشاطئ اليمني مما يدل على أنه قد كان للرئيس هو الآخر دور لا ينكر في صد عادية البرتغاليين.

فقد حدث في وقت الفتنة التي وقعت بين أحمد باشا وإبراهيم باشا وتنافسهما على ولاية مصر، وانتهت هذه الفتنة بمقتل أحمد باشا، كان الرئيس حينذاك مقيما بمصر فلما شاهد هذه الفتنة خشى على نفسه أن يصيبه مكروه منها، فخرج إلى جدة متخفيا، وهناك قابل حسين الرومي نائب جدة وحسب إليه الرئيس العودة مرة ثانية إلى اليمن.

وبالفعل أعد الرومي والرئيس عدتهما من جنود وعتاد وتوجها إلى اليمن. في ذلك الوقت كان البرتغاليون يقومون بعمليات تهديد للسواحل اليمنية، واختطاف بعض أهلها.

وعلى أثر ذلك شمر الرئيس عن ساعد الجد، وواجه الحملات البرتغالية ودفع ضررهم عن المنطقة، ويؤخذ من كلام النهروالي أنه قد حدثت بينه وبين البرتغاليين مواقع أسر فيها جماعة من البرتغاليين وقتل منهم جماعة أخرى، وفي ذلك يقول النهروالي: (كان الفرنج تكمن في جبل كمران ويتخطفون المسلمين من السواحل وينهبون ما يقدرون على نهبه، فلما وصل الرئيس دفع ضررهم، وقتل منهم جماعة وأسروا جماعة، ونظف ساحل اليمن منهم^(١))

والغريب في الأمر أن الولاة الذين خلفوا الرئيس قد نهجوا نفس منهجه في محاولة

(١) قطب الدين محمد بن أحمد: مصدر سابق، ص: ٢٨، ٣٩، والجدير بالذكر أن النهروالي كان معاصراً للأحداث، فقد ولد سنة ٩١٧هـ، وتوفي في سنة ٩٩٠هـ.

الانفصال عن الدولة العثمانية خاصة الإسكندر، الذي بقي من ١٥٢٧م إلى ١٥٣٦م.

ولم يكن هم هؤلاء الولاة إلا حماية أنفسهم دون أية محاولة لمحاربة البرتغاليين. ويغلب على الظن أن هؤلاء الولاة وأمثالهم قد تأثروا بمناطق اليمن التي كانت تقوم بها الثورات الانفصالية المختلفة في مناطق شتى من ربوعه، على الكيانات اليمنية الكبيرة، بالإضافة إلى أن محاولة هؤلاء الولاة الانفصال أضعف الوجود التركي في مواجهة الخطر البرتغالي مما ترك له الفرصة للتوسع وتثبيت أقدامه في السواحل. وانشغل هؤلاء الولاة بمناهضة الإمارات الساحلية في اليمن، إلا أن عدن الطاهرية حافظت على استقلالها ولم تترك الفرصة لولاة الأتراك في تهامة وغيرها وبقيت بعيداً عن السيطرة العثمانية والبرتغالية في ذلك الوقت.^(١)

ومع ذلك فقد كانت هناك جهود أخرى حيث يُذكر أنه بعد مقتل الرئيس تجمعت وتكاتفت القوى العثمانية واليمنية وتمكنوا من تكوين أسطول بلغ ستاً وعشرين قطعة بحرية، واتجهت هذه السفن - بدعوة من حاكم كوجرات (بهادور) - إلى الساحل الهندي محققاً نجاحاً طيباً في الذود عن ميناء ديو البحري ضد البرتغاليين الذين مُنعوا من الاستيلاء على هذا الميناء فترة من الوقت، على الرغم من أن إعداد هذا الأسطول العثماني في ذلك الوقت وقيامه بحملة إلى المياه الهندية يُعد مغامرة بحرية ولكنها كانت ناجحة^(٢).

وفصل لنا أحد الباحثين هذه المهمة حيث يذكر^(٣): أن هذه الحملة كانت قد أُعد لها في ميناء السويس وخرجت منه في عشرين سفينة وأربعة آلاف جندي، وعلى رأسها الأمير خير الدين حمزة قائداً عاماً للحملة لتحقيق هدفين، الأول: الاستيلاء على عدن وقد فشلت في تحقيقه، والثاني: النهوض إلى سواحل الهند لمداغة الوجود

(١) KAMMERER : OP CIT P. 67

(٢) صالح أوزبران (دكتور) : الدولة العثمانية وطريق الهند - مرجع سابق، ص: ٩٤، ٩٥.

(٣) عبدالعزيز الشناوي (دكتور) : المراحل الأولى للوجود البرتغالي، ص: ٦٧٤، ٦٧٥.

البرتغالي فيها، وفي هذا الصدد لم تبحر الحملة كلها، بل أبحر بعض القادة العثمانيين على متن عدد من السفن العثمانية وشحنوها بالمدافع والبنادق، ومن هؤلاء القادة مصطفى بيرم والخواجه صفر وغيرهما حتى وصلوا إلى سلطنة كجرات ودخلوا في خدمة سلطانها، واشتركوا معه بسفنهم ومدافعهم وبحارتهم في صد هجوم برتغالي على ميناء ديو، وقد عين مصطفى بيرم حاكماً لميناء ديو، بينما عين الخواجه صفر حاكماً لميناء سورات.

الفترة الثانية : وتشتمل على حملة سليمان باشا الخادم وإعدادها في السويس، والاستيلاء على عدن، ثم محاصرة البرتغاليين في الهند :

حملة سليمان باشا^(١) الأولى إلى الهند (٩٥٤ هـ / ١٥٣٨ م).

باتت أحوال المسلمين في الهند لا تُطاق من جراء عبث البرتغاليين بالسواحل الهندية دون ردع مؤثر لهم، مما دفع الممالك الإسلامية إلى طلب النجدة من السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان على علم - فيما يبدو - بما كان يدور في السواحل الهندية وغيرها، فتجمعت عنده رغبة أكيدة لمناصرة تلك الممالك الإسلامية الواقعة على السواحل الهندية تأكيداً للدور العثماني في الذود عن بيضة الإسلام ضد الأخطار الاستعمارية البرتغالية وغيرها.

أضف إلى ذلك العامل الاقتصادي - وهو على درجة كبية من الأهمية - فقد كان السلطان يعي تماماً مدى الخسارة التي لحقت بخزينته من جراء الوجود البرتغالي في

(١) كان سليمان الخادم أو سليمان الأرنؤوطي - كما يُنعت - من خواص ممالك السلطان

سليم ثم انتقل إلى خدمة سيده السلطان سليمان القانوني - وكان الخادم رجلاً ضخماً الجثة، فتاكاً سفاكاً للدماء، تجاوز الثمانين من عمره.

وقد ولي وزارة مصر نحو عشرة أعوام، ثم عزل عنها وأعيد إليها ثانية، وتعين أمير دار العسكر الموجهة إلى الهند، وهو أول من أرسل الخزينة وهي عبارة عن كل ما تبقى من إيرادات مصر بعد ما ينفق عليها في مصالحها ومصالح أهلها.

انظر : أحمد شلبي الحنفي المصري : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات، ص: ١٠٦، وانظر : أحمد بن فضل : هدية الزمن - مرجع سابق، ص: ٩٦، ومحمد عبداللطيف، البحراوي: مرجع سابق، ص: ١٥٢.

المياه الإسلامية، وما كان يمكن أن يعود على سلطنته من رخاء وازدهار للتجارة وعوائدها لو لم يكن هناك سيطرة برتغالية.

ونظرة واحدة إلى الأرقام تبين لنا صدق هذا الحديث حيث يؤكد لنا أحد الباحثين^(١) أن واردات الدولة العثمانية وإيرادات الخزينة في سنة ٩٣٣ - ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧ - ١٥٢٨ وصلت إلى ما يقارب ١٦٨ ر ٣١٤٧ ر ٤٤٧ آقجة^(٢)

وكانت إيرادات الخزينة هذه عن محصولات مصر وحدها ٩٩٤ ر ٥٣٨ ر ١١٦ آقجة منها ٩٦٤ ر ٧٣١ ر ١٧ آقجة كانت تأتي من إيرادات أرصفة جدة ومصر، وكانت أغلب هذه الإيرادات الأخيرة من البضائع القادمة من المحيط الهندي، على الرغم من المقاطعة التي فرضها البرتغاليون على هذه البضائع.

ومهما كان الأمر فإن هذه الإيرادات التي كانت تأتي من البضائع القادمة من المحيط الهندي إلى داخل الإمبراطورية العثمانية، كانت بقدر يشجع استانبول على زيادتها والعمل على حمايتها ضد الاحتكار البرتغالي^(٣).

وإدراكا من السلطان سليمان القانوني لفداحة الأضرار الناجمة عن إبعاد العرب عن أسواق التجارة في الشرق نجد أنه قد فتح باب المفاوضات مع الزاموريين بقاليقوط، ومع ملك كمبای المسلم، وهما العاهلان الهنديان اللذان تأثرت مصالحهما بسبب عدوان البرتغاليين، وتمكن من عقد اتفاق يقضي بالعمل المشترك ضد العدو البرتغالي.

وأصدر السلطان العثماني مرسوماً إلى سليمان باشا الخادم (والي مصر) هذا نصه :

" عليك يا بيك البكوات (بكربك) بمصر سليمان باشا أن تقوم فور تسلمك

(١) صالح أوزبران : الدولة العثمانية، وطريق الهند، ص: ٩٥

(٢) اسم العملة المتداولة في الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

(٣) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ٩٥

وأمرنا هذه بتجهيز حقيقتك وحاجاتك وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي على تلك الأجزاء فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبيل المؤدية إلى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رأيتهن من البحر" (١)

ومنذ أن تسلم سليمان الخادم هذا الفرمان العثماني أخذ يعد نفسه ويعد العدة، وقام العمل في السويس على قدم وساق لبناء أسطول قوي، حيث أمكن بناء ثمانين سفينة (٢).

وقد زودت السفن بكل ما يلزمها لرحلة طويلة، واستحضرت المواد الخام اللازمة لهذا الأسطول من استانبول - مباشرة - على متن عشرين سفينة حتى الإسكندرية ومنها نقلت إلى السويس. (٣)

أما قوام هذه الحملة فقد كانت تتكون من عشرين ألفاً من عرب مصر والشام بينهم سبعة آلاف من جنود الانكشارية، كما ضمت الحملة عدداً من البنادقة كانوا قد وقعوا أسرى في يد العثمانيين في الحرب التي دارت بينهم وبين البنادقة واستغلوا هؤلاء الأسرى في إعداد الأسطول وفي الملاحة كذلك.

(١) ك. م. باننيكار : مرجع سابق، ص: ٥٠

(٢) يذكر النهروالي في كتابه البرق اليماني في الفتح العثماني - ص: ٧١ : «أن عدد السفن التي تم بناؤها كان سبعين غراباً - وهي السفن الكبيرة - وثلاثية برشه - وهي السفن الصغيرة - وأعتقد أن هذا العدد هو الأقرب إلى الصواب لسببين هامين : أولهما أن النهروالي كان معاصراً للأحداث، وهذا يرجح روايته على غيره، والسبب الثاني: هو أن السفن الكبيرة تحتاج إلى بعض السفن الصغيرة السريعة التي تساعد على عمليات الاستطلاع ونقل بعض المؤن من السواحل القريبة.

(٣) يذكر صالح أوزبران في كتابه الدولة العثمانية وطريق الهند، ص: ٩٦: (أن المواد نقلت إلى السويس بواسطة الجمال عن طريق القوافل البرية، وأعتقد أن الرايين على صواب قريباً قد جاءت المواد بالبحر حتى الإسكندرية ثم تم نقلها عبر الطريق البري إلى السويس بقوافل الجمال.

ويبدو للباحث أن البرتغاليين لم يكونوا في غفلة عما يُحاك ضدهم من قبل العثمانيين، فقد كانت التقارير تصلهم باستمرار عن كل ما يدور في السويس بصورة أو بأخرى، خاصة إذا نظرنا إلى الرسائل والإيضاحات التي كانت ترسل من البندقية إلى حشبون فإنها تعبر لنا وتبين مدى استعدادات العثمانيين ووضعهم العسكري.

من ذلك ما أرسله السفير البرتغالي بيرو (PERO) في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٥٣١م إلى الملك البرتغالي دي جوو (D. JOAO) الثالث يقول فيها: "الآن هنا وفي البندقية وإن الأخبار التي وصلتنا من شخص كان يعيش في السويس الواقعة على البحر الأحمر، وكان هذا الشخص قد قدم من الإسكندرية وهذه الأخبار مفادها أن ما يقرب من ٨٠ سفينة قد أنشئت و ٣٠٠ شخص في عمل متواصل لتهيئة هذه السفن، وقام السلطان بإرسال بعض الأشرعة والحبال الغليظة والمدافع وبعض المهمات والأعتدة واللوازم الضرورية لهذه السفن، ونقل جميع هذه المواد إلى السويس بواسطة الجمال عن طريق القوافل البرية، وإضافة إلى ذلك فقد أرسل السلطان ثلاثة آلاف من الجنود الانكشارية العثمانية والعمال، وكذلك سد حاجاتها من المؤونة والطعام في جميع المناطق التي تصل إليها هذه السفن، وسيقوم والي مصر بقيادة هذه السفن يدعى الخادم سليمان باشا، ويلقبونه بقائد ذي روح شيطانية، وخلف مكانه في الولاية دفترداره من بعده، ويقال أيضا إنه رافق إبراهيم باشا إلى القاهرة ورجوعه إلى إستانبول وفي حالة الانتهاء من العمل وإعداد هذا الأسطول سيبحر حالاً للبحث عن الأسطول الملكي البرتغالي، أينما يكون، ولكن هذا الأسطول سوف لن يتهياً لغاية شهر نيسان (إبريل) من سنة ١٥٣٢م^(١).

انتهى سليمان الخادم من إعداد سفنه ورجاله، وكان أمامه هدفان: فتح بلاد اليمن لاتخاذها كرأس جسر ينفذ منه إلى هدفه الثاني والأهم وهو الهند لضرب المراكز البرتغالية فيها.

(١) صالح اوزبران : الدولة العثمانية وطريق الهند - ص: ٩٦

وسلم سليمان باشا البلاد المصرية إلى داود باشا ثم سافر بجنوده وسفنه إلى بندر جدة الذي وصله بعد سبعة أيام من إقلاعه دون أن ينزل إلى المدينة ولم يسمح كذلك لأحد من جنوده بالنزول ثم قصد عدن وكان عليها يومئذ عامر بن داود آخر ملوك بني طاهر والذي لم يكن له سوى قلعة عدن.

ويذكر العبدلي^(١) : أن سليمان حط بحملته في كمران، وأن الذي دعاه إلى عدن هو عامر بن داود حاكمها وذلك طمعا في نصرته على الإمام شرف الدين، وأن سليمان الخادم بسط له الجواب، وأوهمه المساعدة، ولم نجد هذه الرواية عند غيره من المعاصرين أمثال النهروالي.

وعلى كل توجه سليمان باشا الخادم إلى عدن، وقابل حاكمها عامر بن داود بحفاوة بالغة وقدم ما أراد من مؤن وإمدادات لحاجة جنوده وسفنه، إلا أن سليمان قد غدر بعامر وأمر بشنقه مع مجموعة من أتباعه^(٢) وأمر جنوده باحتلال المدينة والسيطرة عليها، كما أناب عنه فيها بهرام بك سنجقا كبيرا للمدينة ونائبا عن الأمير فيها، كما رتب لديه جنودا ومجموعة من المدافع والمكاحل^(٣)، ووضع فيها نوبتجية^(٤) ودوداريا في القلعة^(٥)، وضبط البلاد بذلك^(٦).

وقد سارع الخادم بالكتابة إلى سيده السلطان سليمان مدعيا بأنه لم يقتل عامرا إلا لعزمه على بيع عدن للبرتغاليين.

وثمة كلمة في ختام حديثنا عن دخول سليمان الخادم إلى عدن ففي الوقت الذي ذكر فيه النهروالي - وهو معاصر للأحداث كما أسلفنا -^(٧) أن العسكر حينما شرعوا

(١) أحمد بن فضل : هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ص: ٩٦، ٩٧.

(٢) العبدلي: هدية الزمن: مصدر سابق، ص: ٩٦، ٩٧.

(٣) المكاحل: البوتقة التي يوضع فيها البارود.

(٤) حراسا

(٥) أي قائداً عليها، وهو عبارة عن ضابط كبير له مسئولية قيادة جيش الحامية، انظر: صالح

أوزبران: الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي، ص: ٦٤

(٦) قطب الدين النهروالي: البرق اليماني - مصدر سابق، ص: ٨٠، ٨١.

(٧) نفس المصدر السابق ص: ٨١

في نهب البلد - عدن - منعهم الأمير سليمان وأمر مناديا بمنعهم عن نهب الناس، ونادى بالأمان! نجد أحد الكتاب يذكر^(١) أن سليمان "قد سمح لجنوده بارتكاب عمليات السلب والنهب وسائر أنواع الموبقات". ويبدو أن الأمر التبس على هذا الكاتب من ذكر النهروالي لنهب الجنود بيت عامر بن داود فجعل ذلك النهب مستمرا حتى في البلد نفسها.

هذا ما كان بشأن حملة سليمان باشا واستعداداته، ثم دخول اليمن، وقبيل توجهه إلى الهند يجدر بالباحث أن يتعرض بإلمامة سريعة عن الأحوال في الممالك الهندية وحالتهم مع البرتغاليين.

وكان البرتغاليون قد اشتد أزهرهم بعد تأخر العثمانيين، وتمكنوا من الاستيلاء على ميناء ديو بالقوة، كما قتلوا بها دور حاكم كجرات بسبب اتصاله بالسلطان العثماني سليمان القانوني مما حرك الحمية الإسلامية في نفس السلطان، وأراد أن يعجل بحملته إلى الهند، وتعرض كجرات هذه لهجوم مغولي عليها سنة ١٥٣٥م أضعف من قواها مما اضطرها إلى طلب مساعدة البرتغاليين، وكان ثمن هذا الطلب باهظا، وأتاح للبرتغاليين إحكام قبضتهم على المنطقة.

وبالنسبة لكاليكوت فقد وهنت هي الأخرى من جراء الغزو البرتغالي لها، مما اضطر السامري حاكمها إلى مصالحة البرتغاليين والسماح ببناء حصن لها في مدينته كما سمح لهم بالتجارة فيها.^(٢)

كان هذا هو حال الممالك الهندية عشية تقدم سليمان الخادم إليها، ولاشك في أن ضعفها كان له أثره البالغ في فشل حملة سليمان عند وصولها إلى الهند كما حدث فيما بعد.

وما أن انطلقت الحملة العثمانية - بعد استيلائها على عدن - إلى الهند ومرت في

(١) عبدالعزيز الشناوي (دكتور): المراحل الأولى للوجود البرتغالي، مرجع سابق، ص: ٦٧٧
(٢) السيد مصطفى سالم (دكتور): الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص: ١٤٠، ١٤١

طريقها بالملكلا والشحر ورأس الفرطق، وعند الشحر داهم سليمان باشا أسطولا برتغاليا مكونا من ست سفن، حتى تمكن من أسرهم جميعا، كما أسر معها مائة وستين برتغاليا ضمهم لأسطوله، وربما استخدمهم في الأعمال المعاونة والفنية حتى احتجز رأسهم - فيما بعد حين عودته كما سنرى - وأرسل رؤوسهم إلى استانبول^(١).

ووصلت الحملة إلى مشارف ديو في ٤ سبتمبر ١٥٣٨م، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى الميناء ذاته في البداية نتيجة معاكسة الرياح لها، فأنزلت إلى الغرب من الميناء أربع مائة جندي وبعض المدافع الكبار لمعاونة الخواجة صفر حاكم ديو - في حصار القلعة البرتغالية من جهة البر^(٢) وبعد قليل تقدم الأسطول العثماني إلى الميناء ذاته، وبدأ في حصار القلعة البرتغالية من ناحية البحر في ٥ أكتوبر ١٥٣٨م^(٣).

وقد كانت قلعة ديو البرتغالية حصينة جدا، حيث تحيط بهامياه البحر من ثلاثة جوانب، ويحدها من ناحية البر سور عظيم، وأشجار عالية بينها استحكامات قوية. وقد حاصرها سليمان الخادم بمدفعه الثقيلة التي كان يزن الواحد من رميتها قنطارا.

وقد ظل الحال على ذلك قرابة العشرين يوما^(٤) سقطت بعدها القلعة الخارجية، وباتت القلعة الداخلية على وشك السقوط هي الأخرى، وتآزم الموقف تماما بالنسبة للحامية البرتغالية^(٥).

(١) محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٥٤

(٢) الخواجة صفر : هو مملوك سليمان الرئيس، وقد سبق الحديث عن كليهما.

(٣) السيد مصطفى سالم (دكتور): مرجع سابق، ص: ١٤٦، ١٤٧

(٤) يذكر KAMMERER أن مدة الحصار قد امتدت إلى خمسة أسابيع دافع فيها

البرتغاليون بعناد شديد حفاظاً على وجودهم، انظر: K. OP. CIT. P. 77

(٥) محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور) : فتح العثمانيين عدن، مرجع سابق، ص: ١٥

غير أن الحال قد تبدل، وسرعان ما جمع سليمان عساكره وأخذ طريقه إلى العودة. وفي ذلك يصف أحد المعاصرين ما حدث بقوله: "وقد وصل في تلك السنة سليمان باشا وزير السلطان سليمان شاه المذكور في استعداد عظيم تام في نحو مائة من الغربان والبرشان وغيرهما إلى بندر عدن وقتل سلطانها الشيخ عامر بن داود رحمه الله مع بعض كبرائها وجعلها في قبضته ثم وصل إلى جزرات فشرع في حرب ديو وكسر أكثر القلعة بالمدافع العظام السلطانية ثم ألقى الله هيبة الإفرنج في قلب سليمان باشه فرجع من غير فتح إلى مصر ثم إلى الروم" (١).

وهنا يحار الباحث في تفسير ما حدث أمام تلك الروايات المتضاربة والمتناقضة ورغم أنه من السهل الجمع بين بعض المتقارب المتفق مع الأحداث والملابسات إلا أن ذلك يبقى في مجال الترجيح ولا يمكن أن يصل إلى درجة التأكيد.

وتفصيل ذلك أنه : كان على العثمانيين الذين يمتلكون قدرة بشرية هائلة ومدافع قوية من نوع (بابالوشكا) وقوة هجومية مؤثرة، وأساطيل تتكون من مدمرات وعليها أطقم مدربة من مهندسين وميكانيكيين إضافة إلى أدلاء من أسرى البرتغاليين وعمال مهرة وغيرهم وجنود أشداء (٢)، هذا بالإضافة إلى ما قيل عن تولى بعض أسرى البنادق الملاحه وصيانة السفن، كل هذا كان من شأنه أن يشجع العثمانيين على الدخول في معركة حاسمة مع البرتغاليين بل والتغلب عليهم واستئصالهم من المنطقة بأسرها، لولا أن هناك أسباباً قوية قد منعت من تحقيق هذه الأهداف.

ويغلب على الاعتقاد أن من أهم تلك الأسباب : سلوك العثمانيين تجاه إخوانهم في اليمن وفي الهند.

ففي اليمن كان لغدر سليمان الخادم بأمير عدن (عامر بن داود) آثار وخيمة على الوجود العثماني في كل مكان وفي كل قطر إسلامي، فقد قتله وشنقه دون جريرة كبيرة يستحق عليها هذا المصير على الرغم من استقباله للحملة العثمانية بحفاوة

(١) الفقيه الشيخ زين الدين بن عبدالعزيز: مرجع سابق، ص: ٦١

(٢) صالح أوزبران: الدولة العثمانية وطريق الهند، ص: ١٠٠

وتقديم المؤن لها وقد طيرت الأخبار إلى الهند وبات الجميع يتوجس خيفة من صنع سليمان الخادم، ذلك الرجل الذي قيل عنه تقدمه في السن وحبه لسفك الدماء.

أما في الهند فقد خاف كل أمير على نفسه ومملكته من أن يلقي نفس المصير، وقد أكد ذلك أنه بعد وصول العثمانيين إلى المياه الهندية ظهر استعلاؤهم على سكان السواحل وغلظتهم في التعامل معهم.

ويبدو لنا من خلال روايات المؤرخين أن ممالك الهند الإسلامية كانت تُعد العدة لمؤازرة الأسطول العثماني ضد البرتغاليين من ذلك أن الخواجة صفر (خداوندخان) كان حاكماً على ديو وهو أحد ممالك الرئيس عندما بلغه قرب وصول سليمان الخادم أخذ يجمع القوات الهندية ويكمل استعداداتها لملاقاة حملة الخادم والتعاون معها، لدحر البرتغاليين وإجلائهم، ولكن بعد وصول العثمانيين نصحه واحد من خواص سليمان الخادم وقال له "إن لك عليّ حقاً واجباً وإن لي نصيحة أبذلها لك فاخترى معه وقال له: إن سليمان باشا فتاك قتال، لا يبقى على أحد، وأنه قتل عند بروزه من مصر جانم الحمزاوي، وولده سيف، وقتل الأمير داود بن عمر، وعند وصوله عدن برز إلى ملاقة عامر بن داود صاحبها وفتح له الأبواب وظهر السرور بقدومه فصلبه بمجرد الوصول إليه، وأنا أنصحك فلا تقابله".^(١)

عندئذ خاف خداوند خان على نفسه وعرف أنه متى وقع في يديه لم يسلم منه، ولكنه استمر يخدمه من بعد، ويرسل إليه الهدايا والتحف، وكان كلما طلبه سليمان تعلل بعذر عنده.

أما حاكم كجرات السلطان محمود فقد أرسل إلى سليمان باشا خائناً كبيراً من خوانينه يقال له (شق دار)^(٢) ليقوم على خدمة سليمان باشا.

إلا أن سليمان باشا قد احتقره وازدراه عندما رآه ولم يحسن كذلك مقابلته.

(١) النهروالي: البرق اليماني، مصدر سابق، ص: ٨٢، ٨٣.
(٢) يعني حافظ شق المملكة، وكان له نحو خمسين ألف فارس.

وأمام هذا التشاحن وإضممار السوء - أرسل السلطان محمود سلطان كجرات - إلى خداوندخان - أمير ديوو - يأمره بالاحتتيال على سليمان لحثه على ترك المياه الهندية.

وبالفعل تم تدبير الحيلة حيث زوروا كتابا بخط البرتغاليين وأشاعوا بأنه من أوردنور حاكم جوا البرتغالي إلى قائد الحامية البرتغالية في قلعة ديو وجاء في هذا الكتاب:

"إننا قد جمعنا الجموع وتهيأنا في ثلاثمائة غراب وخمسين برشة، وقد فرغنا من مصالحننا ونحن متوجهون إلى دفع عسكر الروم فإذا ظهرنا من البحر فابرزوا أنتم أيضا من قلعة ديو للقتال".

وأشاع خداوند أنه أمسك برسول البرتغاليين وأخذ كتابه، ويضيف النهروالي إلى قوله: "وكان سليمان باشا خوارا خوفا لم يُعهد منه شجاعة ولا إقدام" وهذه هي الطامة الكبرى فقد ركب سليمان من ذلك خوف عظيم، وأخذت عساكره تنفض عنه يخدمون عند خوانين الهند^(١).

ويعمل أحد الباحثين هروب سليمان الخادم إلى سببين: ^(٢)

أحدهما: وصول أسطول برتغالي لشد أزر البرتغاليين، وبذلك ينفي الباحث مسألة الحيلة التي دبرها كل من السلطان محمود وخداوند خان، إلا أنه سواء أكانت حيلة أم حضر الأسطول بالفعل فإنه لا ينفي عن سليمان الجبن وقلة الكفاءة في الإدارة العثمانية.

وثانيهما: خشية كل من السلطان محمود وخداوند خان من انتصار سليمان باشا وخشية تمثيله بهما وغدره كما فعل في عدن.

وهذا السبب في اعتقادي سبب واه لا يؤثر مطلقا في مجريات الأحداث، لو قويت

(١) خوانين جمع خان وهم حكام الهند

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور) فتح العثمانيين عدن، ص: ١٥٥

عزيمة الخادم على الجهاد.

ويشير باحث آخر^(١) إلى أن السبب في نقص كفاءة الأسطول العثماني عن مثيله البرتغالي لا يرجع إلى القدرة البشرية أو عدد السفن وإنما هو راجع إلى أن سفن البرتغاليين كانت عالية عن سفن العثمانيين، ولا أعتقد أن قتال السفن بالمدفعية يسمح لها بالتقارب حتى تظهر العالي فيها من المنخفض.

ومن الآراء الغربية ما ذكره أحد الباحثين الأجانب^(٢) من أنه عند اقتراب سليمان الخادم من الهند أجبر مارتن دي سوازا - الحاكم البرتغالي - الزاموري حاكم كاليكوت على الاشتباك معه في معركة ومن تشتت سفنه، ويجعل الباحث ذلك سببا في عودة سليمان الخادم بعد سماعه بهذه الأنباء، ولا يعقل بأن قائدا في سئل أسطول سليمان يثنيه عن عزمه انكسار أحد قادة الهند المسلمين.

وهناك آراء أخرى نضرب الصفح عنها حيث لا يتسع مجال البحث لها، إلا أنه يجدر بالباحث أن يذكر خلاصة أسباب فشل حملة سليمان الخادم على الهند وهي في اعتقادي كما يلي :

- ١ - ضعف شخصية وإرادة قائد الحملة - سليمان باشا - بالإضافة إلى تقدمه في السن وجهله بالمعارك البحرية.
- ٢ - نفور حكام الهند من العثمانيين نتيجة استعلائهم وإسرافهم في عمليات السلب والنهب.
- ٣ - تفكك وضعف الجبهة الهندية بعد العبث البرتغالي بها.
- ٤ - الحرب النفسية التي شنّها البرتغاليون بمهارة لإشاعة روح الذعر في نفوس الهنود من تصرفات العثمانيين إن هم مالوا إليهم.
- ٥ - سمعة سليمان الخادم وبعد صيته في القتل وسفك الدماء بلا جريرة.

(١) صالح أوزيران : الدولة العثمانية وطريق الهند، ص: ١٠٠

(٢) كز مز بانيكار: مرجع سابق، ص: ٥١، وسار على منواله واتفق معه: محمد عدنان مراد في كتابه: صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، ص: ١٤٠

ولم يلبث القائد العثماني أن أقلع من ميناء ديو وأخذ طريقه إلى اليمن حتى وصل إلى بندر المخا بجميع سفنه بما فيها من المدافع وآلات الحرب^(١).

وثمة كلمة كان لابد من التعرض لها في ختام الحديث عن حملة سليمان باشا الخادم إلى الهند، حيث يذكر صاحب أنباء الزمن^(٢) أن سليمان الخادم عاد من الهند وكف عنها بسبب ما بذله أهلها من الأموال والهدايا العظيمة.

كما جاء في كتاب فذلكة تاريخ عثمان^(٣) إشارة إلى ما كان في حوزته عند عودته من الهند من صناديق ملأى بالذهب^(٤).

وهذا القول لا يطمئن إليه الباحث، فالمتعارف عليه في ذلك الوقت ما كان عليه التعامل بين القادة من لباس للخلع وإهداء للهدايا النفيسة الثمينة، وقد اشتهرت الهند حينئذ بكثرة اقتنائها للذهب، ربما لغنى أهلها من التجارة أو لغير ذلك، كما أنه من الممكن أن يكون الهنود قد بذلوا هذه الأموال وتلك الهدايا رهبة وخوفاً من بطش سليمان حسبما سمعوا عنه، كسفاك للدماء أو احتراماً وتقديراً للدولة الإسلامية التي يعمل تحت رايتها.

أما قضية عودة سليمان باشا الخادم وتركه للساحل الهندي بسبب ما بذله أهلها من أموال الخ، فهذا أمر مستبعد، خاصة وأن سليمان الخادم كان والياً على أغنى ولايات الدولة العثمانية، وهي مصر، ولمدة عشر سنوات ويتبعه كذلك ولاية الحجاز وغيرها، ولا يعتقد بأن قائداً كهذا في مثل حال سليمان يسيل لعبه لذلك ولم

(١) لم يترك سليمان باشا وراءه سوى ست مكاحل كباراً تعجل عن تحميلها إلى البرشات فتركها في مظفر آباد بالإضافة إلى من تخلف من رجاله سرا وعمل في خدمة الخوانين الهنديين طمعا في زيادة الاعطيات، انظر: النهروالي: البرق اليماني، ص: ٨٥.

(٢) يحيى بن الحسين بن القاسم ت ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م نقلا عن: محمد عبداللطيف البحراري، فتح العثمانيين عدن، ص: ١٥٦.

(٣) هو عبارة عن كتاب في بيان إجمال أحوال الدولة العثمانية من ابتداء ظهورها حتى عبدالعزيز خان سنة ١٢٧٧هـ، وهو باللغة التركية.

(٤) نقلا عن د/ محمد عبداللطيف البحراري: فتح العثمانيين عدن، ص: ١٥٦.

يكن مخططا قط - فيما يظن - الحصول على غنائم وهدايا بل كانت مهمته هي فتح الطريق مرة ثانية إلى التجارة الهندية ومدافعة النفوذ الاستعماري البرتغالي في مياه الساحل الهندي.

وعلى كل فقد أبحرت الحملة في ٥ من شهر نوفمبر ١٥٣٨م عائدة إلى اليمن فوصلت بندر المخا، ومن ميناء شحر مضت تستكمل احتلال بقية السواحل اليمنية، لإكمال الخطة العثمانية في هذه السواحل من جهة، ومن جهة أخرى لتعويض فشل سليمان في الهند.^(١)

وقد استعمل سليمان في ذلك الطريقة الوحيدة التي يجيدها وهي الخداع ثم الغدر وسفك الدماء، فعمل على الاتصال بالناخوذة أحمد (والي زبيد) وأرسل إليه خلعة ومرسوماً به الأمان، وأن يكون نائبه على اليمن، ثم دعاه للحضور.

وعلى الرغم من رفض الناخوذة على الشخص بنفسه إلى سليمان خوفاً من غدره، إلا أنه حمل الهدايا ورحل إلى سليمان في خمسمائة من عبيده، وعندما وصل الناخوذة إلى سليمان أمر الأخير بقتله في الحال واحتال على قتل عبيده، حتى قتلهم جميعاً.

وكان عند سليمان - حينئذ - مصطفى بك حاكم غزة، فكتب له مرسوماً بتوليته ولاية زبيد وضواحيها.^(٢)

وبعد إقرار سليمان أمر اليمن عاد بما معه إلى بندر جرة، بعد أن فشل في الاستيلاء على تعز التي كانت حينئذ تحت حكم الإمام شرف الدين.^(٣)

وأرسل الخادم رؤوس بعض القتلى البرتغاليين الذين كانوا في ديو، وفي ميناء شحر اليمني إلى إستانبول ليشيع فيها أنه تمكن من إبادة البرتغاليين في الهند.

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٤٩

(٢) النهروالي، البرق اليمني، ص: ٨٥، ٨٦.

(٣) د / السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص: ١٥٠

وأصدر أوامره إلى بقية الحملة بمواصلة الإبحار إلى السويس بعد استيلائهم على جيزان، وتخلف هو في جدة التي ذهب منها إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، حيث قضى في الحجاز أكثر من شهرين، ثم سافر برا إلى مصر وأمضى بها نحو خمسة أشهر متعمدا تأخير عودته إلى إستانبول، كي يمهّد الجو الصالح له في العاصمة مرسلًا الهدايا النفيسة إلى كبار رجال الدولة في العاصمة العثمانية، ليغطي على فشله في الهند.

إلا أن السلطان سليمان القانوني ما لبث أن وقف على حقيقة أمر حملته فغضب عليه غضبا شديدا، مما اضطر سليمان الخادم إلى الانسحاب من الحياة العامة منطويا على نفسه حتى طواه الموت سنة ٦٩٠ هـ (١٨ ديسمبر ١٥٥٣ م)^(١)

ومما هو جدير بالإضافة أنه إزاء هذا الاهتمام العثماني بعدن التي باتت تحرس المنطقة اليمنية، ويُعدّ خط دفاع متقدم عن ميناء جدة والحرمين الشريفين فقد رفعت الدولة العثمانية ولاية اليمن إلى درجة ميري ميران، وذلك بوضع ١٥٠٠ من الجنود في زبيد للسيطرة على مداخل البحر الأحمر ومراقبتها^(٢).

الصدّام البرتغالي العثماني في عدن سنة ١٥٤٨ م :

بعد مقتل أويس باشا^(٣) (والي اليمن) كان على القائد العثماني أزدمر^(٤) أن يتولى مكانه في قيادة الجيوش العثمانية حتى يرسل العثمانيون من يخلفه على اليمن، وشغل أزدمر جيوشه باستكمال فتح بلاد اليمن، وتوسيع ممتلكات العثمانيين بها.

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (دكتور): المراحل الأولى للوجود البرتغالي، ص: ٦٧٨، ٦٧٩.

(٢) صالح أوزبران: الدولة العثمانية وطرق التجارة - مرجع سابق، ص: ١٠١

(٣) كان من ممالك السلطان سليم الأول المشهورين بالشجاعة

(٤) كان أزدمر أحد الممالك الذين أبقى عليهم السلطان سليم الأول بعد دخوله مصر، وأدخله في خدمة

العثمانيين وأخذ يرتقي المناصب العسكرية والإدارية بفضل قوة شخصيته، وسمعته الطيبة حتى أصبح أحد الأمراء المرموقين باليمن، ويُعد أزدمر من أهم الشخصيات العثمانية التي ظهرت في اليمن إذ نجح في فتح أغلب أقاليمه وتوحيدها تحت الحكم العثماني، انظر: السيد سالم (دكتور) مرجع سابق، ص: ١٧٠، ١٧١.

وبينما كان ازدمر يعمل على تثبيت أقدام العثمانيين في المنطقة الشمالية من اليمن كانت هناك قوة عثمانية مرسلة من السويس للحفاظ على عدن ومن جهة البحر، كما بادر فرهاد باشا (الوالي الجديد) فور وصوله إلى زبيد بإرسال قوة برية كبيرة لمحاصرة عدن من جهة البر ولمعاونة الأسطول العثماني المحاصر من البحر، وأمام ضغط الجيشين البحري والبري سقطت عدن في أيديهم في ٢٤ فبراير ١٥٤٨ م.

وكان ضياع عدن قبل ذلك من يد العثمانيين بمساعدة علي بن سليمان رئيس قبائل الطوالق بوادي أبين من عدن مستغلا انشغال ازدمر في الجهة الشمالية.

وزاد من خطورة ثورة الطوالق هذه اتصال زعيمهم بالبرتغاليين بعد ثورته طالبا منهم النجدة لتقوية جانبه أمام العثمانيين.

وقد رحب البرتغاليون - من جانبهم - بهذه الفرصة، ولكن خاب أملهم وأمل الطوالق، إذ تأخر الأسطول البرتغالي في الوصول إلى عدن، فلم يصل إليها إلا بعد سقوطها في يد العثمانيين.

وكانت ثلاث سفن برتغالية قد تقدمت إلى ميناء عدن في ٩ صفر ٩٥٥ هـ (٢٠ مارس ١٥٤٨ م) لاستطلاع الأمر قبل وصول الأسطول البرتغالي إليها - الذي كان يتكون من ثلاثين سفينة - ففوجئت بوجود السفن العثمانية بميناء عدن.

وقد تمكنت السفن العثمانية من أسر سفينتين من هذه السفن الثلاث، بينما تمكنت الثالثة من الفرار لتحذر باقي الأسطول البرتغالي الذي لاذ بالفرار إلى ميناء قشن باليمن.^(١)

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١٧٨ وما بعدها، وانظر محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور) : فتح العثمانيين عدن من: ١٥٨، ويذكر د/ البحراوي أن الأسطول البرتغالي كان بقيادة دي بايودي نورنها (D. PAYODE NORNHA). وقشن مدينة ساحلية يتكون خليجها من الرأسين البارزين إلى البحر رأس شروين ورأس الدرجة تفصلهما حوالي ثلاثة عشر ميلا وفي أثناء الرياح الموسمية الشرقية يحدث انتفاخ أرضي وتهب الأمواج على الشاطئء باندفاع قوي مما يجعل الرسو خطرا إلا في الجزء الغربي من رأس الدرجة حيث توجد محطة أمنة. انظر : حمزة علي لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، بيروت، ص: ٥٢

المرحلة الثانية : الصراع البرتغالي العثماني في شرق أفريقية

يستطيع الباحث في أغوار الصراع البرتغالي الإسلامي، أن يقرر حقيقة مؤداها أن تحالف البرتغاليين مع الأحباش في الشرق الأفريقي، كان نتيجة للنفوذ البرتغالي في السواحل الإسلامية، سواء أكانت في البحر أم في الخليج العربي أم المحيط الهندي، فاجتمع البرتغال والأحباش على هدف واحد، مما دعا القوى الإسلامية المتناثرة على مسرح الجهات الثلاث (البحر، والخليج، والمحيط) إلى الاستنجاد بأقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت وهي الدولة العثمانية، مما كان سببا في المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين في شرق أفريقيا.

ومما هو جدير بالتوضيح، الإشارة إلى حالة القوى الإسلامية في شرق أفريقية التي دعتها إلى الاستنجاد بالعثمانيين من جهة، وحالة الحبشة التي دعتها إلى الاستنجاد بالبرتغاليين ومخالفتهم من جهة أخرى.

القوى الحبشية والإسلامية في شرق أفريقيا

كان من أثر التبادل التجاري بين اليمن والحبشة أن ازدهرت العلاقات التجارية بين كل من اليمن والحجاز من طرف، والحبشة من طرف آخر، ونزح جماعة من قريش من سلالة عقيل بن أبي طالب إلى أراضي زيلع*^(١) وأنشأوا في جبرت أول مملكة إسلامية في الحبشة^(٢)، واستمر نفوذهم في نمو، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر الميلادي، كان قد تم لهم إنشاء سبع ممالك زاهرة سميت بممالك الطراز

(١) كانت بلاد الزيلع تمتد من ميناء مصوع شمالاً إلى إقليم الأوجادين جنوباً، ومن رأس غوردافووي شرقاً، حتى أطراف الهضبة الغربية غرباً.

* انظر موقع بلاد الزيلع (ملحق رقم ٢) ص: ٢٦٣

(٢) كانت تعتبر من أكبر مدن منطقة القرن الأفريقي، وهي على مسافة عشرين مرحلة غرب مدينة الزيلع، لمزيد من التفاصيل انظر: المقرئزي: الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام - مصدر سابق - ص: ٧، وما بعدها، وانظر: رجب محمد عبدالحليم: العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة، ص: ١٧.

الإسلامي على سواحل الحبشة وهي:

أوفات، دوارو، أرابيني، هديا، شرخا، بالي، دارة.^(١)

إلا أنه لم يكن يجمع بين هذه الدويلات سوى الصلة الروحية، وما عدا ذلك فقد كان التنافس والشقاق بينها مستمرا، مما أضعف هذه الممالك جميعها في مواجهة جيرانها من الأحباش، الذين كان لهم السيطرة على تلك الممالك حيث لا يتم تنصيب الأمراء بها إلا بموافقة الأحباش.

هذا على الرغم من أن الممالك الإسلامية هذه، كانت تشكّل حزامًا يحيط بمملكة الحبشة من الجنوب والشرق، بينما يحيط بها السودان المسلم من الشمال والغرب، مما جعل الأحباش يتطلعون إلى إيجاد منافذ لهم، وتوسيع ملكهم على حساب جيرانها المسلمين الذين كانوا يسيطرون على التجارة، إضافة إلى سيطرتهم على المواني مما كان سببا مباشرا للصراعات المحلية، التي دارت واشتد أوارها بين الفريقين.^(٢)

وقد تعددت الاعتداءات الحبشية على الممالك الإسلامية في عهد الإمبراطور الحبشي إسحق الأول وخلفائه، خاصة الإمبراطور زره يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م) الذي كان ينكل بالمسلمين ويشن عليهم حربا دامية.

إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً بعد موت زره يعقوب، حيث أخذ المسلمون في تجميع قواهم مرة أخرى، وبدلاً من الدفاع أخذوا يهاجمون بلاد الحبشة ذاتها.

فقد أخذت مملكة عدل الإسلامية دور القيادة عندما ظهر فيها قائد قوي هو الإمام محفوظ، وكان هدفه استعادة المدن التي استولى عليها الأحباش على حدودهم الشرقية.

وقد هاجمها محفوظ وأنزل بها هزائم كبيرة متتالية في عهد ملكي الحبشة

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص: ٣٢٥

(٢) عبدالرحمن زكي (دكتور): الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص: ٤٠، ٤١

إسكندر (١٤٧٨ - ١٤٩٤م)، وناعود (١٤٩٤ - ١٥٠٨م)، وقتل ناعود وهو يدافع عن مدينة إيفات في مواجهة الإمام محفوظ.^(١)

وإزاء هذا البعث الإسلامي في منطقة الشرق الأفريقي في المنعطف الحبشي، اتجهت أنظار الملكة هيلينا الوصية على حفيدها الطفل لبنا دنقل (٩١٤ - ٩٤٧هـ / ١٥٠٨ - ١٥٤٠م) إلى إرسال الوفادات إلى البابوية وملوك أوروبا، وخاصة ملك البرتغال كي تنسق معهم أسلوب القضاء على المسلمين، واحتلال أورشليم وضرب الأماكن المقدسة في بلاد الحجاز.^(٢)

وبينما كانت هناك محاولات تبذل في الحبشة للاتصال بالخارج، كانت هناك محاولات أخرى خارجية للاتصال بها، بدأت عند سماع هنري الملاح في سبته بها لإقامة علاقة دينية وتجارية وللقضاء على المسلمين.^(٣)

كان أول وصول للبرتغاليين إلى ساحل أفريقية الشرقي في أبريل ١٤٩٨م حيث قوبلوا بترحاب سرعان ما انقلب إلى عداوة من مسلمي مدن السواحل، وسرعان ما سقطت الإمارات العربية الإسلامية في ساحل شرق أفريقيا، تحت وطأة الغزو البرتغالي، وأسس دالميدا مركزين برتغاليين في سفالة، وعمل البرتغاليون على اتخاذ مواني شرق أفريقيا كمحطات تمد سفنهم الذاهبة إلى الهند بالعتاد، وقد كان هذا كله على حساب الإمارات العربية على الساحل، بل تضرر كذلك - كما سبق الحديث - الممالك في مصر ومن تلاهم من العثمانيين.^(٤)

ولذلك اتفقت المصالح العثمانية مع الإمارات العربية على الشاطئ الأفريقي في مدافعة الخطر البرتغالي عن بلادهم.

كان هذا هو موقف كل من الجبهتين المتصارعتين في الشرق الأفريقي - إلا أن

(١) نوال حمزة الصيري: النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، رسالة ماجستير، ص: ١٧٢، ١٧٣.

(٢) رجب محمد عبدالحليم (دكتور): مرجع سابق، ص: ١٦٥.

(٣) الحيمي الحسن بن أحمد: سيرة الحبشة تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٧٢م، ص: ٢٢.

(٤) د/ جمال زكريا قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص: ٩٢، وما بعدها.

الغريب في القضية هو ما ذكره الحيمي الحسن، وهو أحد الذين عاشوا بعد الأحداث بقليل، واطلع على وثائق هامة في بعثته التي سافر بخصوصها إلى الحبشة عندما ادعى أمبراطورها رغبته في اعتناق الإسلام، فيقول هذا المؤلف^(١):

«وأرسلت (هيلينا) في سنة ١٥١٥ بعثة إلى مصر - حليفة الحبشة التقليدية - وذات الصلات الوثيقة منذ أقدم الأزمنة وصاحبة الأسطول الكبير، الذي كان يجوب البحر الأحمر وينشر النفوذ المصري في المحيط الهندي، ويرغم حكام دهلوك ومصوع على الخضوع له، وتقديم موانئهم كقواعد له، بينما كانوا خاضعين - من الوجهة النظرية - للحبشة.

ويضيف المؤلف: إن حالة مصر لم تكن حينئذ تسمح بتلبية رغبة الأحباش، فعولت هيلينا على أن تطلب المعونة من البرتغال.

وفي الحقيقة، فإن الباحث يحار بين حقيقتين الأولى: أن المؤلف يعد مصدراً هاماً، نظراً لما قيل عن علمه ومهمته إلى الحبشة التي استمرت ثلاث سنوات، وقربه من زمن الأحداث. والحقيقة الثانية: أننا لم نعثر على مؤيد لهذه الرواية بين الكتاب الأول والمعاصرين، هذا بالإضافة إلى غرابة الموضوع من طلب الأحباش المسيحيين مناصرة مصر المسلمة لهم على إمارات مسلمة مثلها.

وعلى كل فقد أرسلت هيلينا رسولاً لها هو ماثيو (MATHEU) إلى البوكيرك - نائب الملك البرتغالي في الهند - عرض عليه رغبة الملكة في تزويدها بأسطول قوي، يعمل ضد القوى الإسلامية في البحر الأحمر، ثم سافر ماثيو إلى البرتغال، حيث وجد الملك عمانويل الفرصة لتحقيق أهدافه في المنطقة.

وأرسل الملك عمانويل بعثته التي تحمل الرد إلى الملكة، إلا أنها لم تصل إلا في سنة ١٥٢٠ م.

في تلك الأثناء أصبح لبندانقل إمبراطورا على الحبشة، وانتصر على الأمير محفوز،

(١) الحيمي الحسن بن أحمد: مصدر سابق، ص: ٢٥

حينئذ تنصل من مسئولية البعثة الحبشية، فعادت البعثة البرتغالية دون إبرام معاهدة تحالف بين الطرفين، ويذكر أحد الباحثين^(١) أن سبب فشل المعاهدة يرجع إلى قسوة الشروط التي عرضها الوفد البرتغالي، مما دفع الإمبراطور إلى رفضها واقترح هو مشروعاً لمعاهدة جديدة حملها هذا الوفد، الذي عاد إلى البرتغال سنة ١٥٢٦م ومعه راهب أثيوبي هو صاجا زاب، بعد أن احتفظ الإمبراطور بأحد أعضاء الوفد وهو جياز برمودز الطبيب رهينة عنده.

وأما في جانب المسلمين فقد قتل الإمام محفوظ سنة ١٥١٦م / ٩٢٢هـ، وبعده قامت منازعات على السلطة في مملكة عدل.^(٢)

وأدت المنازعات إلى إضعاف شوكة الإمارات، واستغل الأحباش تلك الفرصة فشنوا هجمات متعددة على الدويلات الإسلامية، وعملوا على تدميرها ونهبها كما أسروا أعداداً كبيرة من المسلمين^(٣)

ولم يضع حداً لهذا العبث الحبشي في الممالك الإسلامية إلا ظهور القائد الإمام أحمد بن إبراهيم جران^(٤).

(١) زاهر رياض (دكتور): الإسلام في أثيوبيا، ص: ٢١٧، ٢١٨

(٢) كانت تشمل الأراضي الواقعة بين ميناء زيلع وهور وتمتد جنوباً لتشمل جزءاً مما يعرف الآن بالصومال الشمالي وإقليم الأوجادين، انظر: رجب محمد عبدالحليم (دكتور): العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة، ص: ١٩.

(٣) نوال حمزة الصيري: النفوذ البرتغالي في الخليج العربي مرجع سابق، ص: ١٧٤

(٤) هو أحمد بن إبراهيم المجاهد، ويطلق عليه البعض أحمد جان أي الأشول كما يطلق عليه أحمد جراد المجاهد، ولقب جراد يُطلقه الأحباش على حكام المقاطعات الإسلامية التابعة للباطرة، ولكن المسلمين هناك يطلقونه على الحكام الإقطاعيين عامة، وقد قتل أحمد جران في سنة ٩٥٠ هـ / ١٥٤٤م، بعد أن فتح كثيراً من بلاد الحبشة وقد ذكر البعض بأن فتوحاته تشبه فتوحات الصحابة، انظر: السيد مصطفى سالم (دكتور) مرجع سابق - ص: ٤٠١، ويذكر د/ زاهر رياض في كتابه الإسلام في أثيوبيا: أن الإمام أحمد كان ابناً لأحد قساوسة إيجو المسيحيين وترك موطنه إلى عدن حيث دخل في الإسلام وأظهر من فنون الحرب ما دفع الأمير محفوظ إلى تزويجه من ابنته، وأطلقوا عليه لفظ الإمام. انظر، ص: ١٩٥، ١٩٦.

فقد تمكن الإمام أحمد من تكوين جيش قوي ضخم من القبائل الصومالية، بعد أن خَلَفَ حاكم عدل أبا بكر بن محمد، وما أن حلت سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م حتى استطاع الإمام تكوين دولة قوية ذات نفوذ، وعلى استعداد لخوض غمار الحرب مع الأحباش.

وتمكن من الاستيلاء على عدة مناطق هامة، كان الأحباش قد استولوا عليها مثل فينجارو، ودبارو، وإيفات، وبالي، وشوا، حتى وصل في جهاده إلى نهر أوأش AWAH ثم أمهرا ولاستا وأصبح الإمبراطور لبندانقل فاراً طريدا أمام أحمد جران من موقع إلى آخر حتى وصل الإمام إلى قلب أراضي الإمبراطورية الحبشية المسيحية، فامتدت مملكته من البحر الأحمر شرقاً إلى كسلا غرباً.^(١)

وقد كانت المساعدات التي أرسلها العثمانيون إلى الأمير أحمد جران ذات أثر فعال في مساندته وشد أزره، نظراً لأن العثمانيين كانت سياستهم بالنسبة للحبشة ترمي إلى حصار الأحباش، وتحطيم أي تحالف إيجابي بينهم وبين البرتغاليين لخطورة هذا التحالف، ولذلك كان التقارب بين العثمانيين ومملكة عدل، فزودهم العثمانيون بالمدافع والأسلحة النارية في الوقت الذي كان فيه الأحباش لا يعرفون سوى السهم والقوس، وأخذ العثمانيون في تقوية مراكزهم على الساحل حيث أضحى في كل مركز حاكم عثماني ومعه قوة حربية.

وقد سهّل ذلك على المسلمين تطويق الأحباش وهروب ملكهم وتشريدهم في الجبال، حتى كانت السنوات من ١٥٣٦ م إلى ١٥٤٠ م مليئة بالنكبات والهزائم الساحقة للأحباش^(٢).

وإزاء تلاحق النكبات على الحبشة من التحالف العثماني مع الإمارات الإسلامية،

(١) نوال حمزة الصيرفي: مرجع سابق، ص: ١٧٥، ١٧٦

انظر: مواقع جميع هذه المدن (ملحق رقم ٢) ص: ٢٦٣

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور): فتح العثمانيين عدن - مرجع سابق، ص: ٩٥.

فقد بادر الملك لبنادنقل بمحاولة إنقاذ بلاده^(١)، فأرسل الطبيب البرتغالي برمودز JEAN BERMUDEZ الذي كان عنده في سفارة إلى ملك البرتغال، بعد أن نصّبه لبنادنقل بطريكاً كاثوليكياً للحبشة، منصاعاً بذلك للبابوية والبرتغال بقبول المذهب الكاثوليكي حتى أنه بالغ في ذلك، واحتفل بعيد الفصح في سنة ١٥٣٨ م وفقاً للتقويم الجريجوري.

حملة السويس وأثرها على شرق أفريقيا

سافر برمودز إلى لشبونة - بصفته بطريكاً للحبشة - وقابل الملك خوان الثالث - ملك البرتغال - ووصف له حرج مركز الإمبراطور والمسيحيين في الحبشة، فزوده الملك بخطاب إلى نائبه في الهند (إستافودي جاما)^(٢) يكلفه فيه إرسال أسطول برتغالي، على متنه أربع مائة وخمسون جندياً لمساعدة الإمبراطور الحبشي، ومقاتلة المسلمين هناك.

ورحل برمودز إلى جوا فوصلها في ١٥٣٩ م ووجد إستافودي جاما نائب الملك في الهند، مهتماً بالبحث عن الأسطول العثماني ليحطمه.^(٣)

ويبدو أن إستافودي جاما قد وصل إلى أبعد مما طلبه الأحباش، حيث فكّر في الاتجاه عبر سواحل شرق أفريقيا ومباغطة الأسطول العثماني في عقر أكبر ولاياته «مصر»، وضربه في ميناء السويس وأرجأ إرسال النجدة للأحباش حتى عودته من مهمته في السويس.*

(١) اتفقت المصادر والمراجع على أن الذي أرسل برمودز هو إمبراطور الحبشة لبنى دنقل، انظر: الحيمي الحسن: مصدر سابق، ص ٢٥، وانظر محمود خيري (دكتور) العلاقات العربية الأفريقية، ص: ٨٧، وانظر نوال الصيرفي: مرجع سابق، ص: ١٧٦. بينما ذكر د/ محمد عبداللطيف البحراوي - فتح العثمانيين عدن، ص: ٩٥، أن الذي أرسل برمودز هو الملك داود الثاني، ولم تتفق معه أي من المصادر على ذلك.

(٢) هو الابن الأكبر لفاسكو دي جاما، القائد البحري الشهير.

(٣) الحيمي الحسن: مصدر سابق، ص: ٢٥، ٢٦.

* انظر موقع السويس (ملحق رقم ٩) ص: ٢٧٠.

وبالفعل فقد تحرك دي جاما على رأس أسطول كبير، مَكُون من أربعة وثمانين سفينة، وعلى متنها ٢٢٠٠ جندي من خيرة رجاله، وأبحر في البحر الأحمر قاصدا السويس.

وعندما وصل دي جاما إلى مصوع في ١٠ فبراير ١٥٤١م استقبله المسلمون هناك، حيث طلب البرتغاليون إمدادهم بالأموال والأدلاء، ولكنهم لم يصلوا إلى غايتهم، فحركت حملة صغيرة من الأسطول إلى منطقة سواكن، وشاهدت تلك المنطقة الغنية بتجارها والتي تدفع للسلطان العثماني ما مقداره ٧٠.٠٠٠ ر. فيزيانيون كضريبة، وكعادة البرتغاليين قاموا بضربها، كما قتلوا خمسين مسلما تركيا كانوا يعملون بالتجارة فيها.^(١)

واستمر الأسطول في إبحاره قاصداً السويس بسبعين سفينة، حيث فضّل القائد البرتغالي ترك سفن الشحن الثقيلة في مصوع، وترك عليها أحد أقاربه وهو عمانويل دي جاما.

وقامت الحملة - وهي في طريقها من مصوع إلى السويس - بالأعمال التخريبية التي ألّفها البرتغاليون فهاجمت جزر دهلك وسواكن وقصفت بمدفيعيتها المنشآت الساحلية فيها وأسرت بعض سكانها، كما هاجمت الحملة البرتغالية السفن الشراعية الصغيرة التي كانت راسية في كل من ميناء القصير والطور، وقبل دخول الأسطول ميناء السويس أرسل قائده بعض السفن الاستطلاعية ليلا إلى السويس لتقصي أخبار العثمانيين فيه.^(٢)

وقد استُقبلت تلك السفن بالمدافع العثمانية التي كانت منصوبة على الشاطئ، مما أبان أن الأسطول العثماني على يقظة تامة وفي حالة استعداد كامل.

فعدت السفن لتلحق بباقي الأسطول، ولأن الجميع بالفرار، دون تحقيق هدف

(١) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ١٠٢، ١٠٣

(٢) عبدالعزيز الشناوي (دكتور) : المراحل الأولى للوجود البرتغالي، ص: ٦٨٠، ٦٨١

يذكر، متجهين مرة ثانية إلى الساحل الشرقي الأفريقي، حيث سفنهم الراسية بمصوع، دون أن يتمكن الأسطول البرتغالي من منازلة العثمانيين.^(١)

وما أشبه هذه الحملة الكبيرة في أسبابها وضخامتها، وكذلك نتائجها بحملة سليمان الخادم سنة ١٥٢٨ م.

وقد علل الباحثون فشل هذه الحملة بأسباب عدة، نذكر مجملها، فيما يلي:
عزا أحد البرتغاليين فشل خطة مباغته الأسطول البرتغالي للعثمانيين في السويس، إلى ما قام به أمير سواكن - التي كانت تابعة للعثمانيين في ذلك الوقت - من تحذير للعثمانيين بعد أن هاجمه البرتغاليون، وذلك بعد أن علم بحقيقة اتجاههم إلى السويس^(٢)

ويرجع أحد الباحثين^(٣) فشل البرتغاليين إلى الحر الشديد الذي كانت تمر به البلاد، بالإضافة إلى المجاعة التي لحقت بأفراد الحملة والمرض والموت اللذين تفشيا في الجنود.

نتائج حملة السويس :

كانت لحملة السويس البرتغالية سنة ١٥٤١ م آثار بعيدة على الجانبين العثماني والبرتغالي، حيث أخذ العثمانيون في تطوير خططهم الحربية تجاه الوجود البرتغالي على النحو التالي :

- ١ - أغلق العثمانيون البحر الأحمر في وجه السفن البرتغالية.
- ٢ - عمل العثمانيون على قطع الاتصالات الدائرة بين البرتغاليين وحلفائهم الأحباش.

(١) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ١٠٣

(٢) د / السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص: ٢٩٩

(٣) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ١٠٣

٣ - امتد النفوذ العثماني إلى شرقي الجزيرة العربية لطرد البرتغاليين من هذه المنطقة من ناحية، ولتوجيه الضربات من منطقة الخليج العربي إلى الدولة الصفوية من ناحية أخرى.

ولإنجاح هذه المخططات الحربية المطورة عمد العثمانيون إلى دعم قواتهم البحرية في البحر الأحمر وأخذت، وحدات الأسطول تجوب بصفة معتادة الجزء الجنوبي من البحر الأحمر، والمنطقة المتاخمة لباب المندب، منعا لأي اتصال يتم بين الأحباش والبرتغاليين في الهند. وبتعبير آخر اتخذ العثمانيون من اليمن عامة، وعدن خاصة قاعدة عسكرية لضرب المراكز البرتغالية في شرقي الجزيرة العربية، وللسيطرة على البحر الأحمر، حيث أكترت الترسانة البحرية في السويس من بناء سفن حربية عثمانية جديدة، هذا ما كان من أثر الحملة على العثمانيين.

وفي الجانب البرتغالي كانت لفشل حملة السويس آثار أخرى، فقد خشى البرتغاليون أن يوجه العثمانيون نشاطهم البحري إلى الهند، وهي المركز الرئيس للبرتغاليين في البحار الشرقية، في الوقت الذي كان فيه العثمانيون في عصرهم الذهبي، وبلغت قواتهم العسكرية مبلغا عظيما في البر والبحر، حينئذ رأى ملك البرتغال أنه من الأفضل مهادة العثمانيين بدلا من استفزازهم - كما حدث في حملة السويس - وأخذ يفكر في طلب الصلح، كما سيأتى ذكره^(١).

وإذا خلصنا من حملة السويس، إلى الصراع الناشب أظفاره في الشرق الأفريقي بين الأحباش والممالك الإسلامية، نجد أن الحملة البرتغالية في أثناء عودتها من السويس إلى مصوع، تلبي نداء الأحباش لهم، ويقوم القائد البرتغالي إستافو دي جاما بإعداد حملة مكونة من ٤٥٠ جنديا مجهزين بأحدث التجهيزات والأسلحة والمعدات، تحت قيادة أخيه الأصغر كريستوفر دي جاما، وكان من بين هؤلاء الجنود حوالي سبعين عاملا فنيا ممن تم إعدادهم في الهند للإقامة في الحبشة، كما ضمت

(١) عبدالعزيز الشناوي (دكتور): المراحل الأولى للوجود البرتغالي - مرجع سابق، ص: ٦٨١،

الحملة إليها مائة وثلاثين شخصا من أهالي البلاد لخدمة جنود الحملة ولحمل معاداتهم، وتمكن البرتغاليون من إنفاذ هذه الحملة إلى داخل الحبشة في ٩ يوليو ١٥٤١ م قبل منع العثمانيين لها، وعادت باقي السفن إلى الهند.

في هذا الوقت كان الموقف في صالح الإمام أحمد جران، الذي استطاع أن يستولي على إقليم هرر ويضمّه إليه.

كما تمكن كذلك من أسر ابن الإمبراطور الحبشي في إحدى المعارك^(١)، إلا أنه بعد وصول الحملة البرتغالية وتعاونها مع الأحباش، أصاب بعض الانتصارات على قوات الإمام أحمد جران، وبدأ الحال ينقلب على المسلمين.

ولم تكن هذه إلا انتصارات أولية على الإمام، حتى أجبروه على الهرب إلى جبال زابول، ومن هناك سارع الإمام أحمد جران بطلب المساعدة من العثمانيين الذين كانوا قد استولوا قبل ذلك على سواكن وزيلع، ولهم فيهما قوات عسكرية.

حينئذ لبى العثمانيون دعوة إخوانهم، وقبلوا التحالف مرة ثانية مع تلك الممالك ومد يد العون لهم ضد البرتغاليين وحلفائهم الأحباش. فعندما تلقى مصطفى النشار، الباشا العثماني في زبيد طلب المساعدة، أرسل إلى الإمام ألف جندي عثماني مزود بالبنادق وعددها ٩٠٠ بندقية وعشرة مدافع.^(٢)

معركة أوفلو: WOFLA

اتخذ الصدام المحلي بعد هذه التحالفات صفة الصراع الدولي، وذلك لوقوع الصدام بين العثمانيين والبرتغاليين أقوى دولتين في ذلك الوقت، ولهما أساطيل تمخر عباب البحار.*

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) مرجع سابق، ص: ٤٠٢

(٢) صالح أوزبران: مرجع سابق، ص: ١٠٤

وانظر: نوال حمزة الصيرفي، مرجع سابق، ص: ١٧٦، ١٧٧

* انظر شكل سفينة حربية برتغالية (مأحق رقم ١٢) ص: ٢٧٢

وقد استطاع الإمام أحمد جران - بفضل مساعدة حلفائه العثمانيين - أن يحقق انتصارا حاسما على أعدائه الأحباش وحلفائهم البرتغاليين في معركة أوفلو، وأدى هذا الانتصار إلى إبادة الحملة البرتغالية، وإلى تشتيت قوات النجاشي الحبشي، كما استطاع الإمام أحمد محاصرة القائد البرتغالي كريستوفر دي جاما وأسرته ثم قتله^(١).

وبعد انتصار القوى الإسلامية في هذه الموقعة لم يستقر للعثمانيين المقام في الحبشة بل عادوا بعد وقت قصير إلى زبيد^(٢).

وقيل في سبب عودتهم: إن الإمام أحمد هو الذي عمل على التخلص منهم لمضايقه بعض الجنود له، طمعا في المزيد من الأموال والمكافآت، وقيل: إن ذلك أيضا يرجع للخلاف الذي دب بين الإمام والعثمانيين، بسبب تسرع الإمام في قتل قائد الحملة البرتغالية كريستوفر دي جاما بعد أسره، بينما كان العثمانيون يرغبون في إرساله حيا إلى استانبول للتدليل على نجاح جهودهم في الحبشة.

ولكن يبدو أن الدولة العثمانية كانت تفضّل الاكتفاء باستيلائها على سواكن فقط، لتكون موضع قدم لها على الساحل الأفريقي، ولم يكونوا قد قرروا بعد التوسع في الأراضي الحبشية، ولم يتم ذلك إلا بعد عدة سنوات على يد أزدمر باشا بعد عزله من اليمن^(٣).

إلا أن نشاط العثمانيين لم يتوقف بخروجهم من الحبشة، فقد نجحوا بحريا في قطع الإمدادات البرتغالية، وحرّموا اتصالها بالأحباش، حيث قامت السفن العثمانية بعدن بمهاجمة خمس سفن برتغالية، وأجبرتها على الفرار قبل وصولها إلى ميناء مصوع، لتقديم الإمدادات اللازمة للحملة البرتغالية بالحبشة، وكان إستافو دي

(١) محمد محمد أمين (دكتور): تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، ص: ٨٨، ٨٧

(٢) تذكر نوال الصيري - مرجع سابق - ص: ١٧٧: أن الإمام أحمد جران احتفظ بمائتي جندي وعسكر معهم قرب بحيرة تانا.

(٣) السيد مصطفى سالم - دكتور - مرجع سابق، ص: ٤٠٣، ٤٠٤

جاما - حاكم الهند - قد وعد أخاه كريستوفر أن يمدّه بالجنود والمعدات فور عودته إلى الهند، ولكنه لم يتمكن من ذلك حتى تعرضت الحملة البرتغالية في الحبشة للهلاك^(١) - كما أسلفنا.

ويبدو أن خروج العثمانيين من الحبشة ترك فراغا كبيرا، إذ تمكن الإمبراطور الحبشي من تجميع قواته والدخول مع الإمام في معركة فاصلة سنة ١٥٤٢م وهاجمت قواته الأمير أحمد عند بحيرة تانا في موقع يسمى وينا ديغا WOINA DEGA، وتمكنت فصيلة من جيش الأحباش بقيادة «بدرو ليوني» من اختراق صفوف جيش الإمام، وأطلقوا على الإمام الرصاص فجرح جرحا مميتا، ولما أيقن الإمام بالهزيمة انسёл إلى الغابة وحيدا يقطر جرحه دماء غزيرة، فتبعه بدرو ليوني حتى رآه يسقط على الأرض عن جواده ميتا، فاقترب منه وقطع أذنه ليذهب بها إلى الإمبراطور جلادىوس (١٥٤٠ - ١٥٥٨م).^(٢)

كما تحدثنا بعض المراجع عن صدام مباشر وقع بين العثمانيين والبرتغاليين، وكان مسرح عملياته الشرق الأفريقي، وعند المنطقة الواقعة بين مصوع وسواكن على وجه التحديد.

ويُذكر في ذلك أن العثمانيين - الذين فقدوا اليمن في منتصف القرن السادس عشر - قد عادوا - نظرا لاهتمامهم بأمر البحر الأحمر وسواحله - لاسترجاع اليمن مرة أخرى.

فبادروا بإرسال حملة عثمانية سنة ١٥٥٤م بقيادة سنان باشا لإعادة فتح اليمن، وبعد أن تم له ذلك اتجه صوب ميناء مصوع لمنازلة الأسطول البرتغالي بقيادة دون جوان كاسترو حيث اصطدم به أمام ساحل مصوع، وكانت النتيجة في صالح العثمانيين الذين هزموا الأسطول البرتغالي، وصفّوا المواقع البرتغالية الأخرى

(١) نفس المرجع السابق، ص: ٤٠٤

(٢) الحيمي الحسن : مصدر سابق، ص: ٢٦

في البحر الأحمر، وتركوا حاميات عثمانية بها^(١)

تدخل البرتغاليين والعثمانيين في الصراع المذهبي بالحبشة :

لم يكن تدخل البرتغاليين ومساعدتهم للأحباش إلا وبالأ ومقدمة لسلسلة من الانقسامات داخل الحبشة كلها.

فقد ساعدت النجدة البرتغالية في نهاية الأمر، على الانتصارات التي حققها الأحباش على المسلمين الثوار، وفي هذا الوقت اكتفى الأتراك بالإشراف على البحر الأحمر، من خلال سلسلة المواني التي استولوا عليها على الساحل الغربي وهي: سواكن، ومصوع، وزيلع، وبربرة.

وقد خيل للبرتغاليين خاصة وللكاثوليك عامة، أن البلاد الحبشية قد خلصت لهم بعد تغلبهم على الخطر التركي الإسلامي، بفضل المساعدات التي قدموها. فعندما عاد الإمبراطور الحبشي (جلاديوس) إلى قصره سنة ١٥٥٥م بعد انتصاره على القائد الإسلامي (نور)، وجد في انتظاره بعثة من ملك البرتغال برئاسة رود ريجز، تحمل هدايا من الملك، ومع البعثة مبشران من الآباء اليسوعيين يحملان خطاباً من حاكم الهند، طالبا من الإمبراطور جلاديوس الانضمام إلى كنيسة روما، بعد أن يقطع علاقته بالكنيسة المصرية، التي لا تستطيع حمايته ولا حماية نفسها من العنت الذي تلاقيه في مصر^(٢) - كما ادعوا-.

وفي اعتقادي أن هذا الإلحاح من جانب البرتغاليين، وما سبقه من جهود لتحويل الكنيسة الحبشية من التبعية الأرثوذكسية في مصر إلى التبعية الكاثوليكية في روما، بالإضافة إلى كونه صراعاً رهيباً، إلا أنه كان يحمل في طياته صورة الصراع بين البرتغاليين وعدوهم اللدود (العثمانيين)، ومحاولة إبعاد مصر الواقعة تحت السيادة

(١) وليد محمد جرادات : الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، الدوحة،

١٩٨٦، ص: ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) الحيمي الحسن : مرجع سابق، ص: ٢٦

العثمانية عن الهيمنة الدينية. هذا بالإضافة إلى أن ربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة البرتغالية الكاثوليكية، كان يُعد هدفا رئيسيا لتدعيم نفوذهم في الحبشة، ومع ذلك فقد كان سعيهم هذا سببا في انهيار نفوذهم بها - كما سنرى.

ومع ذلك فقد عادت البعثة البرتغالية بنتيجة، مفادها أن نجاشي الحبشة ليس لديه نية تغيير عقيدة أسلافه، هذا بالإضافة إلى مناوأة الشعب الأثيوبي لتحويل كنيستهم، وحينئذ أخذت الانقسامات المذهبية تطل برأسها، في الوقت الذي أخذت فيه البعثة الثانية التي أرسلها ملك البرتغال تصطدم بأباطرة الحبشة خاصة في عهد الإمبراطور (ميثاس)، الذي اتبع سياسة متشددة تجاه الكاثوليك، وتطور هذا الصدام إلى حرب بعد انضمام المندوب البرتغالي دابارو DABARWA على رأس جماعة من البرتغاليين، إلى جانب بعض المتمردين على الإمبراطور^(١) ثم تقرب من العثمانيين بقيادة ازدمر وعقد تحالفا معهم، كما وضع نفسه والجزء الذي يحكمه من الحبشة تحت سيادة العثمانيين.

وفي وسط هذا النزاع تمكن العثمانيون من توسيع الرقعة التي تحت أيديهم، ومن تثبيت أقدامهم فيها.

أما عصر سارسادنجل SARSA DENGEL أو الملك سجد MALAK SAGAD (١٥٦٣ - ١٥٩٧م) فقد كان هو الآخر مليئا بالمنازعات بين الطامعين في العرش، وتمكن العثمانيون من تذكية هذا الخلاف، ومناصرة فريق على آخر منتهزين الفرصة في ذلك لتوسيع مناطق احتلالهم، وكان النصر في جانب الفريق الذي يؤيده العثمانيون لأنهم كانوا يمدونه بالأسلحة النارية والمدافع مما اضطر الإمبراطور إلى الاستنجاد بفيليب الثاني ملك إسبانيا والبرتغال^(٢).

CASTONHOSO M : THE PORTUGUESE EXPEDITION TO (١)
ABYSSINIA IN 1541 - 1543, PP. 110 - 112.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٩٧.

وقد كان الدور الذي قام به أزدمر باشا تكملة للجهود العثمانية في منطقة شرق أفريقيا، لمحاولة شل حركة الأسطول البرتغالي، ومنعه من العبث بسواحل، وقد أظهر العثمانيون اهتمامهم بهذا الميدان - خاصة في الحبشة - لمطاردة البرتغاليين من جهة، ومن جهة أخرى لإحكام غلق البحر الأحمر، وقد كان هذا هو ما لمسه أزدمر باشا أثناء ولايته على اليمن، كما لمس أيضا مدى ضعف نيابة سواكن واضطراب أحوالها، أثناء عودته من اليمن بعد عزله وهو في طريقه إلى إستانبول، فأعد مشروعا يقضي بتدعيم النفوذ العثماني على ساحل الحبشة وتوسيع مداه، قدمه إلى السلطان سليمان القانوني الذي اهتم به اهتماما شديدا.

وعلى الفور أرسله السلطان سليمان إلى مصر، لتجهيز جيش بها وللسير على رأس هذا الجيش إلى الحبشة لفتح بعض جهاتها.

وقد سار أزدمر باشا - بعد استكمال استعداداته - برا من القاهرة بجيش قوامه ثلاثة آلاف جندي عن طريق صعيد مصر.

فنجح حينذاك في السيطرة على بعض جهات النوبة، كما استولى على بعض الأقاليم الساحلية حول سواكن، وتم عندئذ تكوين ولاية الحبش، وأصبح أزدمر باشا أول وال لها حتى توفي بها في سنة ٩٦٧ هـ / ١٥٦٠ م، وقد ظلت هذه الولاية قاصرة على المناطق الساحلية، وأصبح ميناء سواكن ومصوع أهم مراكزها كما ألحق بها ميناء جدة.^(١)

وفي هذه الفترة تمكّن العثمانيون من الاستيلاء على حرقيقو HARKUKO إضافة إلى مصوع لقطع طريق الإمداد العسكري بين البرتغاليين والأحباش، ومن مصوع أغار أزدمر باشا القائد العثماني على دبارو DABARO واستولى عليها وبنى بها حصنا للحامية العثمانية، وأصبحت دبارو مركزا لشن الحملات على

(١) صالح أزويران : مرجع سابق، ص: ٥١، وانظر السيد مصطفى سالم (دكتور) مرجع سابق، ص: ٤١٣، ٤١٤.

الأحباش، وكانت سواكن ومصوع بمثابة مراكز الإمداد والتراجع عند الهزيمة^(١).

وفي عهد الملك سرسا دنجل SARSO DENGEL (١٥٦٣ - ١٥٩٧ م) ظهر تغيير في التحالف العثماني مع مسلمي شرق أفريقيا، ذلك أن المسلمين هناك قد أصابهم الوهن بعد موت نور الدين مجاهد سنة ٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ م، وضعفت خطورتهم على الأحباش، مما أتاح الفرصة لازدياد قوة التحالف الصليبي بين الأحباش والبرتغاليين، لذلك اقتنص العثمانيون الفرصة عندما قامت فتنة في الحبشة بزعماء البحر نجش إسحاق ضد الإمبراطور الحبشي سرسا دنجل، وتم التحالف بين العثمانيين والبحر نجش ضد الإمبراطور، إلا أن الأخير - بمساعدة البرتغاليين - استطاع أن يوقع بالعثمانيين وحليفهم البحر نجش هزيمة كبرى في معركة عدى كورو ADDI QORRO بإقليم تجراى TIGRAI سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨، وقتل فيها إسحاق والباشا التركي.

وفي سنة ٩٩٨ هـ / ١٥٨٩ م اشتعلت الحرب مرة ثانية ضد الإمبراطور الحبشي، وكانت الثورة هذه المرة بزعماء ولد أعزوم WALDA EZUM الذي تحالف مع العثمانيين في مصوع، وأعاد العثمانيون احتلالهم لدبارو مرة أخرى، فسار الإمبراطور سرسا دنجل بجنوده، والتقى بالمتحالفين قرب نهر مرب، وأوقع بهم الهزيمة، انسحب على أثرها باشا مصوع التركي كداور رت إلى حرقيقو.

ولم يستطع الإمبراطور القضاء عليه هناك، فعقد معه صلحا، وظل العثمانيون في مناطقهم بشرق أفريقيا على الرغم من محاولات الأحباش طردهم منها.^(٢)

(١) م/ فتحي غيث: مرجع سابق، ص: ١٦٠، ١٦١، وانظر صالح أوزبران: الدولة العثمانية وطريق الهند، مرجع سابق، ص: ١٣٩، ويذكر: د/ محمد عبد اللطيف البحراوي، خلافا لما ذكر بالمتن، أن أزدمر باشا قد توفي بدوراه سنة ١٥٦٧ م، انظر: فتح العثمانيين عن - مرجع سابق، ص: ١٦٣.

(٢) نوال الصيرفي: مرجع سابق، ص: ١٧٩، ١٨٠.

المرحلة الثالثة: الصراع البرتغالي العثماني في الخليج العربي

يبدأ الصراع البرتغالي العثماني في الخليج العربي من هرمز، عندما استولى البرتغاليون على هذا الثغر الهام، وكان من آثار استيلائهم عليه أن سيطروا على الملاحة في الخليج العربي.

فقد كانت مملكة هرمز تقع عند مدخل الخليج العربي، وتضم جزيرة هرمز وما يحيط بها من جزر صغيرة، بالإضافة إلى الشريط الساحلي العربي المواجه لها. ووطد البرتغاليون نفوذهم في هذه المملكة، حيث أنشأوا بها الحصون القوية، وكذلك فعلوا في باقي الجزر التابعة لها، بعد تنازل شاه فارس عن سيادته عليها مقابل مساعدة البرتغاليين له ضد العثمانيين^(١).

وترجع بداية استيلاء البرتغاليين على هرمز* إلى عهد البوكيرك، وبالتحديد سنة ١٥٠٧م، عندما فشل في الاستيلاء على مسقط، وتقدم نحو هرمز حيث دارت بينه وبين حكامها معارك ضارية انتصر في نهايتها البوكيرك عليهم، وفرض على ملك هرمز إتاوة سنوية تدفع للبرتغاليين، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا لهم مركزا دائما إلا بعد عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م^(٢). فقد زار البوكيرك هرمز مرة ثانية في عام ١٥١٤م وقد تم بينه وبين الفرس اتفاق بموجبه يسمح لملك هرمز بالاستمرار في ممارسة سلطاته باسم ملك البرتغال، وعين ابن أخيه بيرو قائدا على قلعة هرمز.

ومع ذلك فقد قامت انتفاضات وثورات ضد الحكم البرتغالي في هرمز، انتهت في صالح البرتغاليين بعد هزيمة مقرر بن زامل وقتله، ثم ثورة عمان والبحرين والقطيف على الرغم من نجاحهم في البداية.

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٠٦

* انظر منظرة عام لهرمز وتحصيناتها (ملحق رقم ١٦) ص: ٢٧٨

(٢) عمان وتاريخها البحري، مرجع سابق، ص: ٥٨.

فقد تمكّن عرب الخليج من أن يقضوا على عدد من البحارة والجنود البرتغاليين خاصة في البحرين حيث انتقم سكانها شر انتقام من البرتغاليين لمقتل أميرهم مقرن بن زامل، إلا أن البرتغاليين ما لبثوا - كعادتهم - أن أرسلوا نجداً سريعة ثبّتت أقدامهم بالمنطقة^(١)، وبذلك كان من السهل على البرتغاليين فرض السيطرة الكاملة على منطقة ساحل الخليج العربي دون منازع.

وعلى الرغم من تأخر العثمانيين عن الشخوص إلى ميدان الخليج العربي، إلا أننا نلمح بين السطور بعض المساعدات التي قدمها الأتراك العثمانيون لحكام الخليج - ولكنها على ما يبدو لم تتعد بعض المعدات والذخائر - بالإضافة إلى بعض الجنود، حيث ذكر تواجد حوالي خمسين رومياً (تركياً) على ظهر ست سفن مسلحة تسليحاً جيداً تابعة لراشد بن مغامس حاكم البصرة^(٢)

ولم يضع حداً لهذا العبث البرتغالي بسواحل الخليج العربي إلا نزول العثمانيين إلى هذا الميدان، ومصارعتهم للبرتغاليين على سواحله.

فقد تمكن العثمانيون في سنة ١٥٢٤م من غزو العراقيين: عراق العجم، وعراق العرب، رغبة في الحصول على السيادة الفعلية على طريق التجارة، الذي كان يسير من تبريز إلى أرض روم وطوقان وبورصة، وطريق التوابل الذي كان يمتد من البصرة إلى بغداد وحلب.

هذا بالإضافة إلى أن فتح العثمانيين للعراق، يُعد من جهة أخرى استكمالاً لمنطقياً للفتح العثماني للشام ومصر ١٥١٦، ١٥١٧م.

وقد زحف الصدر الأعظم العثماني إبراهيم باشا، واحتل تبريز سنة ١٥٣٤م وانضم إلى السلطان سليمان القانوني بعد ذلك حيث استولوا على بغداد، وامتد نفوذهم شمال وأواسط العراق، دون امتداده للبصرة والحسا، ومع ذلك فقد تسلم

(١) جمال زكريا قاسم (دكتور): مرجع سابق، ص: ٧٢، وما بعدها

(٢) صالح أوزبران: مرجع سابق، ص: ٢١، ٢٥

سليمان القانوني فترة وجوده ببغداد - التي امتدت من ديسمبر (كانون الأول) ١٥٣٤ إلى إبريل (نيسان) ١٥٣٥م إذعان وخضوع راشد بن مغامس حاكم البصرة، وبالتالي بعض حكام الخليج الذين كانوا يودون أن ينفضوا عن كاهلهم الاستبداد البرتغالي بهم، كما أنهم جاءوا طالين حمايتهم من البرتغاليين^(١).

وعلى الفور حصلت البصرة بهذا الإذعان على مركز الإيالة التابعة للعثمانيين، كما أُعيد تثبيت راشد بن مغامس حاكما عليها.

إلا أنه بعد راشد هذا، حدث خلاف بين والي بغداد التركي، وحاكم البصرة ويدعى يحيى شيخ بن أمان، مما اضطر العثمانيين إلى السيطرة الفعلية على البصرة وجعلها بيلربيك، وتعيين بلال محمد باشا محافظا عليها تحت السيادة العثمانية، وذلك في سنة ١٥٤٧م.

ودعم العثمانيون مدينة البصرة بعدد كبير من الجنود، بلغ ألفين ومائتي جندي عثماني، وتم توزيعهم بوضع ١٠٠٠ جندي في الحصن الرئيسي، و ٧٠٠ آخرين في داخل المدينة، بالإضافة إلى ألف فارس تركي آخر بمدينة البصرة، ويضم المعسكر التركي كذلك عدداً لا بأس به من المتطوعين تحت إمرة أغا، كما تكونت إيالة البصرة من عدة سناجق تحت إشراف سنجق بك، وأنشأ العثمانيون بميناء البصرة ترسانة بحرية لصناعة السفن، تجلب إليها الأخشاب من جبال مرعش، على الحافة الجنوبية لسلسلة جبال طوروس في جنوبي آسيا الصغرى.

كما اهتم العثمانيون كذلك بالقطيف والحسا، نظرا للدور الهام الذي سيلعبانه في الصراع البرتغالي العثماني المرتقب بالخليج العربي^(٢)

(١) هؤلاء هم رؤساء محليون للأهواز، والجزائر، والعراق ولورستان، والحويزة، كما قدم شيخ القطيف والبحرين حاملين معهم رسائل الترحيب بالسلطان، انظر: صالح أوزبران: الأتراك العثمانيون والبرتغاليون، مرجع سابق، ص: ٢٨، وانظر: جمال زكريا قاسم (دكتور)، مرجع سابق، ص: ٨٦.

(٢) صالح أوزبران: مرجع سابق، ص: ٢٨، وما بعدها.

وقد بات هذا التغيير الملموس الذي أحدثه العثمانيون في أوضاع شرقي الجزيرة العربية كفيلاً بإثارة البرتغاليين، لأن هذه المنطقة العربية ظلت فترات طويلة بعيداً عن مناطق الصراع البرتغالي، سواء أكان مع الممالك أم مع العثمانيين، وركز الأخيران جهودهما نحو الساحل الغربي للهند، نظراً لأنه موئل السلطة ومقر نائب ملك البرتغال، ومركز التجمعات البحرية البرتغالية.

ومن ناحية أخرى اشتدت رغبة البرتغاليين في القضاء على النفوذ العثماني الوليد في الجزء الشمالي قبل استفحال أمره، حتى تظل المنطقة كلها خالصة لهم.

ووقف كل فريق متأهباً ومتحفزاً للنيل من خصمه عندما تواتيه الفرصة.^(١)

وقد ظلت هذه المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين أكثر من ثلاثين عاماً، وعلى وجه التحديد بين سنتي ١٥٥٠، و١٥٨٣ م وتميزت هذه السنوات بمجموعة كبيرة من التطورات السياسية والعسكرية التي عاشتها المنطقة، خاصة بعد تحويل البصرة إلى قاعدة بحرية عثمانية، للانطلاق منها صوب الأسطول البرتغالي الذي كان قابلاً في عدة قواعد بحرية بالمحيط الهندي والخليج العربي.^(٢)

وقد تجمعت عدة عوامل سريعة، أدت إلى نشوب المعارك بين العثمانيين والبرتغاليين في منطقة الخليج كان منها:

أولاً : أدى تنازل عرب القطيف عن حصنهم للعثمانيين إلى فزع البرتغاليين^(٣).

ثانياً : كان هناك عدد من زعماء عرب البصرة يحاولون التقرب إلى البرتغاليين، بل وطالب هؤلاء الزعماء بتدخل البرتغاليين^(٤).

(١) عبدالعزيز الشناوي (دكتور) المراحل الأولى للوجود البرتغالي، مرجع سابق، ص: ٦٨٣، ٦٨٤.

(٢) HAJI KHALEFAH, THE HISTORY OF MARITIME WARS OF THE TURKS LONDON 1831: PP. 68 - 728

(٣) يذكر د/ جمال زكريا قاسم - في كتابه الخليج العربي، ص: ٨٦، أن حصن القطيف كان حصناً برتغالياً وكان البرتغاليون يعتمدون عليه في السيطرة على المناطق الساحلية من شرق الجزيرة العربية.

(٤) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ٤٠

ويذكر أحد الباحثين^(١): أن حاكم البصرة راشد بن مغماس كان قد طرده العثمانيون قبل عدة سنوات لشكوكهم في نواياه، سنة ١٥٤٧م - وقد استنجد هذا الحاكم الطريد بالبرتغاليين يطلب مساعدتهم له على العثمانيين لاستعادة أملاكه عارضاً عليهم أن يسمح لهم بإقامة حصن في ميناء البصرة. ورحب البرتغاليون بهذا العرض المغربي، فكان ابن مغماس هو الشرارة التي أشعلت الصراع بين الطرفين.

حينئذ وجّه البرتغاليون حملة كبيرة للزحف على تلك السواحل، التي استولى عليها العثمانيون وعلى وجه الخصوص (القطيف)، وأسند إلى إنطا ودي نورنها DE NORONHA قيادة هذه الحملة التي تكونت من ألف ومائتي مقاتل وسبع سفن كبيرة الحجم^(٢) هذا بالإضافة إلى قوات كبيرة العدد من هرمز صاحبت الحملة التي بلغ حجمها ثلاثة آلاف جندي.

وتحركات الحملة صوب القطيف أولاً، وهذه لم يكن بها سوى أربعمئة جندي تركي، إلا أنهم دافعوا عن أنفسهم ببسالة منقطعة النظير، وإن كانوا قد اضطروا - في نهاية الأمر - إلى الاستسلام للبرتغاليين بعد حصارهم الذي استمر ثمانية أيام، تمكن بعدها نورونها من تدمير حصن القطيف.^(٣)

وعلى أثر ذلك توجه القائد البرتغالي بحملته إلى البصرة، باعتبارها قاعدة العثمانيين البحرية في الخليج، وحاول اقتحامها إلا أنه أخفق في الاستيلاء عليها، بسبب وصول أخبار الحملة البرتغالية إلى بيلر بك البصرة مبكراً، مما أتاح له الفرصة

(١) عبدالعزيز الشناوي (دكتور): مرجع سابق، ص: ٦٨٣، ٦٨٤

(٢) يذكر د/ السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص: ٤٠٧، وكذلك د/ عبدالعزيز الشناوي، مرجع سابق، ص: ٦٨٤، أن عدد السفن كان تسع عشرة سفينة، ويمكن الجمع بين الروايتين حيث أن المرجع الذي اعتمدنا عليه عاد فذكر أنه قد صاحبت الحملة البرتغالية المكونة من ١٢٠٠ جندي مع سبع سفن حوالي ثلاثة آلاف جندي من هرمز، ولابد من أن هؤلاء الآخرين قد نقلوا على متن سفن أخرى، حتى بلغ عدد الجميع تسع عشرة سفينة.

(٣) يذكر محمد عدنان مراد أن البرتغاليين قد أخرجوا الترك من القطيف ومن البحرين كذلك بالإضافة البحرين التي لم أجد لها ذكراً في تلك الحملة فيما تيسر لي من مراجع، انظر: صراع القوى - مرجع سابق، ص: ١٤١

في تنفيذ خطة ذكية لتفادي الهجوم المرتقب، بحيث جعل القائد البرتغالي يظن بأن هناك حشودا ضخمة قد جمعت من القبائل العربية في البصرة.

وقد خشى نورونها من الاصطدام بما اعتقد أنها حشود كبيرة، وعدل عن خطة الهجوم مفضلا التراجع إلى القطيف، وهناك اكتشف أنه قد خدع وأنه لم تكن هناك استعدادات حربية كافية لتلافي الهجوم البرتغالي^(١)

وفي نفس عام ١٥٥٠م تمت مواجهات أخرى بين الأسطولين العثماني والبرتغالي، فقد تحرك أسطول برتغالي في هذا العام بقيادة لويس فيكورا، قاصدا نهب مدينة قلعات التي تقع بالقرب من رأس الحد، ولكنه تراجع عنها عندما شاهد أربع سفن حربية عثمانية تجوب المنطقة، كما حدثت مواجهة أخرى بين البرتغاليين بقيادة لويس فيكورا، وأسطول عثماني مكون من خمس سفن على رأسها القائد العثماني سفر رئيس، وتم هزيمة الأسطول البرتغالي وقتل قائده، فيكورا على أثر معركة دارت رحاها بينهما.^(٢)

حملة ييري رئيس على هرمز :

وإزاء استيلاء البرتغاليين على القطيف - مؤقتا - وتهديدهم لكل من سواحل البحرين والبصرة، تأكد للعثمانيين بما لا يدع مجالا للشك أنه لا قبل لهم بالوقوف في مواجهة البرتغاليين في معارك نظامية حاسمة، ولا يمكن مواجهتهم إلا بعمليات بحرية غير نظامية، وذلك بسبب عدم التكافؤ في القوة البحرية بين الطرفين.

وقد أسندت هذه العمليات الفدائية غير النظامية إلى مجموعة بارزة من القباطنة العثمانيين، الذين خلّد التاريخ ذكرهم، سواء أكان ذلك في الأعمال البحرية أم في المجال العلمي، فمنهم من اهتم بفنون البحر والملاحة أمثال علي بك جلبي، وييري بك الذي كان جغرافيا مشهورا في رسم الخرائط.

(١) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ٤٠، ٤١

وانظر، د/ جمال زكريا قاسم: مرجع سابق، ص: ٨٦، ٨٧

(٢) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ١٢٣.

وكان من أبرز هؤلاء القادة الذين تصدوا للنفوذ البرتغالي في الخليج بيري بك رئيس PIRRI REIS، الذي أبحر من السويس بعد أن أصبح هذا الميناء من أقوى القواعد البحرية العثمانية، تصحبه خمس وعشرون سفينة كبيرة الحجم^(١)

وكان رأي السلطان العثماني سليمان المشرع أن يرد على العدوان البرتغالي، بإرسال تلك الحملة إلى شرقي الجزيرة العربية، تستهدف الاستيلاء على جزيرة هرمز وإلحاق إدارتها بالبصرة.

وبالفعل صدرت الأوامر إلى ترسانة السويس لإعداد السفن المذكورة، وتحركت الحملة في سنة ٩٥٩هـ / ٢٩ ديسمبر ١٥٥١م من القاعدة البحرية في السويس إلى شرقي الجزيرة العربية، وقد مرت الحملة في مسيرتها بعدن لأخذ المؤن، ثم استأنفت رحلتها نحو ميناء مسقط، وتمكنت من الاستيلاء على القلعة البرتغالية بها، وأسرت قائد حاميتها البرتغالي، وكان هذا القائد ويدعى جوادي ليزبوا JAODE LISBOA، قد أعلن استسلامه للعثمانيين بشرط أن يسمحوا له ولمن معه من أفراد الحامية البرتغالية بالانتقال إلى هرمز بسلام، إلا أن بيري بك بادر بعد سيطرته على مسقط بتجريد الحامية من سلاحها، وعامل القائد البرتغالي وحاميته معاملة سيئة، وتحركت الحملة بعد ذلك إلى هرمز حيث فرضت عليها حصاراً محكماً كادت تسقط على أثره، لولا أن القائد العثماني بيري باشا أمر برفع الحصار عنها فجأة، واتجه بسفنه إلى البصرة.

ويُذكر في سبب رفع الحصار، أن الأسير - قائد مسقط البرتغالي - احتال على القائد بيري رئيس، وأدخل في روعه أن أسطولاً برتغالياً كبيراً خرج من الهند في طريقه إلى هرمز لتدمير الأسطول العثماني في مياه الخليج، ونصحه بالمسارعة إلى

(١) ذكر صالح أوزبران: الدولة العثمانية ص: ١٢٥: أنها تسع وعشرون سفينة، وعليها ٨٥٠ جندياً، وفي كتاب آخر، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون ذكر نفس المؤلف، ص: ٤٣، ٤٤: أن عدد السفن كان خمسا وعشرين سفينة كبيرة من نوع VADIRGA وأربع سفن إسبانية من نوع غليون GALIEONS (بالتركية VALYON) وسفينة أخرى تحمل ٨٥٠ جندياً فيكون المجموع ثلاثين سفينة.

مغادرة المنطقة قبل أن يغلق البرتغاليون مضيق هرمز في وجهه.

ونظرا لحاجة الأسطول العثماني إلى الإصلاح والتزود بالوقود، فقد اتجه به نحو البصرة، وتركه عائدا إلى السويس بسفنه الثلاث بعد أن ملأها بالأموال التي جمعها، وما كاد يصل إلى القاهرة حتى قبض عليه والي مصر، الذي أرسل إلى السلطان سليمان تفاصيل ما حدث فأمر بإعدامه ومصادرة أمواله بتهمة الخيانة العظمى^(١)

وقد ذكر أيضا في سبب إصدار بيري الأوامر لسفنه بفك الحصار، أنه قد سمع برفاهية وغنى أهالي هرمز القاطنين في قشم، وبها طائفة من التجار الأثرياء يبلغ عددهم ٣٠ تاجرا من أجل ترك حصار هرمز، واتجه نحو قشم التي عاد منها إلى البصرة محملا بالغنائم الثمينة^(٢)

ومثل ذلك ما قيل عن قبول بيري بيك الرشوة من البرتغاليين، وأن الملاحين المحاصرين أعطوا القبودان بيري مقدارا من المال وأرضوه، فأقلع عن هرمز وقصد البصرة^(٣)

وهذا كلام قيل من قبل في حملة سليمان باشا الخادم على الهند، وهو محاولة لتشويه صورة هؤلاء القادة. ولا يسلم به الباحث بسهولة، وخاصة أن بيري رئيس هذا كان من علماء عصره، الذين أدوا للآداب عامة والجغرافيا خاصة خدمات علمية جليلة، وله تأليف في البحرية، وأهدى للسلطان العثماني وصفا لرحلته، بعضه نظم والآخر نثر بعنوان «مرآة البلاد». بالإضافة إلى أن هذا القائد سليل أسرة مجاهدة، فقد كان حفيدا لكمال رئيس الذي كان أيام السلطان باتريد الثاني يلقي الرعب في قلوب الأعداء، وكان ضمن الحملة التي أرسلها داود باشا لاستعادة عدن من حاكمه علي بن سليمان البدوي وحلفائه البرتغاليين سنة ١٥٤٧ م^(٤)

(١) د. جمال زكريا قاسم: مرجع سابق، ص: ٨٧، وانظر د. عبدالعزيز الشناوي: المراحل الأولى، مرجع سابق، ص: ٦٨٤، ٦٨٥.

(٢) صالح أوزبران: الأتراك العثمانيون والبرتغاليون - مرجع سابق، ص: ٤٥، ٤٦.

(٣) السيد مصطفى سالم (دكتور): مرجع سابق، ص: ٤٠٨.

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور) مرجع سابق، ص: ١٦٤.

وفي البصرة سرعان ما دبّ الخلاف بين بيرى رئيس وبيلر بك البصرة، فاضطر بيرى لمغادرة ميناء البصرة حاملاً معه جميع الغنائم والأسرى البرتغاليين، وقدرت بعض المصادر هذه الغنائم بأكثر من مليون ريال من الذهب^(١). وعندما عاد بيرى إلى السويس وجد في استقباله نهايته المحتومة، حيث كان بيلربك البصرة قد أرسل تقريراً إلى السلطان العثماني لم يكن في صالح بيرى رئيس.

وقد اختلفت المصادر في تعليل السبب الحقيقي لأوامر السلطان سليمان القانوني بإعدام بيرى رئيس، والأقرب إلى الصواب - فيما يعتقد الباحث - أن هذا القائد العثماني قد تجاوز التعليمات الصادرة إليه، إذ إن السلطان سليمان قد أمره ألا يبدأ بالسيطرة على هرمز وحصارها قبل أن يذهب إلى البصرة أولاً، لكي يضيف جنودها إلى جنده فيتقوى بهم، غير أن بيرى بك - نتيجة لما لاقاه من ضعف البرتغاليين في مسقط - اعتقد بأن حالة هرمز مشابهة، وقدّر أن بإمكانه بالأسلحة والذخائر التي استولى عليها من قلعة البرتغاليين في مسقط، أن يخضع أقرانهم في هرمز ولكنه فشل في تحقيق ذلك.^(٢)

إلا أن هناك بعض العوامل تذكرها كتابات الباحثين عرضاً، وكلها تؤكد أن ما صنعه بيرى رئيس كان مجبراً عليه، بسبب الظروف التي قاساها، من ذلك ما يذكر عن فقدانه بعض سفنه في مستهل رحلته بسبب العوامل الطبيعية في ساحل الشحر.

هذا بالإضافة إلى ما حدث عند مضيق هرمز من هبوب عاصفة شديدة حطمت السفن التركية - التي لم يتبق منها سوى ثلاث سفن كبيرة - وجنحت خمس عشرة سفينة إلى ميناء البصرة^(٣).

وقد أسند إلى مراد رئيس - بعد ذلك - مهمة إعادة الأسطول العثماني الرابض في

(١) ج. ج. لوريمر : دليل الخليج، ج٣، ص: ١١١

(٢) جمال زكريا قاسم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٨٨

(٣) KAMMERER : OP. CIT. 90

ميناء البصرة حيث اهتم بهذا الأمر السلطان سليمان بنفسه، واتصل بمراد بك - صنّجق القطيف سابقا، الذي كان يقيم في البصرة وقتئذ - وأمره بالمحافظة على السفن وإرجاعها إلى قاعدة السويس البحرية، دون أن تتعرض لهجوم الأسطول البرتغالي عليها.

ولم تكلل محاولة مراد رئيس بالنجاح، إذ إن البرتغاليين كانوا قد حصلوا على معلومات كافية عن مهمة مراد رئيس بالبصرة، من سفينة ذات أشعة كان عليها ملاحون عرب، وبذلك تقابل البرتغاليون بقيادة ديوجودي نرونها مع الأسطول العثماني في مضيق هرمز قرب الساحل الفارسي، وقد تكبد العثمانيون خلال هذه المعركة أضرارا غير قليلة، أدت بالتالي إلى عودة مراد رئيس إلى البصرة^(١).

رحلة سيدي علي رئيس لاستعادة السفن من البصرة:

لم تثن هذه الهزيمة السلطان العثماني عن عزمه بجلب الأسطول إلى السويس. فأصدر السلطان سليمان أمره بتعيين سيدي بري علي رئيس قبودانا لمصر، على أن يتوجه مباشرة من حلب - حيث كان السلطان موجودا حينئذ - إلى البصرة لإعادة الأسطول إلى السويس.

ويبدو أن اختيار السلطان سليمان لسيدي علي هذا كان موفقا، فهو من أشهر أمراء البحر العثمانيين، الذين ظهرُوا في القرن السادس عشر، حيث اشترك مع السلطان سليمان في الاستيلاء على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢م بالإضافة إلى اشتراكه في معارك بحرية كثيرة بالبحر المتوسط، تحت قيادة كبار القادة البحريين العثمانيين أمثال خير الدين بربروس وسان باشا وغيرهما، وذلك قبل أن يكلفه السلطان بهذه المهمة.

(١) صالح أوزبران : الأتراك العثمانيون والبرتغاليون، مرجع سابق، ص: ٤٨، وانظر: HAJI KHALIFEH : OP. P. 72

وعلى الفور اهتم سيدي علي بإعداد السفن وإصلاحها، استعدادا للسفر عند وصوله إلى البصرة سنة ٩٦١ هـ / فبراير ١٥٥٤ م.^(١)

وانتظر سيدي علي الرياح حتى إذا حلّ موسمها رغب في استطلاع حالة الأسطول البرتغالي عند مضيق هرمز وذلك قبل بداية رحلته إلى مصر، ولذلك فقد أمر والي البصرة أحد بحارته بالتجول على ظهر إحدى السفن الخفيفة في أنحاء الخليج العربي حتى يصل مضيق هرمز للتجسس على أخبار البرتغاليين في هذا الخليج، وقد غادر سيدي علي البصرة في شوال ٩٦١ هـ / سبتمبر ١٥٥٤ م على رأس خمس عشرة سفينة، بعد أن طمأنته البحارة بعدم وجود أية أساطيل برتغالية في الخليج^(٢).

إلا أن القائد العثماني لم يتمكن من العبور في سلام إلى السويس، على الرغم من مروره من مضيق هرمز، وما أظهره من شجاعة كبيرة ومهارة فائقة في الشئون البحرية، ويعود هذا الفشل حقيقة لما قابله من مشكلات وعقبات غير متوقعة، فقد اضطر إلى خوض غمار معركتين كبيرتين، الأولى: ضد الأسطول البرتغالي، والثانية ضد الظروف الطبيعية السيئة التي قذفت به وبسفنّه في النهاية إلى ساحل (كجرات) بالهند.

وقد بدأ الصدام بين البرتغاليين وسيدي علي بعد عبور الأخير مضيق هرمز بقليل حيث واجه أمام ساحل ظفار أسطولا برتغاليا كبيرا يتكون من خمس وعشرين سفينة حيث وقعت بين الطرفين رحى طاحنة، وذلك بعد أربعين يوما من مغادرة السفن العثمانية للبصرة، فاستمر القتال طوال النهار حتى أرحى الليل سدوله^(٣)، وانسحب الأسطول البرتغالي إلى الشرق ناحية هرمز، فواصل سيدي علي رحلته تجاه

SIDI ALI REIS : THE TRAVELS AND ADVENTURES (١)
(TRANSLATED FROM THE TURKISH BY A. VOMBERY)
LONDON. P. 7.

SIDI ALI REIS, OP. CIT. P. 9. (٢)

(٣) يذكر د/ جمال زكريا قاسم في كتابه الخليج العربي، ص: ٨٩، أن سيدي علي، قد سجل في هذه المعركة نصرا على البرتغاليين.

الغرب أمام الساحل العماني حتى وصل إلى مكان قريب من مسقط، وهناك تقابل مع أسطول برتغالي كبير مكون من اثنتين وثلاثين سفينة، وبادرت هذه السفن بمهاجمة أسطول سيدي علي الصغير، ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس تكبد فيها الاثنان خسائر جسيمة في الأرواح، وتعطلت بعض السفن العثمانية، وجنح بعضها الآخر إلى الساحل العماني حيث أحسن الأهالي استقبال جرحى العثمانيين، ومع ذلك فلم يحقق أي من الطرفين نصرا حاسما على خصمه.^(١)

أما معركة سيدي علي مع الطبيعة فقد بدأت في مساء يوم المعركة الأخيرة مع البرتغاليين، وفي هذا المساء اشتدت الرياح لدرجة كبيرة حتى أبعدت أسطول العثمانيين عن الشاطئ العربي بعيدا، وقذفت به إلى ساحل كرمان، فاضطر إلى التجول هناك لمدة يومين حتى تمكن من الرسو في أحد الموانئ المجاورة واسمه ميناء (جوادور) الهندي على ساحل بلوخستان، وأحسن حاكم هذا الميناء المسلم استقبال سيدي علي ورفاقه عندما عرف أنهم عثمانيون، كما زودهم بالطعام والشراب وأرسل معهم أحد البحارة المهرة ليعود بهم إلى الشاطئ العربي.

ولم تهدأ هذه الدوامة حتى وجد العثمانيون أنفسهم أمام ساحل كجرات بالهند، ثم دوامة أخرى نقلتهم أمام ميناء دامان بكجرات نفسها. ورسى سفن سيدي علي أمام هذا الميناء بعد جهاد عنيف آخر، فنصح حاكم دامان بضرورة السير إلى ميناء سورات حتى لا يتعرض لهجوم مباغت من السفن البرتغالية فالتجأ إليه بعد مرور ثلاثة أشهر كاملة على مغادرته للبصرة.^(٢)

وقد رأى معظم جنود الحملة وبحارتها استحالة عودتهم إلى مصر بحرا، فقرروا الالتحاق بخدمة حاكم كجرات والاستقرار في الهند.

أما سيدي علي الرئيس فقد أبى عليه ولاؤه للسلطان سليمان القانوني، وللدولة العثمانية إلا أن يصر على العودة إلى إستانبول، على الرغم من إلحاح سلطان كجرات

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٨٨، ٨٩

(٢) نفس المرجع السابق: ص: ٤١١، ٤١٢

عليه بالدخول في طاعته والخدمة معه مقابل أجر مجز، ولم يكن قد تبقى من سفن الحملة العثمانية إلا ست سفن، قدمها لحاكم سورات، على أن يدفع ثمنها للسلطان سليمان، وعاد سيدي علي مع ٥٠ جندياً إلى إستانبول.^(١) فبلغها في ٣٠ أبريل ١٥٥٧م بعد مرور عامين على مغادرة كجرات.^(٢)

ويذكر أنه بينما كان سيدي علي رئيس في جهاده هذا ضد البرتغاليين، والطبيعة معا أرسل السلطان سليمان المشرع قائداً أعلى آخر للأسطول - أدميرال يدعى صفر رئيس SAFOR، من أجل البحث عن الأسطول العثماني، ولم يتمكن هذا القائد العثماني إلا من أسر بعض السفن البرتغالية التي كانت تبصر من ميناء ديو الهندي في طريقها إلى هرمز، وكان مع صفر رئيس سفينتان من نوع GALLEY وسفينة أخرى من نوع BRIGANTINE.^(٣)

الصراع على جزيرة البحرين :

تعد البحرين التي تقع بين الإحساء وقطر، واحدة من المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية الهامة بموقعها المتوسط بين هرمز وقطر، بالإضافة إلى أنها تعد مركزاً لصيد اللؤلؤ في الخليج العربي، ومن أجل ذلك كانت جزيرة البحرين تحظى باهتمام القوى المختلفة المتصارعة على المنطقة.

ومن المعروف أن البرتغاليين بعد أن دحروا حاكمها مقرر بن زامل سنة ١٥٢١م سعوا إلى مد نفوذهم وإظهار تأثيرهم على الجزيرة، وفي سنة ١٥٣٥م - وبعد أن فتح العثمانيون بغداد - أرسل حاكم البحرين يعلن إذعانه وخضوعه للسلطان سليمان، وظل حاكمها في ذلك الوقت يحول ولاءه تارة إلى هذا وأخرى إلى ذاك بين

(١) قام سيدي علي بالمرور، في أثناء عودته عن طريق البر - على عدة بلاد هي: السند والبنجاب وأفغانستان وخورسان وأذربيجان، وقد وصف هذه الرحلة في كتابه الذي يعد من أهم كتب الرحلات في تلك الفترة.

انظر: السيد مصطفى سالم (دكتور): الفتح العثماني، ص: ٤٣.

(٢) SIDI ALI REIS: OP, PP105-106.

(٣) صالح أوزبران: مرجع سابق، ص: ٥٠، ٥١.

جيرانه الأقوياء، معتمدا في ذلك على ما يقدمه كل منهم من منافع - وربما كذلك تحت عوامل الترغيب والترهيب.

وكان من عادة العثمانيين منح الحكام المحليين - الذين يعلنون ولاءهم للدولة العثمانية وخضوعهم للسلطان العثماني - لقب سنجق SANCAK، فكان حاكم البحرين ممن فاز بهذا اللقب في سنة ١٥٥٩ م. ومع هذا فقد ظل نفوذ البرتغاليين غير قليل في الجزيرة.^(١)

وقد سبق أن ذكرنا ما قام به بيرى في حملته سنة ١٥٥٢، التي كان منوطا بها إخضاع هرمز والسيطرة على البحرين سيطرة كاملة، ولكنه لم يتمكن من إحراز أهدافه كلها.

ولم يتمكن العثمانيون من القيام بعمل جدي لتوطيد مركزهم في البحرين إلا في سنة ١٥٥٩ م.

ففي هذه السنة أخذ مصطفى باشا - بيلربي الإحساء - على عاتقه القيام بحملة ضد الجزيرة البحرينية دون الحصول على أمر من السلطان العثماني سليمان القانوني.

وقد سار مصطفى باشا بحملته المكونة من سفينتين كبيرتين من نوع KADIRGS، وسبعين سفينة خفيفة مختلفة الأنواع، وسفينة واحدة من نوع . BRIGONTINE

وضمت الحملة ألفا ومائتين من الجنود، منهم عدد لا بأس به من انكشارية بغداد JANISSARIES، وكميات كبيرة من التجهيزات والمؤن والذخيرة، وهناك وثيقة عثمانية لأحد البكوات العثمانيين كان قد اشترك في الحملة يقول فيها إنه قد أرسل قبل الشروع في الحملة ٢٠٠ فارس و ٤٠٠ جندي، يحمل السلاح الناري من قبل البصرة إلى الإحساء - مما يدلنا على أن هذه الحملة كانت باتفاق حاكمي البصرة

(١) د. صالح أوزبيران : الأتراك العثمانيون والبرتغاليون، مرجع سابق، ص: ٥٢.

والإحساء العثمانيين^(١).

وفي ٢٦ من رمضان ٩٦٦ هـ / ٢ من يوليو (تموز) ١٥٥٩ م بدأت الحملة العثمانية حصارها للبحرين، والقيام بالغارات عليها وعلى حصنها (المنامة) التي تقع على الساحل الشمالي للجزيرة.

وقد وصلت أخبار هذه الغارة العثمانية على البحرين إلى هرمز، وعلى الفور تحرك أسطول برتغالي مكون من ٢٢ سفينة من نوع GROB لإنقاذ الجزيرة، وعلى رأس هذا الأسطول القائد جوادي نوروها D. JOAO DNOROHHA ابن عم حاكم هرمز البرتغالي.

وكانت النتيجة أن تمكن الأسطول البرتغالي - بمساعدة القبطان جوادي كولدروز JOAODE QUADROS الذي كان قد خبر الملاحة في الخليج العربي بتجربته الطويلة - من حرق بعض سفن الأسطول العثماني الخاصة بالمؤن والتجهيزات، وأسر سفينتين عثمانيتين من نوع GALLY.

ونظرا لنقص المؤن والتجهيزات، بالإضافة إلى موت البيلربي مصطفى باشا أنهى العثمانيون هذا الصراع، وبسبب تدخل بعض العوامل الجوية حيث بدأت الرياح الشرقية موسمها جالبة معها حمى مميتة سببت الموت لكثير من البرتغاليين والعثمانيين على السواء، ولذلك اتفق الطرفان على السلام بتسليم أسلحتهم للبرتغاليين ودفع غرامة قدرها ١٢٠٠٠ كروزادوس^(٢). وفي مقابل ذلك أخذ البرتغاليون على عاتقهم نقل ما تبقى من جنود عثمانيين إلى البر^(٣).

وعادت جزيرة البحرين إلى ما كانت عليه قبل توالي هؤلاء وأولئك، إلا أنه على الرغم من توقف الحملات العثمانية على هذه الجزيرة، وانحسار النفوذ العثماني

(١) د/ صالح أوزبران - الأتراك العثمانيون، مرجع سابق، ص: ٥٣

(٢) الكروزادوس هي عملة برتغالية تعادل في تلك الفترة ٤٠٠ ريال.

(٣) صالح أوزبران : مرجع سابق، ص: ٥٣، ٥٤، وانظر: نفس الباحث: الدولة العثمانية وطريق الهند، مرجع سابق، ص: ١٣٩، ١٤٠.

فيها، فقد ظلت تشكل منطقة عازلة بين الأتراك العثمانيين في الإحساء والقطيف والبصرة، وبين البرتغاليين في هرمز والمناطق التابعة لهم في مسقط والساحل الجنوبي للخليج.

وعلى الرغم من أن عمليات العثمانيين قد توقفت في الخليج بسبب انغماسهم في الصراع ضد الفرس، وعلى وجه الخصوص عندما أقدم الشاه طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦م) على التقدم إلى الأراضي العثمانية، إلا أنه بعد توقف هذه العمليات سنة ١٥٧٥م جدد السلطان العثماني أوامره إلى بيلرربي بغداد بفتح البحرين، بعد استطلاع الموقف فيها، وكان هذا الأمر نتيجة لما كتبه بيلرربي الإحساء إلى الدولة العثمانية، بأن فتح البحرين سيضمن لها ٤٠.٠٠٠ فلوري سنوياً، ولكن لم يلبث هذا المشروع أن توقف، بعد أن تبين للدولة العثمانية بأن هذا الدخل المزعوم ليس وشيك الظهور، وربما يقل عن النفقات والمصروفات اللازمة للوضع المحلي^(١).

دور علي ميرال في الخليج العربي والشرق الأفريقي^(٢):

لم تحاول الدولة العثمانية تجديد نشاطها في الخليج، إلا في بداية العقد الثامن من القرن السادس عشر، وبالتحديد سنة ١٥٨١م حين قدرت أهمية الاستفادة من فرصة ضم البرتغال إلى التاج الإسباني، على عهد فيليب الثاني سنة ١٥٨٠م، وعهدت الدولة العثمانية إلى علي بيك (ميرال) مهمة هذا النشاط الذي بدأ يظهر ثانية في الخليج، وصاحبت علي ميرال في مهمته هذه أربع سفن من نوع GALLEY اتجه بهم نحو مسقط مغيراً عليها، وتمكن من نهبها بعد انتصاره على القوات البرتغالية بها^(٣).

(١) جمال زكريا قاسم (دكتور): مرجع سابق، ص: ٨٩، ٩٠.

(٢) وصف المسيو جيان علي ميرال هذا بأنه اشتهر بالجرأة والإقدام والهمة، انظر: جيان وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية، مصدر سابق، ص: ٢٧٨.

(٣) ويذكر د/ السيد مصطفى سالم أن علي ميرال قد تمكن من تحطيم قوة البرتغاليين بمسقط واستولى على إحدى سفنهم التي كانت ترسو في الميناء وهي محملة بالبضائع وكانت في طريقها إلى هرمز. - انظر: الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص: ٤٢٣.

وقد فشل البرتغاليون بقيادة لويس دي الميدا D. LUIS DE ALMEIDA في ملاحقة العثمانيين، إلا أن هذا القائد البرتغالي قد قام بمهاجمة بعض السواحل الأخرى فيما يسمى ساحل النواخذة.^(١)

وفي الحقيقة لم تجن الدولة العثمانية - على ما يبدو - أية فائدة تذكر، بل على العكس من ذلك فقد استفاد البرتغاليون بعد أن نبهتهم هذه الغزوة إلى ضرورة تعزيز قواتهم في مسقط، إذ اعتبر البرتغاليون سيطرة العثمانيين وهجومهم عليها بمثابة عار كبير لحق بسلاحهم البحري، وربما كان ذلك هو الذي دفع الحكومة الإسبانية - صاحبة الهيمنة على المستعمرات البرتغالية في ذلك الحين - إلى إصدار تعليماتها بزيادة التحصينات العسكرية، وبناء قلعتين كبيرتين لا تزالان قائمتين بحالهما حتى الآن تحيطان بخليج مسقط، وتضفي عليه جوا من الغموض والرغبة^(٢)

وقد عقد القائد العثماني بعد ذلك العزم على مهاجمة السواحل الشرقية لأفريقيا. ففي سنة ١٥٨٥م ركب مير علي بك أو علي ميرال - كما يذكر - سفينتين حربيتين من الأسطول العثماني، كانت إحداها قديمة بالغة في القدم، إلى حد أنه كان يخشى أن تتفكك أخشابها، مما جعله يتركها^(٣) ويسير في مهمته بسفينة واحدة^(٤). ويذكر أحد الباحثين^(٥) أن مهمة علي بك ميرال، كانت تهدف إلى إحضار بعض

(١) STAVEN JOHN: TRANSLATION OF MANUEL DE FARIA (١) SOUSA, THE PORTUGUESE QSIA 3VOLS. PP. 370 - 372, (LONDON 1695).

(٢) جمال زكريا قاسم (دكتور) الخليج العربي، مرجع سابق، ص: ٩٠، ٩١.
(٣) يذكر جيان في كتابه وثائق تاريخية، ص: ٢٧٨، ٢٧٩، أن ذلك كان سنة ١٥٨٦م، وأن هذه السفينة القديمة قد غرقت.

(٤) الشاطر بصيلي عبدالجليل، تاريخ وحضارات السودان الشرق والأوسط، ١٩٧٢م، ص: ٤٦٣.

(٥) السيد مصطفى سالم (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٣٢٤.

الأخشاب اللازمة لأسطول البحر الأحمر، ولم نجد أحدا من الكتاب والباحثين ذكر هذه الرواية، التي أضاف إليها الباحث أن والي اليمن هو الذي أرسله في هذه المهمة.

وعلى كل فقد أبحر القائد العثماني بسفينته من ساحل الحجاز إلى ساحل شرق أفريقيا، ووصل إلى مقديشيو حيث تعرّف على مشايخها، وأخبرهم بأنه بناء على أمر سلطانه، جاء ليوطد حكمه وسلطته على جميع حكام ومشايخ سواحل مالندي، كما أخبرهم بأن أسطولا ضخما سيحضر على أثره، لتنفيذ الغرض والسيطرة على الساحل^(١).

ثم رحل علي بيك ميرال - بعد ذلك - قاصدا لوزيفا، وعندما وصلها تمكن من الاستيلاء على إحدى السفن البرتغالية، التي كانت محملة بالبضائع الغالية النفيسة - كما يذكر جيان - بفضل معاونة أحد مشايخ هذا الساحل، وتمكن ربان السفينة روك دي بريتو ورجاله من الفرار قبل استيلاء علي بيك عليها ولجأوا إلى لامو.

ولما كان شيخ لامو من المواليين لعلي ميرال، فقد سلمهم إليه فأسره جميعا وأرسل بهم إلى إستانبول حيث لقوا حتفهم هناك.

وفي جهة باتا تمكن علي بيك كذلك من الاستيلاء على سفينة تجارية أخرى، واستحوذ عليها وأصبح لديه حينئذ دونمة صغيرة مؤلفة من السفن التي سيطر عليها، وقد تفرّغ للتجارة عليها بالمدن الساحلية مستفزا سكانها، وحفزهم للثورة على البرتغال.

فاستطاع بذلك إشعال نار الثورة على المستعمرين بين سكان امبازا، ولامو، وممبسة، وكليفي، وبراهو، ويوجو وغيرها من المدن، كما حملهم في الوقت نفسه على الإقرار بالطاعة لسلطان العثمانيين مثلما فعل بسكان مقديشيو، وقد نجح في ذلك كله بإيهامهم أن من ورائه أسطولا كبيرا من قبل الدولة العثمانية لا يلبث أن يصل.

وقد أفاده هذا الإيهام، لأن القوة التي كانت معه لم تكن كافية لإخافة الناس، على

(١) نفس المرجع، ص: ٤٢٤ - ٤٢٥.

الساحل وإرهابهم، إذ كان عدد رجالها لا يتجاوز ثمانين رجلا.. كما أن سفينته الحربية كانت في حالة يرثى لها، لحدوث ثغرات في جوانبها أدت بعد ذلك إلى غرقها في مياه ساحل مصوع^(١).

ويذكر أيضا أن علي ميرال قد استقبل بحماسة بالغة من ميناء إلى آخر، حيث أعلنت كل من مقديشيو وبراو و قسمايو وفازا وبات ولامو تحويل تبعيتها من الملك المسيحي فيليب الثاني إلى السلطان المسلم مراد الثالث^(٢).

كما كانت ممبسة أسبق مدن شرق أفريقية إلى ذلك، حيث طلب شيخها من القائد التركي بناء قلعة وتزويده بحاميات عثمانية.

وقد عاد علي بيك إلى الآستانة سنة ١٥٨٦م ومعه خمسون أسيرا برتغاليا ومجموعة كبيرة من الغنائم، وبدا ذلك نصرا كبيرا للعثمانيين^(٣).

إلا أن سلطان مالندى أرسل بخبر القائد العثماني علي ميرال إلى القائد البرتغالي دوم دوارتي دي مينزس وتفاصيل جولته، فما كان من هذا القائد إلا أنه قد أعد في ميناء جوا أسطولا مكونا من ثمانى عشرة سفينة، وعلى رأسها القائد البرتغالي مرتيم أفونسودي ميلو بومبيرو، فوصل أمام ممبسة وأحرقها، فخضعت له باقي المدن وتنصلت من تبعيتها للدولة العثمانية، بعد تأديب الأسطول البرتغالي لهم وتهديدهم، ما عدا مقديشيو التي صمدت، بفضل قوة أسوارها وبسالة رجالها، ولم تبد ممبسة أية مقاومة، لأن أهلها قد رحلوا عنها، أما شيخا لامو وبات فقد تذرعا بأن الثورة فرضت عليهما من قبل العثمانيين، ولأن شيخ لامو بالفرار.

(١) جيان : وثائق تاريخية، مصدر سابق، ص: ٢٧٩، ٢٨٠

(٢) تولى السلطان مراد سلطنة الدولة العثمانية من ١٥٧٤، إلى ١٥٩٤م.

انظر : القاضي حسين بن أحمد العرشي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من

ملك وأمام، القاهرة ١٩٣٩م، ص: ٦٢

(٣) جمال زكريا قاسم (دكتور) : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، مرجع سابق،

ص: ١٠٠، ١٠١.

أما فازا فقد أعمل البرتغاليون فيها صنوف الدمار، وأحرقوا المدينة بعد أن ذبحوا شيخها مع مئات من سكانها، كما أغرقوا جميع السفن التي كانت راسية هناك في الميناء.

وقد استفاد علي بيك ميرال من البيانات التي حصل عليها في رحلته الأولى، ولم يمض وقت طويل حتى أعد أسطولا صغيرا مكونا، من خمس سفن وتحرك بها من ميناء مخا في أوائل ١٥٨٩م، فوصل إلى ماليندى التي قاومتها مقاومة عنيفة اضطرتة للانسحاب، فأتجه إلى ممبسة ليتجهز فيها لهجوم مباغت على ماليندى.

وفي ذلك الوقت كان مانويل دي سوزاكوتنهو - حاكم الهند البرتغالي - يعد أسطولا مكونا من عشرين قطعة حربية، تقل تسعمائة جندي تحت قيادة أخيه تومي دي سوزاكوتنهو، الذي أبحر إلى الشرق الأفريقي ومرّ على براوة وأمبارا ولامو وماليندى، حتى وصل في ٥ مارس ١٥٨٩م إلى ممبسة حيث كان علي بيك ميرال متحصنا بها^(١).

وبينما كان القائد البرتغالي (تومي) يستعد لمهاجمة المدينة بحرا إذ بقبيلة وازيمبالا (آكلة لحوم البشر) تصل إلى ممبسة وتجعل أهل المدينة ومعهم الأتراك العثمانيون، بقيادة علي بيك ميرال بين شقي الرحى، البرتغاليون من البحر، وأكلوا لحوم البشر من البر (الداخل)، وهجمت تلك القبيلة الهمجية بوحشية على أهالي ممبسة، ومن بها من العثمانيين بعد الاتفاق مع البرتغاليين، وأخذ هؤلاء يقتلون ويذبحون، وحاول الكثير منهم أن يرمى نفسه في البحر فكانت سهام البرتغاليين تحصدهم حصدا.

ولم ينج من الأتراك العثمانيين سوى من وقع أسيرا في يد البرتغاليين، وكان من

(١) جيان : وثائق تاريخية، مصدر سابق، ص: ٢٨٠، ٢٨١، وانظر : السيد مصطفى سالم (دكتور): الفتح العثماني الأول لليمن، ص: ٤٢٤، ٤٢٥، وانظر : الشاطر بصيلي عبدالجليل: تاريخ وحضارات السودان، ص: ٤٦٣، وانظر: جيمس دفي: الاستعمار البرتغالي في أفريقيا ترجمة الدسوقي حسنين المراكبي، القاهرة، ١٩٦٣م، ص: ٨٢.

ضمن الأسرى القائد العثماني علي بيك الذي أرسل إلى لشبونة وفيها توفي^(١).

وبتبدد حملة علي ميرال هذه - على النحو السابق - يكون قد انتهى آخر نشاط بحري عثماني كبير في البحار العربية الجنوبية، وقد كان من الممكن أن يقضي العثمانيون على قوة البرتغاليين البحرية في البحار الشرقية في ذلك الوقت، إذ كانت البحرية البرتغالية تعاني ضعفا شديدا من جراء الهزيمة التي لحقت بالأرمادا سنة ١٥٨٨م^(٢)، ولكن الفرصة ضاعت من أيدي العثمانيين لضعف قوتهم البحرية في ذلك الوقت أيضا، ربما لهزيمتهم في معركة ليبانتو البحرية في ١٧ أكتوبر ١٥٧١م، أمام الحلف الأوروبي في البحر المتوسط^(٣).

ولم يبق أمام العثمانيين بعد ذلك إلا ميدان ضيق أمام السواحل اليمنية، كما أصبح الهدف الوحيد لهذا النشاط هو اتخاذ السواحل اليمنية قاعدة للدفاع عن سواحل البلاد المطلة على البحر الأحمر، فعملوا على منع البرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين - الذين جاؤا إلى الشرق منذ نهاية القرن السادس عشر الميلادي - من الولوج في هذا البحر، أبعد من المواني اليمنية، وبالتحديد من ميناء مخا، وتمكن العثمانيون بذلك من وضع تقليد جديد، وهو تحديد نطاق توغل السفن الأوروبية بحجة أن الحرمين الشريفين يطلان على هذا البحر^(٤).



(١) جيان : مصدر سابق، ص: ٢٨٢.

(٢) كان الأسطول البرتغالي مع الأسطول الإسباني في تلك المعركة التي تمت بتدمير الأسطولين السابقين على يد الأسطول الإنجليزي.

(٣) وقعت هذه المعركة بين الحلف الأوروبي المكون من البندقية وإسبانيا ومالطة وفيها تحطمت القوى البحرية العثمانية فتم غرق أو إحراق ٩٤ سفينة، ووقعت ١٣٠ سفينة أخرى في الأسر، كما خسر العثمانيون فيها أكثر من ثلاثين ألف جندي، انظر : السيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص: ٤٣٨.

(٤) السيد مصطفى سالم (دكتور) : نفس المرجع السابق، ص: ٤٣٥.

الفصل الرابع
نتائج الصراع البرتغالي العثماني

نتائج الصراع البرتغالي العثماني

- * النتائج السياسية.
- * محاولة الصلح بين
البرتغاليين والعثمانيين.
- * النتائج الاقتصادية.
- * النتائج الحضارية.
- * النتائج العسكرية.
- * اهتمام العثمانيين
بتأمين البحر الأحمر

الفصل الرابع

نتائج الصراع البرتغالي العثماني

كان للصراع البرتغالي عدة نتائج يمكن أن نجملها فيما يلي :

أولاً : النتائج السياسية :

يستلّف نظر الباحث عند دراسة النتائج السياسية، التي ترتبت على غزو البرتغال لمنطقة الشرق - بما فيه شرق أفريقيا والمحيط الهندي والخليج العربي - إبان القرن السادس عشر الميلادي، أن الأوضاع السياسية في هذه المناطق قبل وصول البرتغاليين، كانت تعاني من تفكك سياسي في أوصال المناطق العربية بسبب ضعف القوى السياسية المسيطرة عليها، وانشغالها بخلافاتها المذهبية والسياسية، مما كان عاملاً رئيسياً ساعد البرتغاليين في فرض سيطرتهم على المناطق العربية والإسلامية، في وقت اشتد فيه ضغط الإسبان على مناطقها الغربية، على أثر حركة الاسترداد الشهيرة، حتى كاد يخيّل للبرتغاليين أن بإمكانهم تحطيم القوى السياسية العربية والإسلامية، بسلبها مصادر قوتها الاقتصادية والتحكم في طرق تجارتها والسيطرة على مقدساتها الإسلامية.^(١)

ولم يقتصر التفكك السياسي على القوى المحلية، بل تعداه إلى القوى الإسلامية الكبرى، التي انشغلت إما في تدعيم قواعد حكمها أو في صراعات قامت فيما بينها. وكانت الفترة التي واكبت الغزو البرتغالي لمنطقة الشرق الأفريقي وما بعدها، تعد فترة تحول بالغة الأهمية بالنسبة للقوى الإسلامية، التي تصدرت لزعامة العالم الإسلامي في ذلك الوقت، لقد شهدت تلك الفترة أفول بعض القوى الإسلامية وظهور بعضها الآخر، نلاحظ أنه في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وعلى وجه التحديد في عام ١٤٩٢ م سقطت آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس.^(٢)

(١) بدر الدين عباس الخصوصي (دكتور) : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، والمعاصر، الكويت ١٩٧٨ م، ج ١، ص: ١٤

(٢) جمال زكريا قاسم (دكتور) الاستعمار البرتغالي بين الخليج العربي وشرق أفريقيا (ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٧ م)، ص: ٢

ومنذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، أخذ العثمانيون يحولون وجهتهم من الغرب، بعد أن توغلوا حتى أسوار فيينا عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلى جهة الشرق على حساب الشعوب الإسلامية، وفي نفس الفترة تأسست الدولة الصفوية الشيعية في فارس وأخذت في التوسع، كما بدأ انهيار الدولة المملوكية التي كانت تسيطر على كل من مصر والشام والحجاز، وظهور الدولة المغولية في الهند^(١).

وكل هذه التحولات السريعة في العالم الإسلامي - والتي تزامنت مع وصول البرتغاليين إلى الشرق - لم تؤد إلى تكاتف الأيدي والتكتل والتضامن لتكوين قوة عربية إسلامية لمواجهة الخطر الداهم من قبل الغرب، بل على العكس من ذلك، فقد انشغلت القوى الإسلامية والعربية في صراعات مذهبية فيما بينها، أو فيما بينها وبين القوى الأخرى المجاورة لها. فمثلاً كان قيام الدولة الصفوية في فارس على يد الشاه إسماعيل الصفوي (١٤٩٩ - ١٥٢٤ م) الذي أخذ يسعى لتوطيد دعائم دولته التي اتخذت من تبريز عاصمة لها^(٢)، أدى قيام هذه الدولة إلى ظهور الصراع المذهبي بينها - كدولة تعتبر نفسها حامية المذهب الشيعي، وبين الدولة العثمانية التي اعتبرت نفسها حامية المذهب السني، واستمر هذا العداء المذهبي، حتى تفجر الموقف في معركة جالديران في عام ١٥١٤ م، التي أسفرت عن هزيمة الصفويين، وتوجه العثمانيون بعدها إلى القضاء على المماليك في مرج دابق ١٥١٦ م، ثم الريدانية سنة ١٥١٧ م.^(٣)

كما أن الصراع الدائر بين القوى الإسلامية والهندوكية في الهند أنهك تلك القوى. ولقد ترتب على هذه الصراعات الجانبية بين القوى الإسلامية، أن شغلتها عن مواجهة البرتغاليين، الذين أصبحوا يجوبون المياه الهندية وترسو سفنهم في موانئها، فما كان من سلطنة كجرات الإسلامية إلا أن استنجدت بدولة المماليك في

(١) مصطفى محمد رمضان (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٦٢.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ١١١.

(٣) محمد فريد بك : مرجع سابق، ص: ٧٤.

مصر - رغم بعد المسافة - وفي تلك السواحل تعرض الأسطول المصري للهزيمة من البرتغاليين في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ م^(١)، وأدى ذلك إلى سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج والمحيط الهندي، وأسسوا مستعمرة في الهند يرأسها نائب الملك^(٢).

وبعد أن استولى العثمانيون على الشام ومصر، وأبعدوا المماليك عن دائرة الصراع، وجَّهوا أنظارهم إلى البحر الأحمر الذي أصبح مهددا من قبل البرتغاليين، ولكن عبور هذا البحر والوصول إلى الهند يحتاج إلى بناء أسطول بحري قوي، وعلاقات سياسية مع الدويلات التي تقع على ضفتيه، فاليمن لها موقف سابق من المماليك والعثمانيين من بعدهم، خشية تسلط هاتين القوتين والسيطرة على اليمن لإيجاد قواعد بحرية، لتمكن القوة العثمانية من مواجهة البرتغال. وهذا مالا يقبله سلاطين اليمن، فنجد هنا منحى آخر يضعف المواجهة الإسلامية ضد البرتغاليين.

وهكذا كشفت تلك التحولات السريعة التي تعرض لها العالم الإسلامي، عدم تضامن تلك القوى في مواجهة البرتغاليين، مما جعل ذلك العدو يمكن لنفسه، ويؤسس قوة ضاربة صعب على القوى الإسلامية مواجهتها.^(٣)

كما أن الصراع الذي دار بين القوى الإسلامية، كان لها أثر سلبي على الموقف العسكري والسياسي للشرق الإسلامي، حيث أصبحت السياسة التي انتهجتها هذه الدول سياسة لم يراع فيها مدى خطورة القوة القادمة من الغرب، والتي لاقت كل عون ومباركة من جميع القوى الأوروبية، وعلى رأسها الكنيسة التي جعلت جلَّ اهتمامها الكشف الجغرافي والوصول إلى بلاد برستر جون الملك المسيحي في الشرق، لوضع حد للقوى الإسلامية المتنامية في الشرق، والتي كان لها دور كبير في طرد

(١) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤، ص: ١٨٥.

(٢) مديحة أحمد درويش، (دكتورة) : سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، جدة ١٩٨٢، ص: ٢٧.

(٣) شوقي الجمل (دكتور) : ندوة رأس الخيمة التاريخية، مرجع سابق، ص: ٢٨.

الصلبيين من المشرق العربي، لقد عقد الغرب الأوروبي العزم على التخلص من العرب، وطردهم من شبه الجزيرة الأيبيرية وتعقبهم في ديارهم، ومحاولة الوصول إلى بلد التوابل، وقفل الطريق على التجارة العربية والإسلامية وجعلها تحت سيطرتهم^(١).

هذه السياسة التي اتبعتها الغرب ونفذتها البرتغال بكل دقة، نتج عنها انهيار سياسي لكل القوى المحلية المسيطرة على سواحل البحر الأحمر وموانئه، وبشكل خاص المماليك والطاهرين^(٢)

ويتضح من السياسة التي انتهجتها البرتغال في علاقاتها بالمستعمرات، التي أصبحت تحت سيطرتها، ومانتج عن هذه السياسات من تدهور في الأحوال السياسية والاقتصادية للقوى الإسلامية والعربية، في المناطق التي وقعت تحت السيطرة البرتغالية، وكذلك المناطق الأخرى التي تضررت من جراء هذه السياسة التي اتبعتها البرتغال، بينما نرى - بعد تولي القائد البرتغالي ديوجو لوبيس دي سكويرا (DIOGE LOPES SGUEIRA) الذي حكم الهند بعد وفاة البوكيرك عام ١٥١٥م، عند عودته من هرمز إلى كوة في الهند - يذكر أن سكويرا عمل على تطوير سياسة البرتغال، وتوسيعها في المحيط الهندي، وسمح للسفن البرتغالية التجارية بالمتاجرة مع بلدان شرق أفريقيا والهند، وضمن لها الأمن والحماية مما زاد من عددها في المياه الهندية، الأمر الذي جعلها تتمادى في أعمالها التي لم تقتصر على التجارة فحسب، بل تجاوزت حدها إلى أعمال القرصنة، في عرض البحر، فمارست النهب للسفن غير البرتغالية، كما أغارت على الشواطئ^(٣).

(١) : Germa Beshah and others :

The question of the union of the churches in Luso Ethiopian Relations (1500 - 1632) Lisbon - 1964, p. 18.

(٢) مديحة أحمد درويش (دكتورة) : مرجع سابق، ص: ٢٤

(٣) بشير أحمد كاظم : التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر، ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٧م، ص: ١٢، ١١.

وقد أثرت هذه السياسة سلبا على سير الحياة السياسية والاجتماعية للدويلات التي كانت سيدة لهذه البحار.

وبعد ازدياد نشاط البرتغاليين البحري، وامتداد سيطرتهم على معظم موانئ البحر الأحمر والخليج العربي وغرب الهند، عمدوا إلى اتباع سياسة استعمارية جديدة تتلاءم وإمكاناتهم البشرية^(١). وعلى هذا النمط بنوا سياستهم الاستعمارية. وجعلوها تعتمد على عدة أسس نذكر منها مايلي :

أولاً : السيطرة على الطريقين الرئيسيين للتجارة الشرقية، بعد غلق منفذيهما المؤديين للبحار العربية والمتصلين بمياه المحيط الهندي، وقطع الطريق على التجار والملاحين العرب والمسلمين، والقضاء على السفن الإسلامية في المحيط الهندي، وطرد هؤلاء التجار من المراكز التجارية الهندية والأفريقية، وحظر مزاولة التجارة في المحيط الهندي لغير البرتغاليين.

ثانياً : وضع أيديهم على المحطات التجارية في الساحل الغربي للهند، مثل مدينة (جوا GOA) ومدينة (ديو DUO) * وكجرات وغيرها من الموانئ الرئيسية الهامة، التي كانت تعج بالتجار والعرب والمسلمين، الذين غدوا لا يستطيعون الاقتراب منها إلا بإذن مسبق من الحاكم البرتغالي^(٢).

وقاموا ببناء قلاع وحصون في هذه الموانئ، لحماية الأسطول البرتغالي أثناء تحركاته في المحيط الهندي، لفرض سياسة الاحتكار بالقوة، وعدم السماح للسفن الإسلامية بممارسة أي نشاط ملاحى أو تجارى في هذه المنطقة أو غيرها من المناطق

(١) كانت البرتغال لا تمتلك أعداداً بشرية كبيرة تسمح بانتشارها وتمكينها من المناطق التي احتلتها، وتوطينهم على شكل مستوطنات بعيدة عن البلد الأم، حيث أن تعداد سكان البرتغال في القرن السادس عشر الميلادي لم يتجاوز المليون نسمة.

انظر : عبدالعزيز الشناوي (دكتور) معالم الوجود البرتغالي في شرقي الجزيرة العربية، لجنة تدويل قطر، ١٩٧٦م، ج٢، ص: ٦٢٥.

(٢) حسين مؤنس : الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة ١٩٣٨م، ص: ٤٤.

* انظر منظر عام لديو بالهند، (ملحق رقم ٢٠) ص: ٢٨٢.

التي سيطروا عليها، وأخذت سفنهم تجوب المحيط الهندي والبحار العربية، فما قابلت سفينة عربية وإلا نهبتها وقتلت من فيها، وتغير على الشواطئ العربية حيث تنهبها وتقتل سكانها وتحرقها ثم تولى الأدبار^(١).

وغدت الأطماع البرتغالية أشد ضرواة، وقد عبّر البرتغاليون عن وحشيتهم وشراستهم باستخدام أشد أنواع الإرهاب والقسوة في معاملاتهم مع الموانئ والسفن العربية التي كانوا يعثرون عليها.

ومن وحشية البرتغاليين ما أشارت إليه وثائقهم التي أوردها جوادي بروس، والتي عبّر فيها عن أحقادهم الصليبية، معترفا بأعمالهم الوحشية حيث قال: «عندما غزا الكفار - خاصة العرب منهم - وكانوا قد تركوا بلادهم الواقعة في الشرق، ووفدوا إلى بلادنا في الغرب.. ثم قضت إرادته أن يمارس البرتغاليون حقهم الطبيعي هذا، بعد انقضاء قرون عدة وبالطريقة ذاتها بحد السيف.. ليس في الجزيرة العربية الجذباء، حيث دمروا مدنها وخطفوا نساءها وأطفالها، واستولوا على الثروات والأوطان فيها، فقط، ولكنهم غزوا الفرس، وقد دفع الفرس ثمن إهانتهم لإسبانيا لأنهم اعتنقوا ديانة أولئك العرب المتخلفين»^(٢).

وهناك وثائق عديدة مثل الرسائل التي يرسلها سلاطين الدويلات الإسلامية، التي رضخت لحكم البرتغاليين، ويذكرون فيها أفعال قوادهم مع التجار المسلمين، بل ومع نفس السلاطين مثل رسالة السلطان محمد شاه سلطان هرمز الذي أرسلها إلى الملك دون جوان ملك البرتغال (D. Joao 111.)، يشرح فيها معاملة القبطان ديوكو دميلو (CAPITAO MOR DIOGODE MELLO)، عندما أتى إليه وطلب المبالغ المقرر دفعها، وفي ذلك العام قل دخل هرمز وأجبره على دفع المبلغ، وإلا سوف يلقي به في السجن، وفعلا يشير من خلال رسالته للملك إلى أنه وضع في

(١) محمود السمرة: الصراع بين العرب والبرتغاليين في شرق أفريقيا، مجلة العربي الكويت، العدد ٥٩، ١٩٦٣م، ص: ١٣٢.

(٢) جوادي بروس: الوثائق البرتغالية، العشارية الثانية، القسم الأول، ص: ١.

السجن لمدة عام^(١)

ورسالة أخرى من حاكم كلوة الحاج حسن بن محمد راكان للملك دون مانويل (D. MANOEL) مؤرخة في ١٧ يوليو ١٥١١م يذكر سوء معاملة القبطان برنردو فريري (BERNAR DO FREIRE)، وأنه طلب منه ألف مثقال من الذهب، رشوة حتى يبقيه في الحكم^(٢).

كما أننا نجد هذه السياسة التعسفية التي اتبعتها القادة البرتغاليون في إدارة شئون هذه المناطق، التي تم الاستيلاء عليها بالقوة، في حين كانت سياسة القوى الإسلامية والعربية من الضعف، بحيث أنها لم تستطع الوقوف كما يجب لردع هذه القوة البحرية الآخذة في التوسع والانتشار.

ولنعد إلى شرق أفريقيا لنرى كيف استطاعت السياسة البرتغالية أن تحقق أهدافها، في إنشاء علاقات واتقافيات مع ملوك الحبشة وشيخ ماليندي^(٣)، الذي أفسح لهم الطريق، واستغلوا العداء المستحكم بين ماليندي وممبسة للسيادة على الساحل الأفريقي، مما ترتب عليه انهيار قوة كل من الطرفين، وهذا بدوره خدم البرتغاليين في فرض سيطرتهم على الساحل الشرقي لأفريقيا، فقد سقطت كل من لامو وبراو وجزيرة سوقطرة وموزمبيق في عام ١٥٠٦، و١٥٠٧م على يد القائدين البرتغاليين البوكيرك (AL BUQUERQUE) ودوارت داميلو (DUARTE DE MELLO)^(٤).

(١) انظر : رسالة السلطان محمد شاه سلطان هرمز للملك دون جوان الثالث، عام ١٥١٧م،

ضمن الوثائق العربية بالارشيف البرتغالي، لشبونة.

(٢) FR. JOAO DE SOUSA : DOCUMENTOS ARABICOS - LIS- (٢) BOA 1790. P. 44 - 478

(٣) يمكن استنتاج هذا الولاء لملك البرتغال من قبل سلطان ماليندي (ملنزة) في رسالته التي يستعطف فيها، ويقدم له كل الولاء والطاعة نظير إعطائه مبلغا من المال الذي حصلوا عليه من الدية (سرنديب)، والرسالة ضمن الوثائق المحفوظة في أرشيف (توري دي تومبو - لشبونة): N. T. T. NO 120 (TORRE DI TOMBO ARCHIVE IN LISBON).

(٤) شوقي الجمل (دكتور) : ندوة رأس الخيمة التاريخية، ص: ٢٨.

ونتج عن هذا الغزو المسلح بأسلحة متطورة وسفن كبيرة (*) أعدت إعداداً جيداً لغزو البحار العربية والإسلامية، انهيار كامل لسياسة القوى العربية والإسلامية، مقابل السياسات التي انتهجها المستعمر الذي لم يسبق للمنطقة أن عرفت مثله، في وحشيته وعدائه لأهالي هذه المنطقة من العالم الإسلامي، والدور الذي لعبته البرتغال، من استغلال الظروف السيئة التي كانت تعيشها القوى الإسلامية المتطلعة إلى توسيع رقعتها على حساب جيرانها الضعفاء، مثل الدولة العثمانية، وتوسعها شرقاً، والدولة الصفوية وتوسعها شمالاً وغرباً على حساب العراق والشام.

وقد قام البرتغاليون في عام ١٥٢٢م بوضع سياسة، تركز على جعل الموظفين البرتغاليين هم المسؤولين عن الجمارك، وعلى أثر هذه السياسة، وقع تمرد بالبحرين وقريات وصحار، وهوجمت هذه الأماكن، بناء على أوامر صدرت من ملك هرمز، وكان أمله التخلص من سيطرة البرتغاليين، وكذلك قامت في عام ١٥٢٦م ثورات أخرى في قلعات ومسقط^(١). إلا أن البرتغال تمكنت من إخماد هذه الثورات - ولو مؤقتاً - حيث استعادوا سيطرتهم على البحرين عام ١٥٢٩م.^(٢)

وكانت هناك محاولات عثمانية بين عامي ١٥٥٠م و ١٥٨٠م للتصدي للنفوذ البرتغالي في الخليج، لكنها لم تتمكن من ذلك، ونتج عنها أن القوى المحلية السياسية أخذت تتعاضد في كل من شرق أفريقيا والخليج، حتى تمكنوا من تغيير الوضع السياسي بالمنطقة إلى صالحهم بعض الشيء، وظهور قوى سياسية جديدة مثل قوة اليعاربة في عمان، بالتعاون مع القوى السياسية والقبائل العربية لتحرير شواطئها من الاستعمار البرتغالي، مستفيدين من الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تمر بها الإمبراطورية البرتغالية، مما جعلهم يقفون منها موقف التحدي، ويشكلون عاملاً رئيسياً من عوامل انهيارها سياسياً وتجارياً في الشرق^(٣).

* انظر سفينة حربية في أرشيف (توري دي تومبو - لشبونة).

(١) ويلسون : مرجع سابق، ص: ٢١٨

(٢) عائشة السيار (دكتورة) : مرجع سابق، ص: ٢٨

(٣) جمال زكريا (دكتور) : ندوة رأس الخيمة التاريخية، ص: ١٦

وتأتي محاولات الصلح بين البرتغاليين والعثمانيين، نتيجة لفشل الصراع الدائر بينهما في الشرق الأفريقي والمحيط والخليج، لدافعة كل منهما للآخر عن مناطق النفوذ ذات الأهمية الاستراتيجية في هذه المناطق، وهذه المحاولات هي :

محاولات الصلح بين البرتغاليين والعثمانيين :

كانت مشقة الصراع البرتغالي العثماني، للسيطرة على تجارة الشرق جعلت كلاً من الطرفين، يميل إلى إيجاد مخرج من هذا الصراع الذي تمثل في محاولات لعقد اتفاقية تجارية وسياسية بينهما.

وقد كان لملك البرتغال السابق في ذلك، ووجد بعض الاستجابة من الإدارة العثمانية في استانبول، فقد اقتنع العاهلان البرتغالي والعثماني بعدم جدوى المعارك الحربية، التي كان فيها المنتصر خاسراً، وكذلك المنهزم أشد خسراناً، وقد تشابهت كثير من المعارك في نتائجها.

فعلى الرغم من استعدادات العثمانيين الباهظة، وقطعهم المسافات الطويلة من السويس إلى ديو بالهند بأسطول ضخم، إلا أنه لم يحقق النتائج المرجوة سوى تهديد بعض السواحل، وأسر بعض الجنود أو بعض السفن من الجانب المعادي.

وعلى نفس الوتيرة كانت حملة السويس البرتغالية، التي اكتملت فيها الاستعدادات العسكرية ومئات الأميال التي قطعها من الهند إلى السويس، ثم عادت دون تحقيق نتائج مرجوة اللهم إلا تهديد بعض السواحل.

هذا بالإضافة إلى وقوع بعض الأحداث السياسية والعسكرية الأخرى، التي دفعت الدولتين إلى التفكير في حل مشاكلهما عن طريق الصلح والمصالح المشتركة بينهما.

ويؤكد بعض الباحثين^(١) على أن عروض الصلح قد جاءت أولاً من طرف ملك

Stripling, G. W. F.: The Ottoman Turks and the Arabs - 1511 - 1574 U.(١)
S. A. Urpana - 1942 - p. 93.

انظر : عبدالعزيز الشناوي (دكتور) المراحل الأولى، مرجع سابق، ص: ٦٨٢

البرتغال، بعد إدراكه جيداً مدى قوة العثمانيين التي أخذت في التزايد، ولأنه فضل عدم الاستمرار في إثارة الدولة العثمانية، كما حدث عندما هاجم ستافودا جاما السويس.

إلا أن وقائع الأحداث تبين اتجاه البلدين نحو رغبة واحدة، هي معالجة المشكلات عن طريق الصلح.

فقد كانت البداية عندما أمر السلطان العثماني سليمان القانوني شخصاً نصرانياً، كان يقوم بإستانبول منذ فترة طويلة يدعى كوتنهو COTANHO بتقصي الأخبار والمعلومات السرية عن الإدارة البرتغالية في الهند ونشاطاتها هناك.

وكوتنهو هذا كان - على ما يبدو - جاسوساً مزدوجاً - أي عمل لحساب الطرفين، على الرغم من أنه بندقى وكان يعمل سفيراً غير مكلف بإستانبول، فعندما بعثه السلطان سليمان، توجه أولاً إلى هرمز، وهناك أبت عليه نصرانيته إلا أن يفصح لإخوانه في الدين - البرتغاليين - عن القصد من مهمته، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فقد أرسل - بمساعدة حاكم هرمز يخبر حاكم جوا (نائب الملك) بمهمته الحقيقية، ويقدم شتى النصائح إلى السلطات البرتغالية، عن مدى استعداد العثمانيين وقوتهم البحرية، وعدد سفنهم في السويس وغير ذلك.

وأرسل حاكم جوا على الفور إلى الملك البرتغالي في لشبونة، يخبره بما سمع من كوتنهو، وقد أقلقته هذه المعلومات التي تخص استعدادات العثمانيين ملك البرتغال فتهياً على ما يبدو للتفاوض صلحاً.

وعلى كل فقد دارت المفاوضات بين الطرفين بصورة أو بأخرى، كان رسولها في البداية كوتنهو هذا، وانحصرت مطالب السلطان العثماني فيما يأتي:

١ - طلب كمية من الفلفل تحتاجها الدولة العثمانية تقدر بـ ٢٥٠,٠٠٠ كجم من الفلفل الأسود، مقابل تأمين حصول البرتغاليين على ٣٨٠٠ طن من الحبوب.

٢ - عقد صلح بينهما في المحيط الهندي لمدة مابين ٥ إلى ١٥ سنة^(١).

بينما اشتملت مطالب ملك البرتغال على ما يلي :

١ - إن بإمكانه إعطاء العثمانيين ٢٥٠٠ أو ٣٥٠٠ قنطار من الفلفل الأسود على أن يتم تسليمه في ميناء البصرة، في مقابل تسليم ١٠,٠٠٠ قنطار من الحنطة في ميناء السويس أو سلانك أو بلاد الحبشة^(٢).

٢ - أن يتم إبرام الصلح لمدة خمسة عشر عاما على الأقل.

٣ - عدم تواجد قوات الطرفين بكثرة في عدن.

٤ - حرية الملاحة في البحر الأحمر، وحرية التجارة في جدة.

٥ - عدم إنشاء أساطيل عثمانية في المحيط الهندي مدة استمرار الصلح.

ويذكر أن كوتنهو بقى في إستانبول حتى ٢ من يوليو (تموز) ١٥٤٠م، ثم سافر إلى القاهرة، حيث نقل إلى الملك البرتغالي مابها من استعدادات للعثمانيين، مخبرا إياه بوجود ست وأربعين سفينة في السويس بعضها غير صالح للإبحار.

وفي رسالة من السلطان العثماني سليمان القانوني أرسلت في ٣١ من يناير (كانون الثاني) ١٥٤١م، ظهرت شروط أخرى له حيث طلب فيها ٤٠٠٠ قنطار من الفلفل، تسلم إلى السفن العائدة للدولة العثمانية في كلكتا، على أن لا يكون القمح مقايضة بالفلفل، إنما يكون بموجب شروط البيع المعقودة مع فرنسا والبندية، كما طالب السلطان في رسالته بعدم تجاوز الخطوط التجارية لمدينة شهر وعدن وزيلع من قبل الطرفين، والاعتراف بالحدود الدولية والإقليمية، وتأمين سير السفن التجارية في البحر.

والواقع أن الدولة العثمانية كانت بحاجة ماسة إلى البهارات، كما كان

(١) صالح أوزبران : الدولة العثمانية وطريق الهند، مرجع سابق، ص: ١٠٥، ١٠٦

(٢) يذكر المرجع الذي بين أيدينا أن يتم التسليم في NEGRA PONTE، وهي تعني مناطق الزنوج حرفيا، إلا أنه شاع استخدامها على بلاد الحبشة.

البرتغاليون بحاجة كذلك إلى الحبوب، وكلاهما أحوج لتبادل المنافع في جو يسوده الود والتعاون في أية صورة.

ويبدو أن الرسل قد أخذوا يتنقلون بين العاصمتين البرتغالية والعثمانية من أجل هذا الغرض.

فقد ظهر رسول آخر بين الطرفين يدعى ديجو دي ميسكوت DIOGO DE MESQUITE بعد كوتتهو، عندما أرسل الملك البرتغالي بتاريخ ٦ من كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤١م مطالباً السلطان بكمية من القمح تبلغ من ٨,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ MOIO^(١) في مقابل خمسة آلاف قنطار من الفلفل.

وفي الوقت الذي كان فيه السفير ميسكوت قد وصل إلى إستانبول، كان البرتغاليون في المحيط الهندي يتظاهرون بالالتزام باتفاقيات الصلح المزمع إبرامها مع الدولة العثمانية، وأنهم لن يقوموا في المستقبل بعمل يناقض هذه الاتفاقيات.

وفي رسالة أخرى بعث بها السلطان العثماني في سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤م أصر فيها على شرطين أساسيين^(٢) هما : إرسال كمية الفلفل المطلوبة، والالتزام بعدم تواجد سفن لوزيتانيا LUZITSNYA في سواحل مدينة شحر وعدن وزبيد وجدة وسواكن وسواحل الحبشة كذلك. وكانت هذه الرسالة بيد رسول برتغالي آخر يدعى إدواردو كاتينو^(٣) ODOARD CATANEO، مما يدلنا على تعدد السفارات بين البرتغاليين والعثمانيين في سبيل التبادل التجاري، وإبرام معاهدة صلح بين الطرفين.

ومن ذلك ما حدث من تقارب ودي بين الدولتين، بعد أن فتح العثمانيون البصرة منطلقين من أهمية التجارة عبر الخليج العربي.

(١) يعتقد أن لفظة MOIO يقصد بها الإردب.

(٢) انظر : رسالة السلطان العثماني سليمان القانوني إلى ملك البرتغال JOAO ملحق رقم

(٣٦) ص: ٣٤٦ - ٣٤٧

(٣) صالح أوزبران : الدولة العثمانية وطريق الهند، مرجع سابق، ص: ١٠٧، ١٠٨.

فقد تم إيفاد التاجر العربي حاج فياض HAJI FAYAT. حاملا رسالة إلى الحاكم البرتغالي في هرمز مانوئيل دي ليما MANUEL DE LIME، وأوضحت الرسالة نوايا السلطات العثمانية في العراق.

وعلى الفور كتب دي ليما تقريراً إلى حاكم الهند (نائب الملك) يخبره بأن إيأس باشا الموظف التركي الرئيسي ^(١) في العراق، مصمم على جعل البصرة مرتعا أو مركزا للتجار. ^(٢)

ولا يدري الباحث أكان هذا تحذيراً من السلطان العثمانية ومهادنة للقوى البرتغالية في المنطقة، أم هي رغبة جادة في جعل البصرة ميناء حراً للتجارة، إلا أن الواضح أن هذه الجهود جميعها، لم تسفر عن نتائج حسنة في سبيل تحسين العلاقات بين البرتغاليين والعثمانيين، بل مالبث الصدام أن وقع بينهما.

ويرى أحد الباحثين ^(٣) أن المفاوضات بين الجانبين قد أخفقت، ويعلل ذلك بأن الدولة العثمانية فضّلت سلامة ممتلكاتها في مناطق البحر الأحمر على المكاسب المادية، ويضيف قوله: «وكان العثمانيون لا يطمئنون إلى البرتغاليين ويعتقدون أن هؤلاء الغزاة المسيحيين لا يؤمن لهم جانب».

والواقع أن هذا التعليل - كما يبدو - بعيد تماماً عن تلك التكهّنات، فماذا كان يضير هذه الممتلكات عند حدوث التبادل التجاري؟ الفلفل بالقمح مثلاً، وماذا كان يضيرها عندما عقدت معاهدة صلح تستمر خمسة عشر عاماً أو ما يقاربها؟.

إنما الواضح ومن خلال الرسالة التي رد فيها السلطان العثماني على ملك البرتغال، أن السبب في إخفاق وفشل المفاوضات هو عدم اتفاق الطرفين على شروط الصلح، وكثيراً ما قامت المفاوضات وتمت المعاهدات بين المسلمين والمسيحيين في مختلف العصور والعهود دون حدوث ما أشار إليه الباحث.

(١) يقصد في ذلك بيلر بك البصرة.

(٢) صالح أوزبران: الأتراك العثمانيون والبرتغاليون، مرجع سابق، ص: ٢٢، ٢٣.

(٣) عبدالعزيز الشناوي (دكتور): المراحل الأولى، مرجع سابق، ص: ٦٨٢.

ومما يؤكد حرص العثمانيين في ذلك الوقت على الصلح وجديتهم فيه تلك الرسالة التي أرسل بها نوروها D. ALVORADE NORONHA، حاكم هرمز إلى سيده ملك البرتغال يحدثه فيها عن خطورة الوضع في منطقة الخليج، وضرورة السعي وراء السلام مع العثمانيين الذين تمكنوا من السيطرة على طرق التجارة على طول خليج البصرة - كما يذكر - وما يهمننا في رسالة نوروها هو ما ذكره من أن العثمانيين قد أرسلوا رسائل كثيرة يطلبون فيها فتح الطرق التجارية ويعطون جميع الضمانات لذلك^(١).

وإذا كان هذا هو ما حدث في بداية الأربعينات من القرن السادس عشر، فإنه قد حدثت محاولات أخرى في أوائل العقد السادس من القرن نفسه، حيث يذكر كاتنهو^(٢): أن السفير العثماني قد ذهب إلى جوا GOA لعقد صلح مع البرتغاليين لمدة ٧ سنوات.

وفي سنة ١٥٦٢م كان هناك سفير برتغالي آخر في إستانبول، مما يشير بدوره إلى أن الدولتين قد سئمتا الحرب وظهرت لديهما نوايا جديدة لرأب الصدع بينهما، وتعويض الخسائر التي منيا بها طوال سنوات عديدة، مما شكّل عبئا على خزانة كل منهما، وأدى في النهاية إلى تكاليف الدول الأخرى الفتية عليهما.

ثانيا : النتائج الاقتصادية :

مما لا شك فيه أن شرق أفريقيا والشرق العربي، كان وما زال محط أنظار الغرب، لما له من أهمية استراتيجية واقتصادية وسياسية، فكان العرب والمسلمون يسيطرون على المحيط الهندي ومداخل الخليج العربي والشرق الأفريقي، وهذه السيطرة تعني السيطرة على مقدرات التجارة القادمة من الشرق الأقصى مثل الصين والهند وبنغال.

(١) صالح أوزبران : الدول العثمانية وطريق الهند، مرجع سابق، ص: ١٢٢

(٢) نقلا عن : صالح أوزبران : نفس المرجع السابق، ص: ١٤٠.

وكان وصول البرتغاليين إلى الشرق الأفريقي، إيذاناً بمرحلة تاريخية جديدة لافي المحيط الهندي فحسب، بل في الأقطار البحرية في أوروبا، كما كان نجاح البرتغاليين خاتمة لعدة محاولات قام بها المستكشفون للبحث عن طريق شرقي البحر المتوسط، الذي بدأ الخطر يتهدهده بسبب تعاظم النفوذ العثماني^(١).

وكان لوصول البرتغال إلى الشرق بعد اجتياز رأس الرجاء الصالح، أثر كبير على الحياة الاقتصادية السائدة في المنطقة حيث أن التواجد في المياه الشرقية وما صاحبه من نفوذ بحري ونفوذ تجاري^(٢). وبداية عصر جديد، قدّر فيه لمسلمي وعرب الشرق الأفريقي وعرب الخليج العربي ومصر والشام والفرس أن يفقدوا السيطرة على تجارة الشرق وفقدت طرق التجارة في البحر الأحمر والخليج العربي أهميتها في وجه الطريق الجديد، الذي يربط الهند بالموانئ الأوروبية مباشرة، وحول تجارة السفن في المحيط الهندي إلى تجارة داخلية، وتناقص معدل التجارة المارة من هرمز والموانئ العمانية.

أما عرب شرق أفريقيا فقد كان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ضربة لهم، أدت إلى تدهورهم وأقول نجمهم، ومطامع البرتغاليين في الأصل تجارية، وتحولت إلى استعمارية مما أضر تأثيراً بالغاً على الحياة الاقتصادية في كل بلدان الشرق.

وعند وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي كان همهم اقتلاع النفوذ العربي والإسلامي من المنطقة بأكملها، والتحالف مع الحكام المحليين لتنفيذ مخططاتهم العدوانية^(٣).

ونرى من ذلك أن الحملة البرتغالية الأولى قد عادت إلى البرتغال، وحملت معها عينات من السلع الآسيوية، كما نقلت إلى الملك عما نويل أن سكان الملبار من

(١) انظر : وزارة الإعلام والثقافة: عمان تاريخها البحري، عمان ١٩٧٩م، ص: ٥٨.

(٢) بشير أحمد كاظم: مرجع سابق، ص: ١٤.

(٣) الشاطر بصيلي عبدالجليل : مرجع سابق، ص: ٤٤٣

المسيحيين على مذهب هرطقي، وعلى ضوء هذه المعلومات الخاصة بالعقيدة أراد الملك أن يجتذب إليه ملوك الهند الساموري للعمل ضد المسلمين *.

وأخذ ملك البرتغال يصدر الأوامر بإقامة محطات تجارية، ووكالة أعمال في كاليكوت، وإنشاء الحصون في كل من كلوه وانجديقا. ^(١)

وتحولت التجارة بذلك إلى رأس الرجاء الصالح، فأدى هذا إلى ازدهار الموانئ البرتغالية، مما جعلها تحاكي موانئ مصر والشام والبندقية، قبل الغزو البرتغالي.

وكان من أهم النتائج التي حققتها الحملات البرتغالية، أنها قد تمكنت من فرض هيمنتها على تجارة الشرق التي كانت تهدف إلى الوصول إليها، كما أن هذه الحملات الكشفية وجهت أنظار باقي دول أوروبا إلى القارة الأفريقية خاصة، لما تتميز به هذه القارة من خيرات بشرية واقتصادية، كما وجهت أنظارهم إلى القارة الآسيوية بصفة عامة، ففي الوقت الذي كانت فيه البرتغال تواصل رحلاتها حول أفريقيا، كانت إسبانيا قد اكتشفت العالم الجديد، وفتحت بذلك مجالا جديدا للارتياح والاستغلال والاستثمار، وذلك لما تتميز به أمريكا من خصوبة التربة ووفرة المواد الخام الاقتصادية، وقلة الأيدي العاملة. عندما لجأ الأوروبيون إلى استغلال أبناء أفريقيا في زراعة الأرض، فنشأت نتيجة لذلك تجارة جديدة بالنسبة لأوروبا وتجارها، هي تجارة الرقيق التي حققت نتائج اقتصادية باهرة، وحققت نتائج سلبية سيئة لقارة أفريقيا ^(٢)

إذن يمكن القول بأن الكشف الجغرافية البرتغالية والإسبانية، قد حققت هدفين متكاملين أولهما: يتمثل في اكتشاف البرتغاليين لسواحل أفريقيا الغربية، والتي ساهم أبنائها في تقدم العالم الجديد اقتصاديا. ويتمثل ثانيهما في اكتشاف إسبانيا

* انظر خطاب ملك كوشين بالهند لملك البرتغال في عام ١٥١٢م، وهو يخبره عن اعتناق والديه الدين المسيحي وأنه قد جهز له الفلفل (انظر الملحق رقم ٢٩)، ص: ٣٠٥ - ٣١٢.

(١) انجديقا: جزيرة على ساحل الهند الغربي، نفس المرجع السابق، ص: ٤٤٥.

(٢) زينب عصمت راشد (دكتورة) المختصر في تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة ١٩٧٥م، ص: ٥١ - ٥٤.

للعالم الجديد الذين ساهم في فتح مجالات جديدة أمام دول أوروبا ^(١).

وكانت هذه الحملات البداية الحقيقية لعصر المستعمرات وبناء الإمبراطوريات والسيطرة والاستغلال، الذي استمر زهاء خمسة قرون تقريبا، ولم تقتصر النتائج على هذا الحد، بل كان منها الرواج الاقتصادي الذي ساد دول أوروبا الغربية، والتي تمكنت من فتح أسواق جديدة في البلاد التي سيطرت عليها، وذلك لتوزيع الفائض من منتجاتها الصناعية في هذه المستعمرات، وعاد ذلك كله بالنفع على المجتمعات الأوروبية ^(٢).

إلا أن البرتغاليين رغم كل مابذلوه من جهود، لم يستطيعوا قطع الطرق التجارية، التي تربط الهند وأندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر، وقد استمرت الولايات العثمانية تتسلم التوابل بصورة مباشرة من الهند وأندونيسيا، أثناء القرن السادس عشر الميلادي، رغم وجود نقص في كمية التوابل في بعض الأوقات، وهذا يدل على أن يد البرتغاليين لم تتمكن من أن تمنع القوى بالمنطقة، من الاستمرار في التجارة، نظرا لاتساع الإمبراطورية الممتدة من لشبونة في أقصى جنوب أوروبا وحتى جزيرة سيلان ^(٣). ولم تنقطع عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الأوروبيين في أسواق حلب والقاهرة والقسطنطينية، وبورصة ^(٤).

ففي عام ١٥٥٤م - على سبيل المثال - اشترى البندقيون - وحدهم - ستة آلاف قنطار ^(٥) من التوابل في الإسكندرية، ومشتريات البندقيين السنوية البالغة ١٢ ألف

(١) جوزفين كام: المستكشفون في أفريقيا، ترجمة د. السيد يوسف نصر، القاهرة ١٩٨٣م، ص: ٤٩، ٥٠.

(٢) د. محمد فؤاد شكري وآخر: مرجع سابق، ص: ٥٦ - ٥٧.

(٣) تقع سيلان في الجنوب الشرقي للهند وهي تقع على الطريق البحري القادم من الشرق الأقصى إلى الهند، وفي زمن البوكيرك قام رجل من مسلمي هرمز يدعى بابا عبدالله بالوساطة بين سلطان سيلان (التي كانت تسمى الديبة حسبما ورد في الوثيقة) ومنع البوكيرك من مهاجمتها وخصص له نصف محصول البلاد السنوي ووعد البوكيرك بأنه سوف ينصبه وزيرا بعد ذلك. (وثيقة غير منشورة تقع في ثلاث ورقات، من الأرشيف البرتغالي) ملحق (٣٢) ص: ٣٢٢ - ٣٢٧.

(٤) عبدالوهاب القيسي (دكتور): مرجع سابق، ص: ٥٠.

(٥) قنطار = ١٠٠ كجم، انظر عبدالوهاب القيسي، مرجع سابق، ص: ٥٠.

قنطار عام ١٥٦٠ و ١٥٦٤ م هي نفس الكمية التي كانوا يشترونها قبل اكتشاف فاسكو دي جاما للطريق البحري الجديد المؤدي إلى الهند^(١).

وفي نفس الوقت كانت تصل إلى ميناء جدة في كل سنة، حوالي عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية، لذلك كان الحجاج العثمانيون العائدون من مكة يحملون معهم - أثناء عودتهم إلى بلدانهم - التوابل والأصبغ والأنسجة الهندية، وفي عام ١٥٦٢ م ارتفعت قيمة الضرائب الجمركية في دمشق على التوابل التي جلبت من قبل قوافل الحجاج إلى ١١٠ آلاف دوكات ذهبي^(٢)، واستمر وصول البضائع الشرقية إلى الخليج العربي في نفس هذه الفترة.

ويذكر أحد الرحالة الإنجليز، الذي زار البصرة عام ١٥٨٣ م مايلي «تصل شهريا إلى ميناء البصرة سفن مختلفة من هرمز، محملة بجميع أنواع البضائع الهندية كالتوابل والأدوية وصبغة النيل والمنسوجات»^(٣)

ومما يؤكد ذلك رسالة من الحكومة البرتغالية إلى الكونت فيد جيورا COUNT OF VIDIGUEIRA لشبونة مؤرخة في ٥ أبريل ١٥٩٨ م، وتفيد الرسالة أن حكومة البرتغال اتصلت بنائب الملك في الهند، وأبلغته بأنه تم اتخاذ قرارات بواسطة الملك في توقيع العقاب على الذين يأخذون الفلفل إلى هرمز ومسقط ومكة وفارس، ويطالب بوضع جيش في مضيق هرمز لتفتيش سفن المسافرين إلى تلك الحصون وإلى «مضيق مكة»، ويعني به باب المندب مدخل البحر الأحمر^(٤). وهذا يعني أن

(١) عبد الوهاب القيسي (دكتور) نفس المرجع السابق، ص: ٥٠

(٢) دوكات = دولارين وربع الدولار القيسي: نفس المرجع، ص: ٥٠

(٣) HALL INALCIK: THE OTTOMAN EMPIRE (LONDON 1973) PP. 127 - 128.

(٤) A. N. T. T. MISC. MS. CONVENTO DA GRACA, TOMO 2E, PP. 405 - 406.

انظر الوثيقة (ملحق رقم ٣٥) ص: ٣٤٢ - ٣٤٥. وثيقة من الأرشيف البرتغالي، لشبونة، غير منشورة.

البرتغاليين لم يتمكنوا من السيطرة الكاملة على المحيط ومداخل الخليج العربي والبحر الأحمر، نظرا لعدم إمكانية البرتغال السكانية لتغطي هذه المسافة الكبيرة التي تشمل من ملقا وحتى لشبونة في أقصى الغرب الأوروبي.

ثالثا : النتائج الحضارية :

لنعد قليلا إلى الوراء لنتتبع دور العرب الحضاري في الشرق الأفريقي، إذ إن وصول العرب قبل مئات السنين واختلاطهم بأهل السواحل والجزر في الشرق الأفريقي، وإنشاء السلطنات والدويلات الإسلامية، التي ازدهرت في ظل العرب القادمين من الجزيرة العربية ومن الساحل الغربي لفارس، وهم عرب أصلا، ولهم دور حضاري بارز وخاصة في تاريخ الثقافة الإسلامية، يعد من أقوى الآثار التي ترتبت على هذه الصلات بين عرب شبه الجزيرة وسكان الساحل الشرقي للقارة، ومنذ استيطان العرب الأول في الأماكن الساحلية التي كانت تحت حكم الزنج، وهو الاسم الذي يطلق على قبائل البانتو، ولم تكن للزنج إمبراطورية بالمعنى المفهوم على الرغم من أن اسم إمبراطورية الزنج قد ورد في بعض كتب التاريخ^(١).

ويقال إنها استمرت من عام ٩٥٠ إلى ١٥٠٠ م وكانت مدينة كيلوا تتحكم فيها معظم تلك الفترة، إلا أن الواقع هو أنه كانت هناك عدة مدن مثل مقديشيو، وماليندي، وباتي، وممبسة، وزنجبار، وكيلوا، وسوفالا أقامها العرب، وكان معظمها مستقلا، ولكل منها حاكم خاص يحكمها، وارتبطت هذه المدن ببعضها لاشتراكها معا في تجارة واحدة عبر الساحل، دون أن تربطها حكومة واحدة أو حاكم^(٢).

ومنذ بداية الهجرات العربية، نتج عن الاحتكاك بين السكان الأصليين والعرب الوافدين انتشار ثقافة العرب وحضارتهم، وحين جاء الإسلام كان تأثيره قويا وأثره أكبر وأعمق فالإسلام بتعاليمه السمحاء غيّر حياة العرب وطبعهم، وحياة من دخل

(١) شوقي الجمل (دكتور) ندوة رأس الخيمة التاريخية، ص: ٢٥، وانظر: سبنسر ترمينجهام: الإسلام في شرق أفريقيا، ترجمة محمد عاطف النواوي، القاهرة ١٩٧٣ م، ص: ١٢.

(٢) سبنسر ترمينجهام: مرجع سابق، ص: ١٣

الإسلام من غير العرب، فغير من عاداتهم وتقاليدهم ونمط معيشتهم، حتى ظهر في أذواقهم في الملبس والبناء والعمران، ولعل اللغة العربية من أقوى مظاهر التأثيرات الثقافية على سكان شرق أفريقيا، ونتيجة المعاملات التجارية والاختلاط بين العرب والأفارقة بشرق القارة تولدت عنه لغة هي خليط بين لهجات البانتو واللغة العربية، وهي اللغة السواحلية بالإضافة إلى دخول العديد من المفردات العربية ^(١).

وهذه اللغة مازالت تلعب دوراً هاماً في إبراز الشخصية المتميزة لشرق أفريقيا ولشعوبها ولدولها التي تكونت فيما بعد.

ونظراً لانعدام الوحدة أو الاتحاد بين تلك المدن، التي أنشئت على الساحل الأفريقي وعدم وجود إمبراطورية فعلا، هو الذي سهّل على البرتغاليين احتلال الساحل بعد عام ١٥٠٠ م.

وعند وصول فاسكو دي جاما عام ١٥٠٢ م إلى كيلوا، أمر السلطان بمقابلته فوق إحدى سفنه الراسية في الميناء، فخرج إليه الأمير إبراهيم ^(٢)،* الذي كان وقتها يقوم بمهام السلطان، ووافق على أن تصبح بلاده تابعة للبرتغال، وتتابع الحملات البرتغالية، وتم الاستيلاء على الشرق الأفريقي، وتمركزوا في موزمبيق ثم امتد حكمهم حتى شمل مملكة مونومباتا في روديسيا، حيث توجد مناجم الذهب، ولم يتمكنوا من العثور على مناجم الذهب لرفض الأهالي التعاون معهم.

وكانت هذه المدن تعج بالتجار والمزارعين الأفارقة، الذين تحكمهم طبقة متميزة من المسلمين الذين يعيشون حياة رغدة سهلة يحيط العبيد بهم، كما كانت هناك

(١) شوقي الجمل (دكتور): مرجع سابق، ص: ٢٥، انظر: رولاند أوليفر وجون فيج، مرجع سابق، ص: ١١٠.

(٢) انظر الرسالة التي أرسلها إبراهيم الذي أصبح فيما بعد سلطان كليوا وهذه الرسالة موجهة لسلطان البرتغال دون متويل يناشده فيها بأنه سوف يليي أوامره ويطلب منه نظير ذلك الرفق في المعاملة من قبل قواد السلطان، ولم يذكر في الرسالة سوى اسم إبراهيم فقط، وثيقة غير منشورة، الأرشيف البرتغالي.

* انظر الوثيقة (ملحق رقم ٢٧) ص: ٣٤٨

محلات تجارية غنية بالبضائع يملكها هنود من جيزورات (GUJERAT) وكوتش (CUTCH) وغيرها. يتبادلون بضائعهم المستوردة بالعاج وعظام السلحفاة وغيرها من المنتجات المحلية^(١).

ولكن الحقد والكراهية على العرب من قبل البرتغاليين جعلهم يدمرون هذه الحضارة المزدهرة، والتي كان يعيش أصحابها في أمن واستقرار وازدهار تجاري بين الشرق الأفريقي والبلاد العربية والشرق الأقصى، ولكن سرعان ما وصل هذا المستعمر، وقلب موازين القوى في المنطقة، مما جعل هذه الحضارة تتدهور باستمرار لأن المستعمر هدفه أن يحرم العرب والمسلمين من تجارة الشرق ويقضي على حضارتهم ودينهم.

ولكن من الثابت علمياً أن الغرب الأوروبي ظل في العصور الوسطى - حتى القرن الحادي عشر الميلادي - غارقاً في بحر من الجهالة والتأخر الحضاري، في الوقت الذي كان فيه المسلمون في الشرق والغرب ينعمون بمستوى حضاري رفيع، عكس المستوى المنحط الذي عاش فيه الأوروبيون الغربيون، ولكن أثبتت الأبحاث الحديثة أن ثمة حركة أفاقة شاملة دخل فيها المجتمع الأوروبي في عصر الحروب الصليبية، وأن هذه الحركة شملت جميع نواحي الحياة في الغرب حتى أطلق عليها (النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر)^(٢) وسبب ذلك يعزى إلى الصدام بين الحملات الصليبية والمسلمين، والذي كانت نهايته انتصار المسلمين، مما دفع الصليبيين إلى الاهتمام بمظاهر الحضارة الإسلامية العربية، ونقلها إلى أوروبا والعمل بها، واستمرت هذه الصحوة إلى أن أتت بثمارها في بداية القرن السادس عشر الميلادي، حيث وصلت إلى أوج ازدهارها عندما بدأت الكشوف الجغرافية تتوالى إلى الشرق، لتحقيق أهدافها السياسية والعسكرية والدينية، للرد على مالحق بها في العصور الوسطى.

(١) سبنسر ترمينجهام : مرجع سابق، ص: ١٤

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور) : الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي

في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧١م، ج٢، ص: ١٢٦

رابعاً : النتائج العسكرية :

أطل البرتغاليون على الشرق في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وكانت قد راودتهم رغبة ملحة في الاستعمار، ولأن جارتهم إسبانيا كانت قد وفقت في هذا المجال، توفيقاً أقام لها ملكاً مبسوطاً وسلطاناً يشكل خطراً على دولتهم الناشئة، فالتمسوا في التجارة والكشف والاستعمار سبيلاً يشدّون به أزر أمتهم^(١).

وعندما تمكّنوا من الوصول إلى المحيط الهندي، على يد فاسكو دي جاما، وصلوا إلى الهند وأخذوا يبنون لأنفسهم ملكاً على يد دي الميدا وكبرال والبوكيرك، فهم الذين تمكنوا من بناء قوة عسكرية تجوب المحيط الهندي، وتسد المنافذ الرئيسية التي تؤدي إلى الموانئ العربية والإسلامية، وبهذه القوة البحرية استطاعت البرتغال تحطيم قوى الأتراك والعرب البحرية، ومن قبلهم القوة المملوكية في موقعة ديو البحرية عام ١٥٠٩م التي وقعت على الساحل الغربي للهند، مما جعل شوكة البرتغال العسكرية تقوى، وتنتشر لتسيطر على القوى العربية والإسلامية، بعد أن كانت لديها الأساطيل البحرية عابرة المحيطات والمزودة بالأسلحة النارية، التي لم تقو عليها السفن الصغيرة التابعة للقوى العربية في المحيط^(٢)

فهذا التطور العسكري قلب موازين القوى في المنطقة، وأصبحت الأساطيل القادمة من الغرب تسيطر سيطرة كاملة على المياه العربية والإسلامية، ونتج عن ذلك التطور البحري للبرتغاليين، أن شجع القائد البرتغالي البوكيرك على التفكير في تحويل مجرى النيل، والاستيلاء على البحر الأحمر وتطوير المسلمين من الجنوب، وكانت البرتغال قد بلغت ذروة الوحشية - في عصرها الذهبي قصير العمر - وكانت سياسة الفتح الذي يدمر بلا رحمة اعتماداً على مدافعها بالغة الأهمية والسيطرة

(١) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص: ٢٦

(٢) عبدالوهاب القيسي، مرجع سابق، ص: ٥١، انظر شكل السفن الحربية البرتغالية (ملحق رقم

٢٢) ص: ٢٨٤.

والاحتكار التام، التي كانت تنتهجها، ذات أثر مدمر لبعض المستوطنات العربية، التي انهارت وذوت بعد أن حرم مواطنوها من مصدر رزقهم كوسطاء تجاريين، وماتت وكأنما أصابتها اللعنة ^(١).

ونرى البوكيرك بهذه القوة العسكرية الهائلة المتمثلة في السفن الكبيرة والمدافع يقوم في عام ١٥٠٧م بقصف ونهب وتدمير مسقط وهي الميناء الرئيس لعمان ^(٢).

هذا ما عانتته جميع مدن الساحل الأفريقي والعُماني والخليجي، وعلى رأسه هرمز المدينة الزاهرة، محطة التجار، والتجارة القادمة من الهند والبحر المتوسط لأوروبا، كذلك المدن الإسلامية على الساحل الغربي للهند، بسكانها الذين لا يعرفون المدافع النارية مما جعلهم يستنجدون بالممالك مرة وبالأترك مرة أخرى ^(٣).

وعند انتهاء دور النشاط المصري، المتمثل في الممالك في كل من البحر الأحمر والمحيط الهندي، حلت محلهم الدولة العثمانية بعد أن استولت على الشام ومصر عامي ١٥١٦، ١٥١٧ وبعدها الحجاز، كان البرتغاليون قد سيطروا على موانئ البحر الأحمر والواقعة على الشاطئ الغربي وخليج عدن وسواكن، ومصوع وزيلع وبربرة، وقام الفاريز القائد البرتغالي - الذي ترأس البعثة التنصيرية البرتغالية - إلى الحبشة بتحويل مسجد مصوع إلى كنيسة عام ١٥٢٠م. ونزل الجيش البرتغالي الذي جاء لنجدة ملك الحبشة ضد فتوحات الإمام أحمد بن إبراهيم جران، أمير هرر في ميناء زولا الإرتري، ومن ثم توغل إلى هضبة الحبشة حيث شارك في هزيمة الإمام ^(٤).

(١) وندل فيلبس : تاريخ عمان، مرجع سابق، ص: ٤٦

(٢) عمان تاريخها البحري، ص: ٢٩.

انظر : رونالد هولي: عمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاح، لندن، بدون تاريخ، ص: ٢٩

(٣) مديحة أحمد درويش (دكتوراه) : مرجع سابق، ص: ٢٥

(٤) عثمان صالح سبي: الصراع في حوض البحر الأحمر عبر التاريخ، بدون تاريخ، ص: ٢٣.

اهتمام العثمانيين بتأمين البحر الأحمر

أعد العثمانيون أسطولاً حربيّاً، قاده سنان باشا، ونزل به إلى البحر الأحمر، لمنع استمرار التعاون الذي تم بين البرتغاليين والأحباش، ووصل الأسطول العثماني أمام ميناء مصوع في عام ١٥٥٤م، وانهزم الأسطول البرتغالي الذي كان بقيادة دون جوان ذي كاستروا، وتمت تصفية المواقع البرتغالية في البحر الأحمر من قبل الأتراك على طول سواحلها وبنوا بها القلاع^(١)

وفي عام ١٥٥٧م احتل العثمانيون ميناء مصوع، حيث كانت للعثمانيين قبل ذلك السيطرة على سواكن.

وكانت هذه العملية للمحافظة على مداخل البحر الأحمر، وإيجاد أسطول قوي ليتمكن من متابعة البرتغاليين في عرض المحيط الهندي، للتخفيف من حدة الاحتكار التجاري، الذي تمارسه البرتغال على القوى العربية في كل من شرق أفريقيا والخليج العربي والمحيط الهندي.

وعلى الرغم من كل الصعاب التي واجهت الأتراك، إلا أن الحرب بينهم وبين البرتغاليين قد استمرت زمناً ليس بالقصير، ولم يستطع البرتغاليون إحراز نصر حاسم على الأتراك.

ونجد مير علي بيك القائد العثماني في ١٥٨٥م يقوم بزيارة مواني الساحل الأفريقي وهي مقديشيو، برواة، كسمايو، فزه، بته، لامو، وكيليفي، وأعلن أن السلطان العثماني قد أرسله ليحرر الساحل من النفوذ البرتغالي، فنتج عن ذلك ثورة على الساحل ضد البرتغاليين، وقد عاد مير علي بيك دون أن يصطدم مع البرتغاليين، لكنه في عام ١٥٨٨م عاد بخمس سفن والتحم مع العدو، وكانت معركة ضارية خسرها القائد العثماني، وقتل رجاله وأسر مير علي بيك ونقل إلى جوا، ثم إلى لشبونة.

(١) الشاطر بصيلي عبد الجليل: مرجع سابق، ص: ٤٦٢

وعندما تجمعت القوى الإسلامية استطاعت إعادة التجارة القديمة إلى سابق عهدها بنقلها إلى مصر وإلى حلب^(١).

وأخيرا يمكن أن نستخلص من الصراع البرتغالي العثماني في المياه العربية نتائج أهمها :

أولا : أن فشل العثمانيين في إبعاد البرتغاليين عن المياه العربية بصورة كلية، يعود إلى أن الأسطول العثماني في القرن السادس عشر الميلادي كان يتألف من سفن صغيرة (galleys) جيليز، غير قادرة على التأثير الفعال ضد السفن الكبيرة المجهزة بتجهيزات متطورة وفعالة، يضاف إلى ذلك صعوبة تجهيز أسطول عثماني دائم تكفي قوته لمواجهة الأساطيل الأوروبية في البحر المتوسط، والمحيط الهندي، في نفس الوقت، وخاصة لانشغال العثمانيين في هذه الفترة بالحروب البرية الطويلة ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة وضد الدولة الصفوية^(٢).

ولاتساع رقعة الدولة العثمانية، وتعدد الجبهات لمواجهة الخطر الصليبي البرتغالي في المحيط الهندي والإسباني في البحر المتوسط والجبهة الأخيرة، فقد اضطر أمراء البحر المجاهدون في شمال أفريقيا، إلى مد يدهم للدولة العثمانية طالبين الاتحاد معها، لتكتيل القوى الإسلامية في البحر المتوسط ضد أخطار الغزو الإسباني التي كانت تهدد أقاليمهم^(٣).

ثانيا : وكان ضعف القيادات المحلية في ذلك الوقت وتناحرها فيما بينها، سببا في اشتداد الحاجة إلى من يتولى القيادة ليأخذ بيدها إلى سبيل توحيد القوى الوطنية، ليتمكنها من منازلة الأعداء وقد أدى ذلك إلى إنشاء قيادة بحرية واصلت الجهاد البحري ضد القوى المعتدية^(٤).

(١) جمال زكريا قاسم (دكتور) : ندوة رأس الخيمة التاريخية، ص: ٣، وانظر : الشاطر بصيلي، مرجع سابق، ص: ٤٦٣

(٢) عبدالوهاب القيسي (دكتور) : مرجع سابق، ص: ٥٠

(٣) جلال يحيى (دكتور) التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، ص: ٤٤

(٤) جلال يحيى (دكتور) : نفس المرجع السابق، ص: ٤٤٠

ولقد اشتهر بين هؤلاء القادة بابا عروج، الذي اشتهر بلقب باربروسا، وقد عمل مع أخيه خير الدين على إنشاء أسطول حربي ضد أعاديه الإسبان سنة ١٥١٦م، على مدينة الجزائر، ولكن بابا عروج قتل في عام ١٥١٨م وهو في طريق عودته من تلمسان، ويعتبر واضح سياسة الجهاد الإسلامي ضد الغزو الصليبي لبلاد المغرب الكبير، وسوف تقع المهام الكبرى على عاتق أخيه خير الدين الذي اتصل بالدولة العثمانية، وطلب منها معاونته في الجهاد فأرسل له السلطان سليم عام ١٥١٨م. ألفين من جنود الانكشارية، وهذا دليل على انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية^(١)

ثالثا : أما بالنسبة للنتائج التي تترتب على الموقف العثماني من الغزو البرتغالي للمياه العربية والشرقية، فإن القوة البحرية العثمانية، في خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، فشلت في كسب هجمات بحرية على الأساطيل البرتغالية سواء في غرب البحر المتوسط أو في المحيط الهندي، ولو كانت تلك الهجمات ناجحة لأدت إلى قطع المواصلات البحرية بين البرتغال والهند.

رابعا : وبسبب التقصير العثماني البحري - من الناحية الاستراتيجية - تمّ غلق العالم الإسلامي بواسطة أساطيل الأمم الأوروبية، وهذه الأخيرة استخدمت فيما بعد تفوقها البحري في سبيل السيطرة السياسية والعسكرية على الأقطار الإسلامية^(٢)

خامسا : ويلاحظ أن ميزان القوى العالمية أصبح في صالح الغرب، منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، عندما استغل الملاحون الإيطاليون البدع التكنيكية في فن الملاحة وصناعة المدافع، كي ينشروا تفوقهم على المحيطات، في حين أن المجتمعات الآسيوية فشلت في الاستجابة للتحدي الأوروبي، لأن عوامل حضارية اجتماعية

(١) جلال يحيى (دكتور) المغرب الكبير. الإسكندرية ١٩٦٦م، ج٢، ص: ١٧، وما بعدها.

(٢) Arnold J. Toynbee, A study of History (London 1934) 11, VII, pp.(٢) 444 - 445.

قوية منعتها من تبني التكنولوجيا الغربية المتفوقة^(١). ولكن بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين ومن بينهم العثمانيون، يشيرون في مؤلفاتهم إلى أن الدولة العثمانية في القرن السادس عشر كانت قوية، واستطاعت المحافظة على العالم الإسلامي وطريق الحج والمدن المقدسة، كما حمت الحدود الإسلامية من هجمات البرتغاليين والفرنج بواسطة سفنها الساحلية (GALLEYS).

سادسا : قام العثمانيون خلال خمسين سنة من القرن السادس عشر الميلادي أي منذ أواخر حكم السلطان سليم الأول حتى نهاية عهد السلطان سليمان القانوني، برسم الخطط الجادة بغرض إبعاد البرتغاليين عن المياه العربية الإسلامية، وتحطيم الاحتكار التجاري، وقد أرسلت بالفعل عدة حملات بحرية من مينائي السويس والبصرة، لأجل إخراج البرتغاليين من البحر الأحمر والخليج العربي، وكذلك ضرب المراكز البرتغالية في السواحل الهندية، وعلى الرغم من تمكن بعض تلك الحملات من الانتصار على البرتغاليين غير أن المساعي العثمانية لم تنجز في النهاية سوى إبعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومداخله، بالإضافة إلى حمايتها لرأس الخليج العربي من الغزو البرتغالي.

وترجع أسباب فشل العثمانيين في كفاحهم ضد البرتغاليين، إلى عدم كفاءة بعض قادتهم البحريين، وقيامهم بأعمال تعسفية أدت - في كثير من الأحيان - إلى عدم تعاون السكان العرب معهم في أعمالهم الحربية المناهضة للبرتغاليين. وفي النهاية تهاوت المستعمرات البرتغالية تحت أطماع الدول الأوروبية الأخرى، مثل هولندا وبريطانيا اللتين ورثتا تركة البرتغال في الشرق.



(١) Carrlo. M. Cipolla, Guns, Sails. and Empires (N, Y, 1965) p. 126.

الخاتمة

الخاتمة

موضوع الصراع البرتغالي العثماني في شرق أفريقيا في القرن السادي عشر الميلادي، من الموضوعات التي تناولها غالبية الباحثين من الناحية الاقتصادية، والتي تركزت في تجارة الشرق، وما صاحب هذه التجارة من مقدمات كشفية.

وقد اتجهت في دراستي لهذا الموضوع، لمحاولة إبراز الأمور التي لم يولها بعض المؤرخين اهتماما كبيرا، والجديد في هذه الدراسة أنني حاولت إبراز الدوافع لكل من الطرفين، والمتغيرات الدولية في ذلك الوقت، حتى نستطيع أن نكشف المزيد عن هذه الفترة، التي اعتبرها المؤرخون فترة تحول من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، لما فيها من تغيرات في موازين القوى، وانتقال السيطرة على طرق التجارة العالمية من الشرق العربي إلى الغرب الأوروبي.

ويعد هذا الصراع نتيجة هامة من نتائج الحروب الصليبية، التي فشلت في الشرق في خلال القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين، وذلك بسقوط عكا في أيدي المماليك في عهد السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون في عام ٦٩١ هـ / ١٢٩١ م، بالإضافة إلى سقوط جميع المدن الصليبية في الشام، وكان لهذا الأثر البالغ في نفوس الصليبيين، بالإضافة إلى هيمنة المماليك على التجارة في الشرق وخاصة تجارة التوابل التي كانت الشغل الشاغل لدول أوروبا لما لها من أهمية.

ومن النتائج الهامة التي توصل إليها البحث :

أولا : ساعدت عدة عوامل مجتمعه على اكتشاف فاسكودي جاما الطريق البحري حول طرف أفريقيا الجنوبي، أو رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م.

ومن هذه العوامل :

١ - أن البرتغاليين قد اكتسبوا مهارة كبيرة كبحارة ومكتشفين منذ زمن هنري

الملاح في أوائل القرن الخامس عشر.

٢ - كان البرتغاليون قد اعتادوا على جوانب الرفاهية الشرقية في عهد المغاربة المسلمين، الذين انتهى حكمهم في البرتغال قبل فترة وجيزة، وأصبح البرتغاليون يأملون في الفوز بنصيب من تجارة التوابل والبهارات.

٣ - بروز الوعي القومي البرتغالي بعد المعارك العديدة التي خاضها البرتغاليون ضد المسلمين، وكانت المغامرات البرتغالية في المحيط الهندي استمرارا للاندفاع الصليبي ضد المسلمين، ولعل هذا يفسر وحشية الأساليب التي اتبعتها البرتغاليون وإن كان لا يبررها.

٤ - كان البرتغاليون مصممين على اكتشاف بلاد القديس برسترجون المجهولة التي كانت في هذا الوقت تثير اهتماما كبيرا لدى أوروبا، مما جعل رجال الدين في الغرب يعطون مسألة الخلاص من العرب والمسلمين أهمية قصوى، حيث باركوا كل الجهود التي قام بها هنري الملاح، لما لقوا فيه من روح صليبية متأججة وعداء منقطع النظير للعرب والمسلمين، وأخذوا يعدون العدة لتطويق الدولة المملوكية من الجنوب، والتخلص من الطريق التقليدي للتجارة القادمة من الشرق، والوصول إلى أرض القديس يوحنا للتعاون معه وتحقيق ما لم يتمكنوا من تحقيقه في الشمال، أي حروبهم الصليبية التي باءت بالفشل، ففطنوا إلى أن سر قوة الممالك تكمن في التجارة القادمة من الشرق عبر أراضي ومياه الدول الإسلامية، فاتجهوا إلى التفكير في تغيير هذا المسار، حتى تضعف قوة الممالك الذين طالما وقفوا لهم بالمرصاد وصدوا عاديتهم.

ثانيا : أحدثت رحلة فاسكو دي جاما ثورة في ميدان التجارة الأوروبية، وقد زاد البرتغاليون قوتهم البحرية والعسكرية في المحيط الهندي وارتفعت مكانتهم ارتفاعا عظيما، حتى أن الملك عمانوئيل الأول لقب (بصاحب الفتوحات والملاحات البحرية والتجارة في الهند والحبشة وبلاد العرب وفارس).

وقد كانت الموانئ الأفريقية الشرقية وموانئ الخليج العربي والمحيط الهندي تنعم

بسلام، وأمان، قبل وصول الجحافل الصليبية البرتغالية، لكن بعد قدوم البرتغاليين حولوا الطرق التجارية إلى أوكار للقرصنة البرتغالية، للقضاء على النشاط التجاري الإسلامي في كل من البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي.

ثالثاً: أثبت البحث كيف أن الصراعات والتفكك السياسي لدى الإمارات العربية والدويلات الإسلامية وفارس والعراق في القرن الخامس عشر الميلادي، سهلت كل هذه العوامل تغلغل النفوذ البرتغالي في الخليج العربي وشرق أفريقيا، مع بداية القرن السادس عشر الميلادي، وأبلغ دليل على ذلك هو عدم وجود قوة إسلامية كبيرة مجاورة للشرق الأفريقي والخليج العربي للدفاع عنه عند الغزو البرتغالي المفاجئ، هذا إذا استثنينا دولة المماليك في مصر، والدولة العثمانية، وقد كانت كل منهما تعاني من مشاكل داخلية وخارجية.

رابعاً: ومن النتائج الهامة التي توصل إليها البحث، أنه كان للبشارة العرب والمسلمين الفضل الأول في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وأبلغ دليل على ذلك : أن مؤلفات أحمد بن ماجد، وسليمان المهري، وهما من أشهر البحارة والعلماء العرب والمسلمين في علوم البحار، أمدت البرتغاليين وغيرهم بالمعلومات والخبرات الهامة التي ساعدتهم على الوصول إلى الهند، واستفاد البحارة البرتغال من أمثال:

(بارثولوميو دياز) الذي اكتشف رأس الرجاء الصالح. و(فاسكو دي جاما) الذي وصل إلى الهند، عبر طريق رأس الرجاء الصالح، من علوم وخبرات العرب. وكان فاسكو دي جاما أول من مارس تطبيق الأهداف الصليبية ضد المسلمين في الشرق، كما وضع ركائز عمليات القرصنة البحرية البرتغالية في المحيط الهندي.

خامساً: استطاعت الدراسة أن توضح حقيقة تعرض شرق أفريقيا والخليج العربي والمحيط الهندي، لعمليات غزو وحشية صليبية من قبل البرتغاليين، اتضحت من خلالها أبشع عمليات انتهاك حقوق الإنسان من تدمير وإحراق المدن الآمنة ونهبها وإحراق المساجد والتمثيل بالأسرى والفتك بالشيوخ والأطفال والنساء،

وفرض الضرائب الباهظة على أهالي المدن بعد تدميرها، كما دمر البرتغاليون المراكز التجارية والبحرية في البحر الأحمر والخليج العربي وغرب الهند، عن طريق إحراق الموانئ بما فيها من السفن الراسية وممارسة أعمال القرصنة بالاستيلاء على كل سفينة ومركب تجاري يمر فيها، وفرض الرقابة على السفن بواسطة الحاميات العسكرية التي أقاموها في المراكز التجارية، وبذلك حوّل البرتغاليون هذا المعبر المائي المزدهر إلى مخزن للتجارة فقط يسوده الخراب.

سادسا: أثبت البحث أن الحملات المسلحة في المياه الشرقية اتخذت شكلا استعماريًا منظمًا، وذلك بعد أن عظم أمرها في المحيط الهندي، باستيلائها على البلاد الواقعة غرب الهند الواحدة تلو الأخرى، ومن هذا يظهر لنا أن هذه الحملات لم تكن سوى حركة للتوسع الأوروبي في المياه الشرقية، بالإضافة إلى الدوافع الصليبية التي جعلت البرتغاليين يفكرون في غزو ديار المسلمين، لكن كانت هناك دوافع اقتصادية مكنت قادة الحملات الصليبية من حشد المقاتلين والبحارة، الذين كانوا يطمعون في الحصول على ثروات الشرق، سواء كانت من التوابل أو البخور أو المنسوجات أو الأخشاب أو القوى العاملة في المزارع مثل الرقيق، وبالإضافة إلى هذه الدوافع ساعدت البرتغاليين مجموعة أخرى من الأسباب، كانت تتمثل في الدافع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني للمنطقة في ذلك الحين، كما أن انقسام القوى العربية سياسيًا نتيجة لخلافاتها المذهبية والقبلية وتطاحنهما فيما بينها، هيأ للبرتغاليين فرصة احتلال أجزاء من هذه المناطق، حتى أصبحت بمثابة قواعد برية فتحت شهيتهم للتوسع فيما جاورها بالإضافة، إلى أن نجاح الحصار الاقتصادي الذي فرضته السفن البرتغالية على السواحل العربية، أضعف القوى العربية وأجبرها على دفع الرسوم والضرائب للبرتغاليين، وهو الأمر الذي أتاح لهم ضم بعض الدول في المنطقة بسهولة ويسر، وساعدهم في ذلك عدم التعاون بين هذه الدول، وهو التعاون الذي كان يمكن أن يساعد العرب في فك الحصار البرتغالي لو أنهم قاموا بشغل الأسطول البرتغالي في أكثر من ساحل، والاستفادة من السواحل الأخرى التي لا يسيطر عليها هذا الأسطول.

كذلك ساعد البرتغاليين في حملاتهم، ذلك التحالف الذي نجحوا في إقامته مع الفرس ضد الأتراك العثمانيين والعرب الموالين لهم، ويؤكد ذلك ما كتبه الفونس دي بوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوي - شاه فارس - في سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م يعرض عليه مساعدته في حالة دخوله مع البرتغاليين في حلف ضد العرب.

سابعاً: أبرز البحث أن الدولة العثمانية لم تكن موفقة في القضاء على الدولة المملوكية، في وقت كانت الظروف المحيطة بالمسلمين بحاجة ماسة إلى التنسيق مع كل القوى العربية والإسلامية، لدحر الخطر القادم من أوروبا. ونرى في بداية الأمر أن الدولة العثمانية قامت بدور لا ينكر في مساعدة إخوانهم الجراكسة في بداية الصراع، ولو تم ذلك عن طريق إمدادهم ببعض المعدات والمؤن اللازمة للتجاريد الحربية، وإن كان هذا الدور ضعيفاً في هذا الصدد، حيث كان يجب أن يكون لها دور إيجابي في مساندة الممالك، بدلاً من التفكير في القضاء عليهم، لتكون دولة الممالك عوناً لها في مواجهة الخطر البرتغالي. والقضاء على الممالك أزهق الدولة العثمانية مما أحرّج المواجهة مع البرتغاليين، وقد أتاح هذا الفرصة للآخرين لبناء أنفسهم وتمركز قوتهم البحرية، مما جعل التخلص منهم صعباً، والتفكير في إيقاف تطورهم ومهاجمتهم للموانئ العربية ليس سهلاً، مما عظم أمرهم في فرض حصارهم على الموانئ العربية والهندية على السواء.

وهناك موقف سلبي آخر من قبل السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري سلطان اليمن، إذ إنه أعاق وجهة الحملة الثانية، حيث غير مجرى أحداث هذه الحملة بدلاً من مواجهة البرتغاليين لوقف نشاطهم في المياه العربية والهندية، إذ وجهت الحملة لفتح المدن اليمنية والسيطرة عليها دون نظر للأعداء القادمين من أوروبا.

ثامناً: بعد احتلال العثمانيين للشام ومصر في عامي ١٥١٦ - ١٥١٧ م، انشغلوا في ترسيخ دعائم وجودهم في البلاد العربية، وكانت هذه فترة ذهبية للوجود البرتغالي في الشرق، لأنهم لم يتعرضوا لأية مقاومة تعوق توسعهم وتمركزهم في المياه الهندية وشرق أفريقيا.

كما أن عدم تماسك القوى الإسلامية في مواجهة الخطر البرتغالي، وبطش القادة العثمانيين الذين تولوا القيادة لمواجهة العدو البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي، جعل الأمراء والسلاطين في كل من اليمن والساحل الهندي لا يطمئنون لهؤلاء القادة، وبخاصة عندما قامت حملة سليمان باشا في عام ١٥٣٩م، حيث أن هذا القائد لم يتعظ من مصير سلفه حسين الكردي، الذي قاد حملة المماليك وارتكب الأخطاء ذاتها من حيث عدم تنسيقه مع القوى العربية في جنوب البحر الأحمر، بل إنه عمد إلى استعدادها.

تاسعا: حل الباحث النتائج التي أسفرت عن الغزو البرتغالي لشرق أفريقيا والمياه الهندية، فقد أدى ذلك إلى أن العثمانيين حوّلوا وجهتهم من أوروبا، بعد أن هددوا أسوار فيينا إلى المشرق العربي، حيث الخطر الصفوي والبرتغالي، وأخذ العثمانيون يدفعون بجيوشهم نحو الشرق للاستيلاء على ما يسمى الآن بالشرق الأدنى، ونجحوا في ذلك نجاحا منقطع النظير، ففتحو العراق وأطلّوا على الخليج العربي، وشهدوا صراع البرتغال في المياه الهندية.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، أن النفوذ البرتغالي في شرق أفريقيا والخليج العربي والمحيط الهندي في القرن السادس عشر، وما ترتب عليه من غنى فاحش للبرتغاليين، أسال لعاب القوى الصليبية الأخرى في أوروبا، لأهمية ثروات الشرق وخيراته، وموقعه الاستراتيجي كمعبر لتجارة الشرق، فكان هذا النفوذ البرتغالي بداية عصر استعماري صليبي جديد تمثل في الشركات التجارية الهولندية والإنجليزية والفرنسية.

وفي الختام يشير الباحث إلى أنه على الرغم من الجهد المضني الذي بذله سعيا وراء الوثائق الأصلية، فهناك كثير من الوثائق التي لم يطلع عليها أحد حتى الآن، وهي تبرز حقيقة هذا التصور الخطير الذي مرت به منطقة الشرق، وما كان لها من أثر اجتماعي وسياسي واقتصادي لم يتعرض له الباحثون بالتفصيل، وتلقى الأضواء على العلاقات بين كل من الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي في تلك

الفترة فهناك وثائق برتغالية كتبت باللغة اللاتينية لم يتمكن الباحثون من الاستفادة منها حتى أن الكتّاب البرتغاليين لم يستطيعوا إلى الآن قراءتها، فقليلون هم المتخصصون في فك رموزها، وقد سمعت هذا من أحد العاملين في الأرشيف الوطني في لشبونة وهناك رسائل عدة من حكام الدويلات الإسلامية سواء أكانت في الهند أم الخليج العربي أم الشرق الأفريقي، كتبت بخط اليد باللغة العربية، وأرسلت إلى ملوك البرتغال، على مدى القرن السادس عشر، وهي تبين مدى الرعب الذي زرعه هؤلاء الغزاة في نفوس الحكام والولاة.

والملاحظ أن الوثائق العثمانية التي تناولت هذه الفترة، غير متوافرة ولا تساهم في البحوث التي تعرضت لهذا الصراع البرتغالي العثماني، وإن وجدت فهي قليلة ليست بالكم الموجود بالأرشيف الوطني في لشبونة.

(ARGUIVO NACIONAL DA TORRE DO TOMBO)

والموجود ليس من السهل الاستفادة منه.

ويرجو الباحث أن يكون بعمله هذا، قد فتح الباب في المستقبل، لمزيد من البحوث التي تساهم في كشف النقاب عن هذا الصراع الهام بين الشرق والغرب، والنتائج التي أسفرت عنه.

الملاحق

الخرائط والصور

ملحق رقم (١)



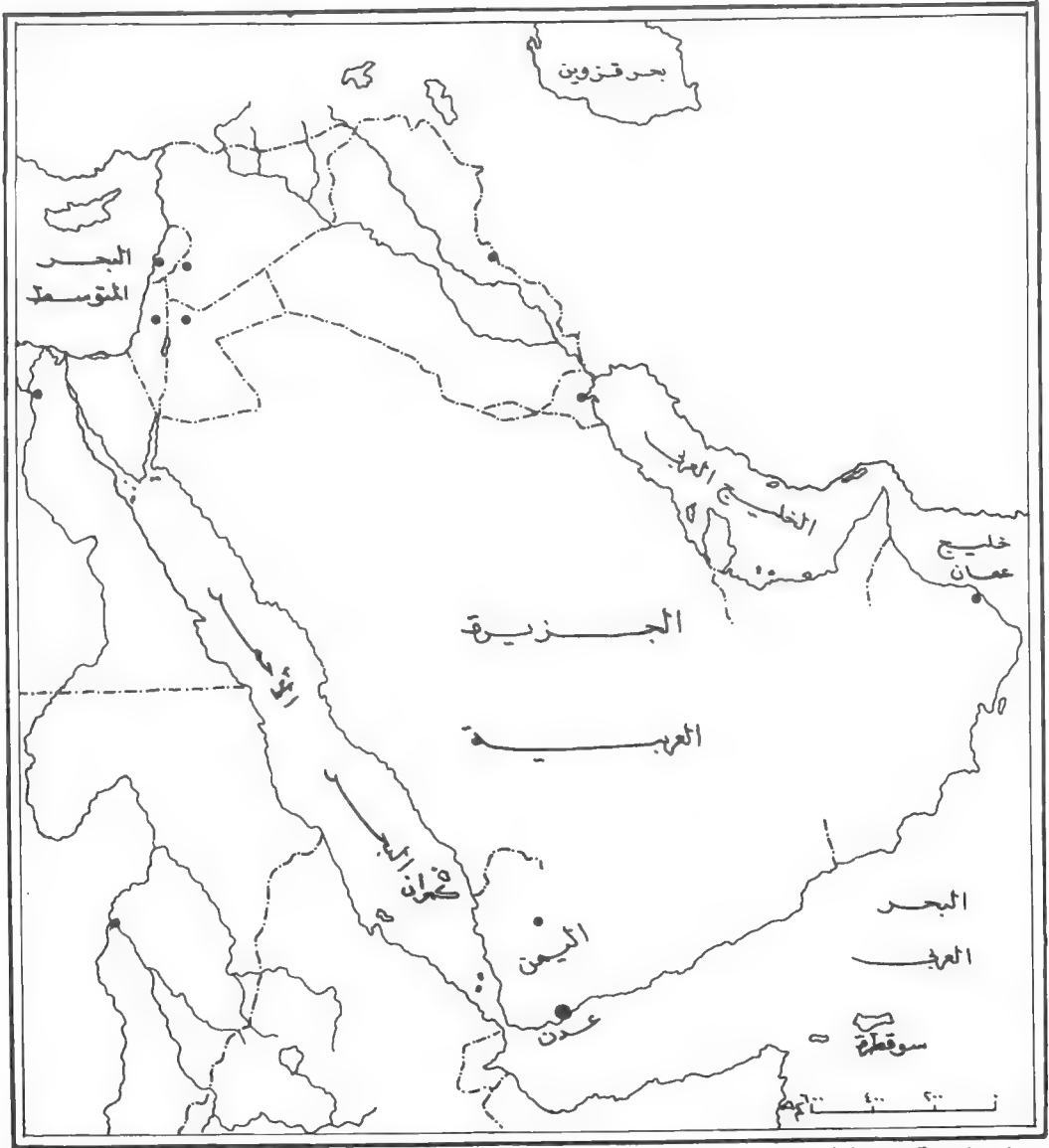
شكلاً رقم (١) أهم المدن البرتغالية

ملحق رقم (۲)



رجب محمد عبد (خلع) : مرجع سابع ص ۲۶۰

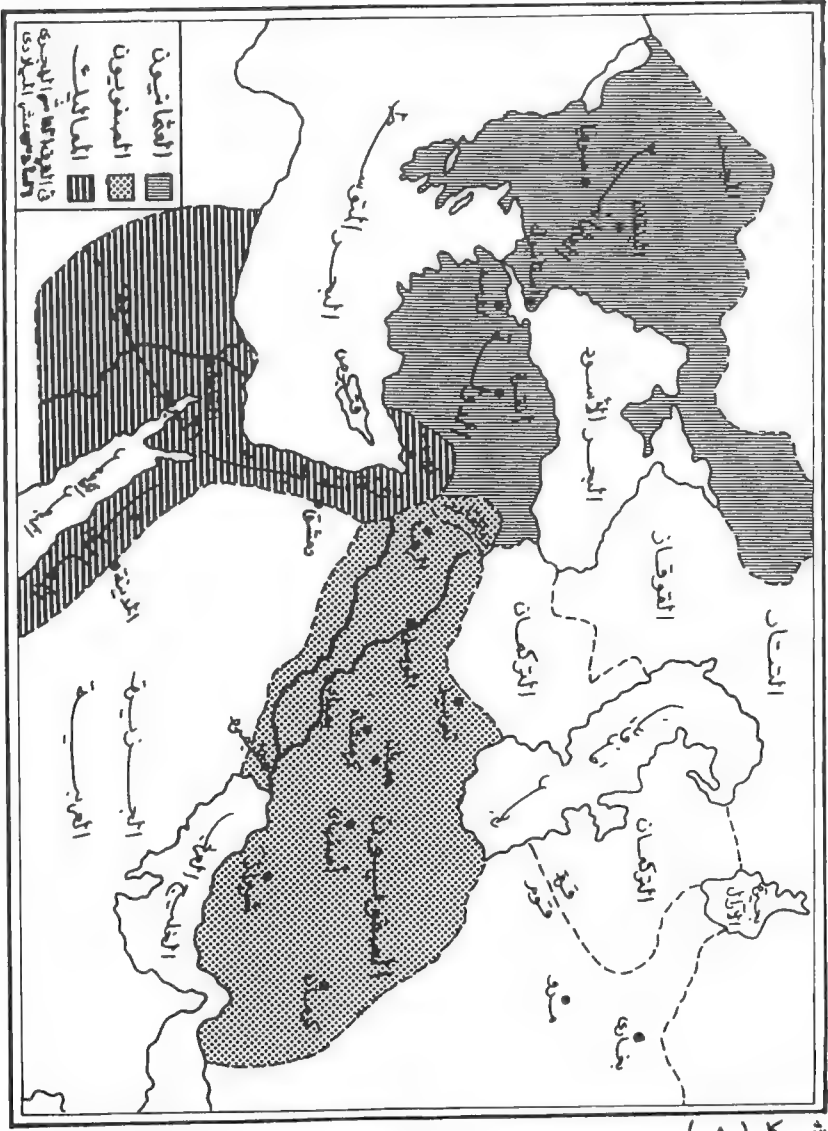
ملحق رقم (٣)



شكل رقم (٣)

عدن في بداية مرحلة الغزو البرتغالي للبحر الأحمر

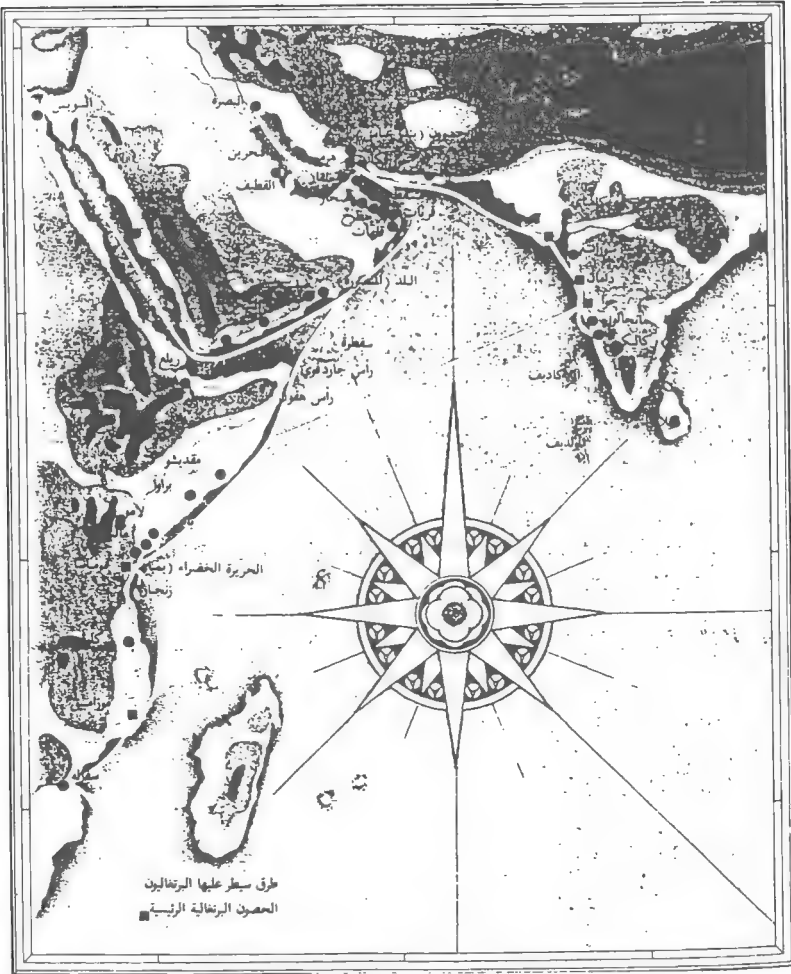
ملحق رقم (٥)



شكل (٥)

الدولة العثمانية وتوسعها في الشرق في بداية القرن السادس
عشر يظهر عليها حدود الدول الإسلامية

ملحق رقم (٧)



شكل رقم (٧)

البرتغاليون والطرق التي سيطروا عليها في المحيط وبحر العرب في القرن السادس عشر الميلادي..

عمان وتاريخها البحري : وزارة الإعلام والثقافة ١٩٧٩
(ص ٥٧)

فاسكو دي جاما



ملحق رقم (٨)

خريطة: تبين خط سير رحلة فاسكو دي جاما عبر رأس

الرجاء الصالح عام ١٤٩٧م، حيث انطلقت من لشبونة

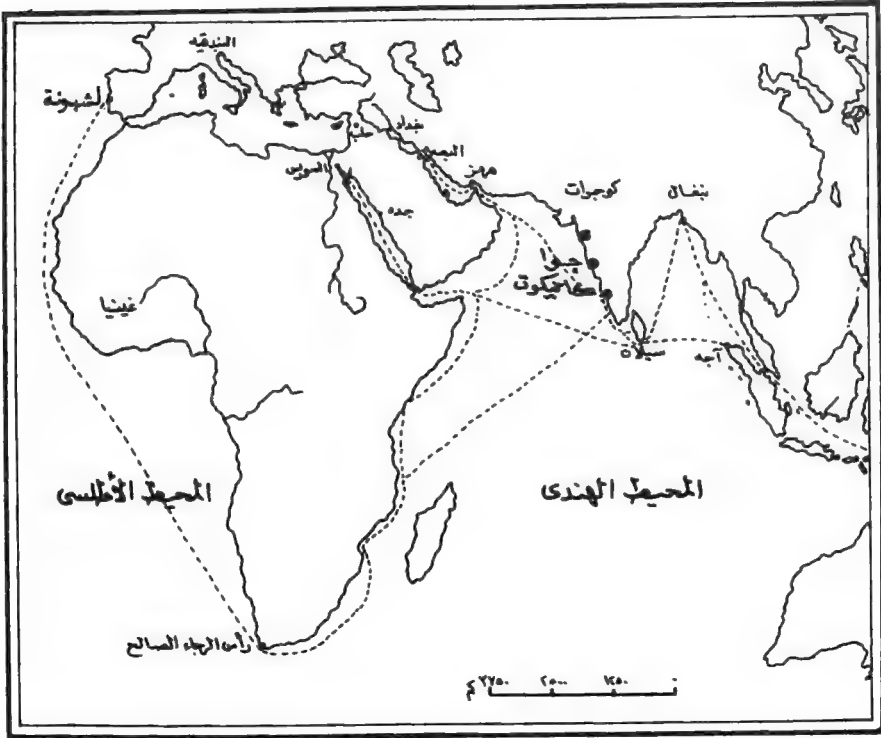
العاصمة البرتغالية إلى الهند ويظهر في الصورة فاسكو دي

جاما ورفاقه وهو يسلم رسالة ملك البرتغال عمانويل

لسامورني سلطان كجرات

المعرفة: المجلد الأول ص ٢٨ - ٢٩ بدون تاريخ.

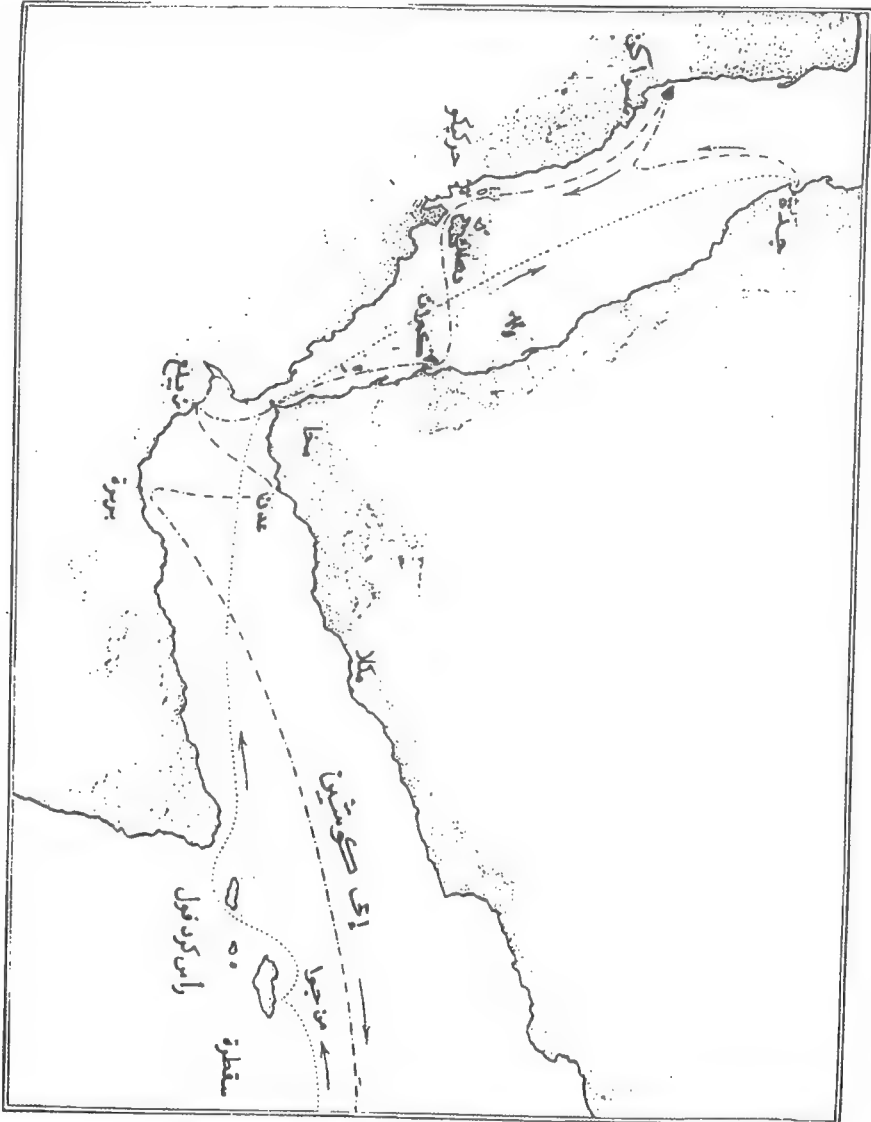
ملحق رقم (٩)



شكل رقم (٩)

الخطوط التجارية البحرية البرتغالية في القرن السادس عشر

ملحق رقم (١٠)



شكل رقم (١٠)

خريطة للبحر الأحمر ويظهر عليها خط سير حملة
لوبيسواريس الذهب والعودة من جدة إلى إلى جوا
والتي باءت بالفشل في عام ١٥١٧م.

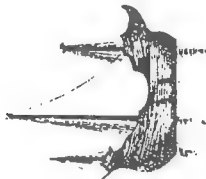
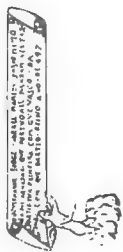
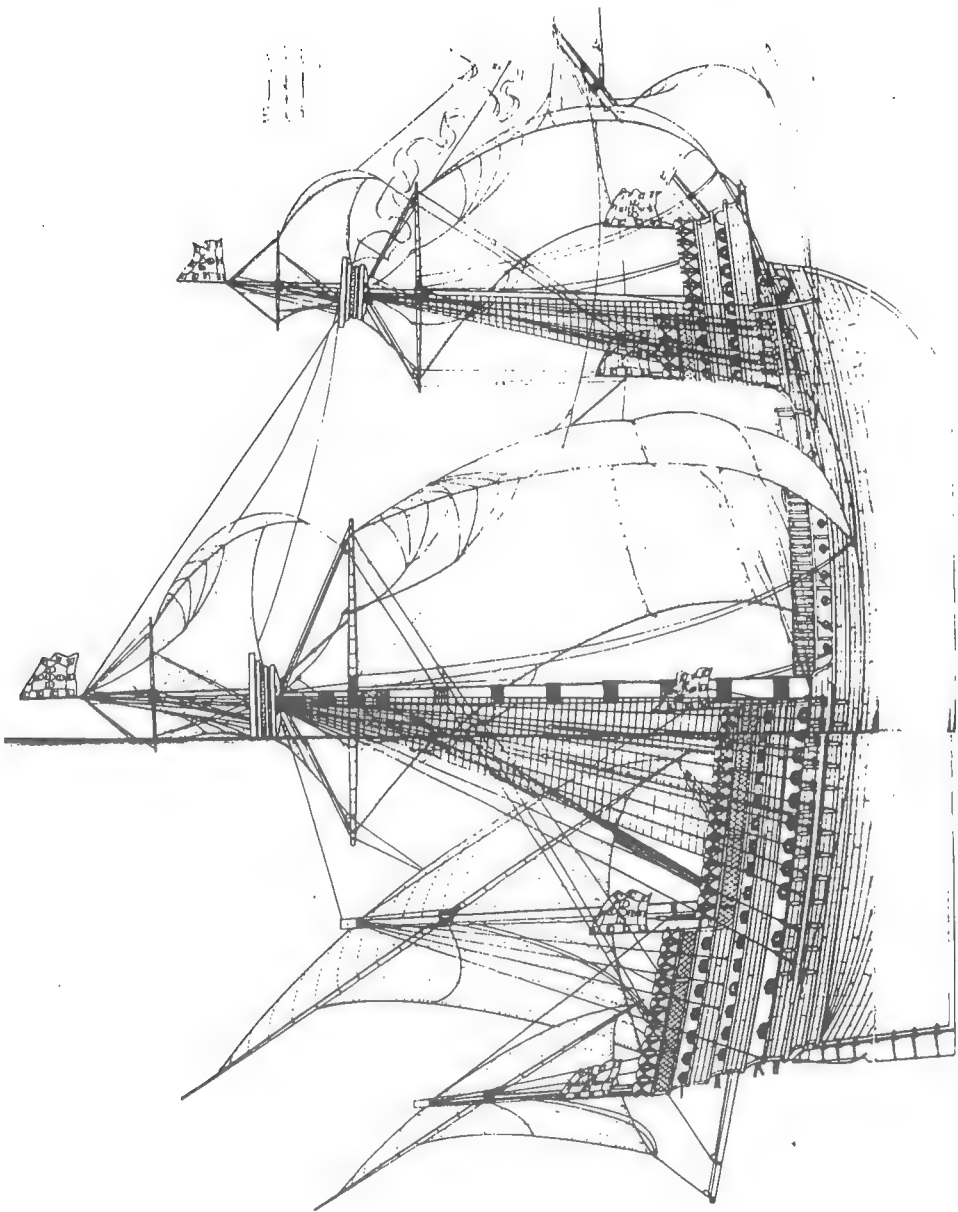
KAMMERER : OP. CIT. T. II. P. 267

ملحق رقم (١٢)

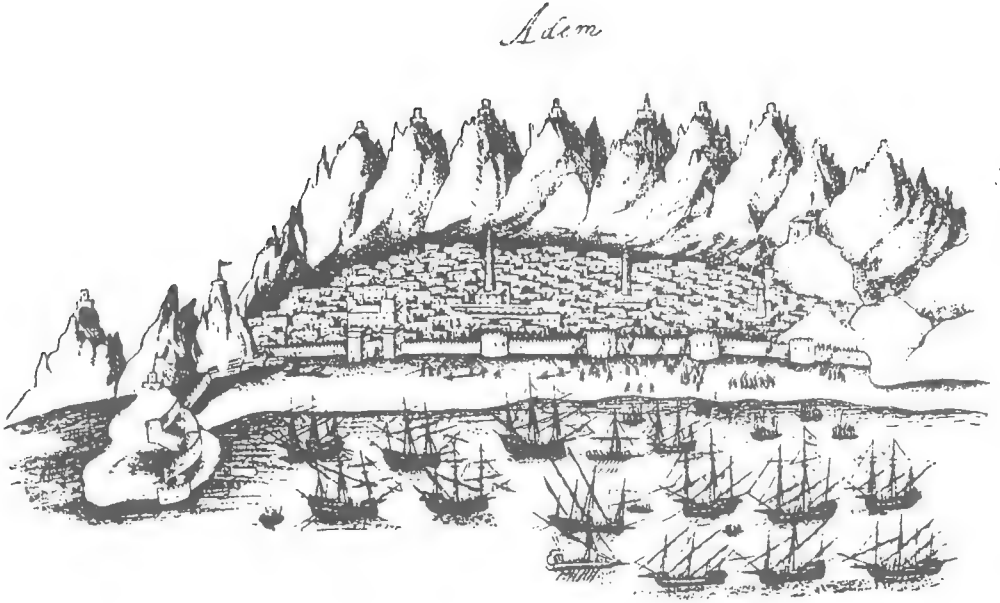
مصورة رقم (١٢)

سفينة حربية برتغالية حوالي سنة ١٥٢٠ ميلادية وتظهر سفن فاسكودي جاما الثلاث.

عمان وتاريخها البحري: وزارة الإعلام والثقافة ١٩٧٢، ص (٥٤).



ملحق رقم (١٣)



ADÉM

عدن

Desenho de Gaspar Correia

صورة رقم (١٣)

منظر لميناء عدن اثناء الهجوم البرتغالي عليها عام

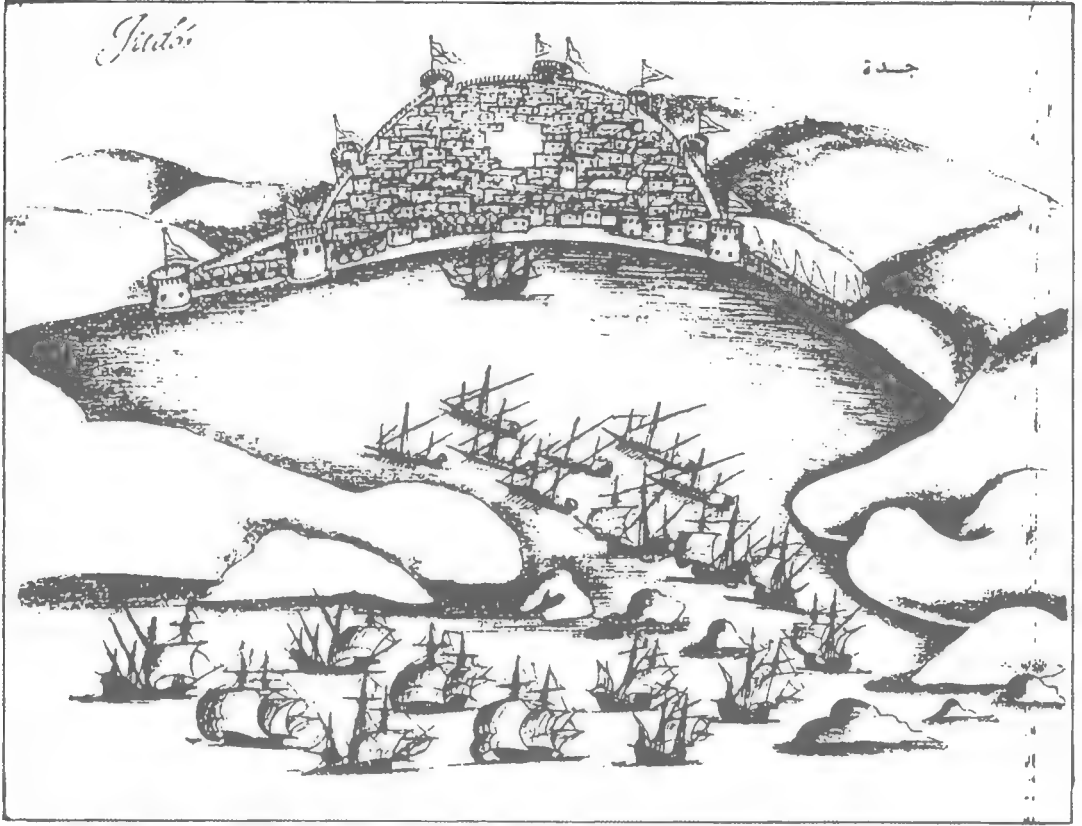
١٥١٣م، بقيادة البوكسرك (١)

DR. JOST RTANCISCO DOS SANTOS:

ALFONSO DE ALBUQUERQUE

SONHO DA INDIA P: 272

ملحق رقم (١٤)



صورة رقم (١٤)

منظر لميناء جدة خلال الهجوم البرتغالي بقيادة
لوبيواسواريس عام ١٥١٧م، وتظهر التحصينات المنيعة
التي بناها المماليك عام ١٥٠٥م على يد حسين الكردي.

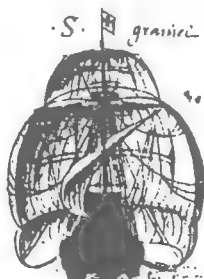
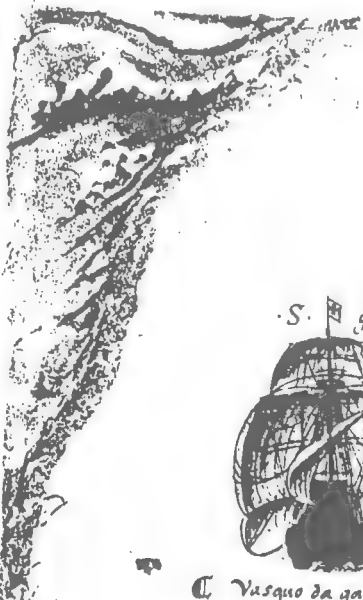
ANGELO PESCE: OP. CIT. P. 86

1.º No Anno de 1497 -
Fueo Vasco da gama ferra a India a bordo do Nuego por capitão mór cõ quatro bellas. 3.ª ferra a equi-
lis descobrimento da India e fua carregada de mantimentos ferra se cõ elle e cõ a ferra a equi-
liferma, das quaes - do cõ os capitães -

ملحق رقم (١٥ أ)

أنواع السفن البرتغالية الحربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي.

FUNDACAO DA SUA; EDICAO DA
ACADEMIA DAS CIENCIAS DE
LISBOA NO SEGUNDO CENTENARIO
(LISBOA 1979).



C Vasquo da gamma, **D**

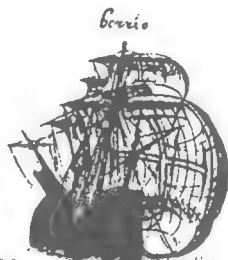


E Paolo da gema

Junio de 1880. A guisa de livro da festa
fugaz, venho de or. Cayxoo Antre guilva
bata, doc queres ysmo de. S. da foz part. y
tallier ysmo de ysmo de, ysmo de ysmo de
de tiepartio pta. duas da comp. y



Concilio nunc. D



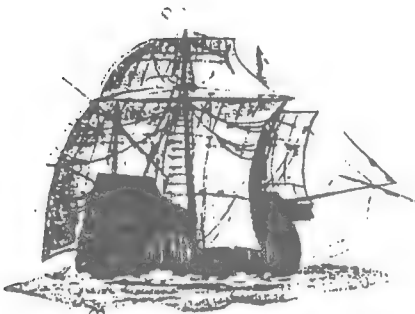
«Niwlis wogu»

Criado de vasq da gama depois da Mo ter passando
 por cabido deboa e sprana e ter founco a vante da aquada
 de fouteiro se he partiuo os mantimentos e aynk
 nella pellas e outas de companhia, e de fouro de tres pe
 cada e se posera a fugo /—

110 Anno de. 1664.

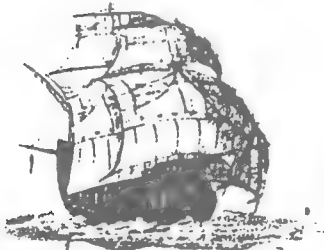
Parto Dom. Antão de novonha por Viso da Índia com quatro náos
destas capitães

ملحق رقم (١٥ ب)



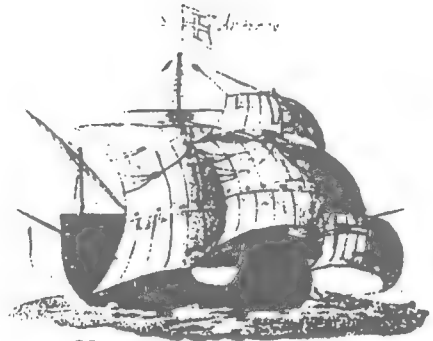
Porto carracko

desta nave para a Índia com quatro náos



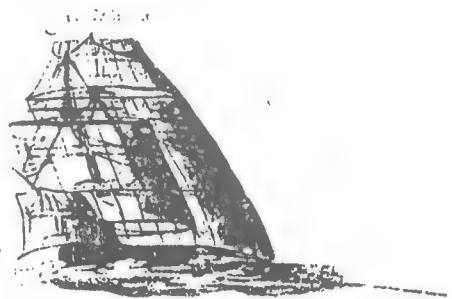
Ant. mendo de novo

(أنواع السفن البرتغالية العربية في القرن السادس عشر)



Dom. Antão de novonha

desta nave para a Índia com quatro náos



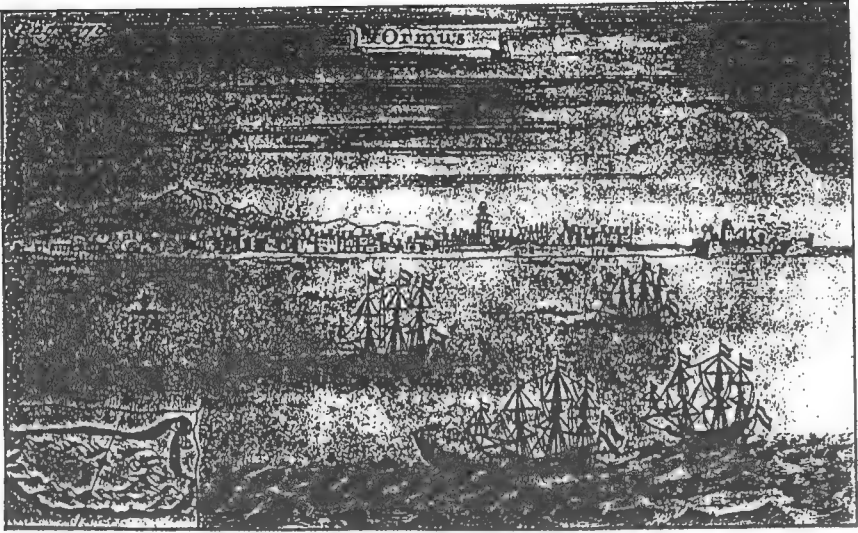
Dom. de souza

desta nave para a Índia com quatro náos

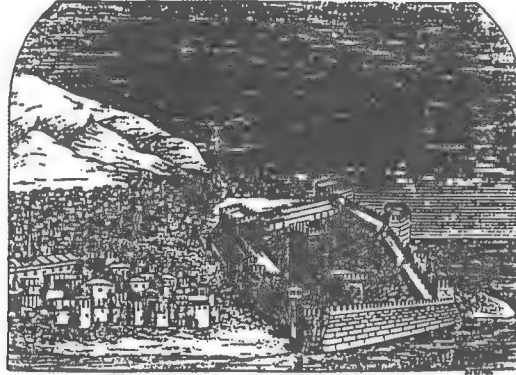
صورة رقم (١٥ ب)



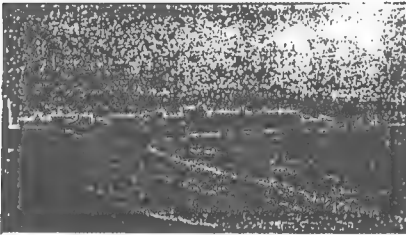
ملحق رقم (١٦)



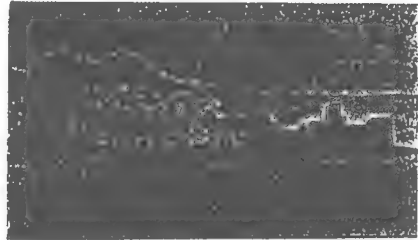
Map. 683



Map. 684



Map. 685



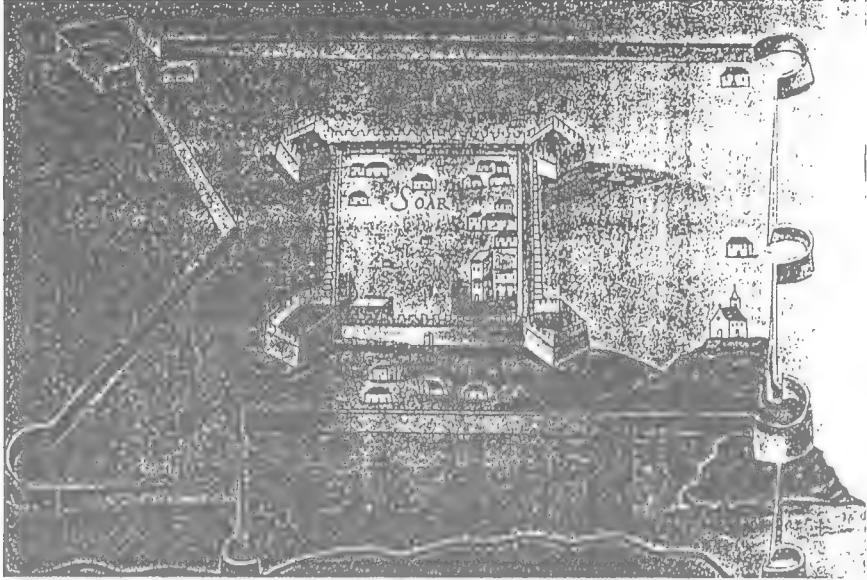
Map. 686

صورة رقم (١٦) « منظر عام لمدينة هرمز ويظهر التطور العمراني في ذلك
العصر وتظهر كذلك القلاع والحصون التي شيدها
البرتغاليون والتي اكتملت على يد الفونسو البوكيرك عام

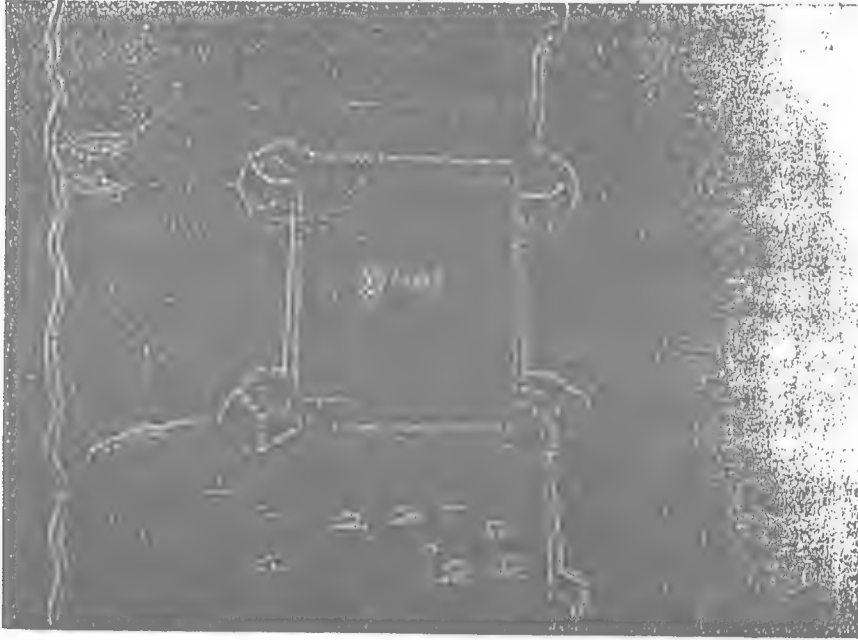
١٥١٥م.

SILVEIRA LUIS : LCONDGRAFIA DAS CIDADES
PORTUGUESAS DO ULTRAMAR (LISBOA. ND) . P. 328

ملحق رقم (١٧)



Det. 800



Det. 801

صورة رقم (١٧)

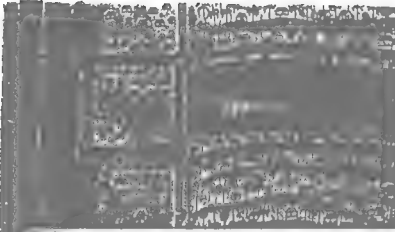
منظر عام لكل من صور العمانية، وكلتا الإمارات وتظهر
القلع والاسوار التي بناها البرتغاليون اياه دخولهم
منطقة الشرق الغربي في الربع الاول من القرن السادس
عشر الميلادي وكلتا المدينتين تقعا على الساحل الشرقي
للخليج العربي(١)

SILVEIRA LUSI. : OP.: P. 316

ملحق رقم (١٨)

منظر عام لتحصينات كلبا وخورفكان على يد
البرتغاليين في بداية القرن السادس عشر الميلادي

SILVEIR LUSI. : OP.: P. 317



Mat. 661

Dimensão da mancha: 272 x 180 mm.
Dimensão externa: 279 x 185 mm.
Cota: F. C. B.

1a: LIVRO DAS PLANTAS DAS PORTALSES, CIDADES E POVOAÇÕES DO ESTADO DA INDIA ORIENTAL

Aquarela, sobre papel.
Dimensão da mancha: 290 x 375 mm.

Cota: F. C. B.

1a: LIVRO DAS PLANTAS DAS PORTALSES, CIDADES E POVOAÇÕES DO ESTADO DA INDIA ORIENTAL.

Aquarela, sobre papel.
Dimensão da mancha: 290 x 375 mm.
Dimensão externa: 300 x 400 mm.
Cota: B. P. E. — CXV/2-1.
Legenda:

Título: Mapa.

1a: LIVRO DAS PLANTAS DE TODAS AS PORTALSES, CIDADES E POVOAÇÕES DO ESTADO DA INDIA ORIENTAL ... Aquarela n.º 13.

Aquarela, sobre papel.
Dimensão da mancha: 418 x 650 mm.
Dimensão externa: 442 x 652 mm.
Cota: B. N. L. — II. 149.
Legenda:

Título: Mapa.

1a: MARIE CARNEIRO (ANTONIO) — DESCRIPÇÃO DA PORTALESA DE SOPALA E DAS MAIS DA INDIA COM HUMA RELACÃO DAS RELIGIÕES TODAS E NA HO MESMO ESTADO. 1888. Carta n.º 12.



Mat. 104

Dimensão externa: 300 x 400 mm.
Cota: B. P. E. — CXV/2-1.
Legenda:

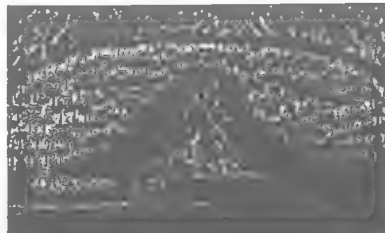
Título: Cerjeonem.

1a: LIVRO DAS PLANTAS DE TODAS AS PORTALSES, CIDADES E POVOAÇÕES DO ESTADO DA INDIA ORIENTAL ... Aquarela n.º 16.

Aquarela, sobre papel.
Dimensão da mancha: 418 x 650 mm.
Dimensão externa: 442 x 652 mm.
Cota: B. N. L. — II. 149.
Legenda:

Título: Cerjeonem.

1a: MARIE CARNEIRO (ANTONIO) — DESCRIPÇÃO DA PORTALESA DE SOPALA E DAS MAIS DA INDIA COM HUMA RELACÃO DAS RELIGIÕES TODAS E NA HO MESMO ESTADO. 1888. Carta n.º 16.



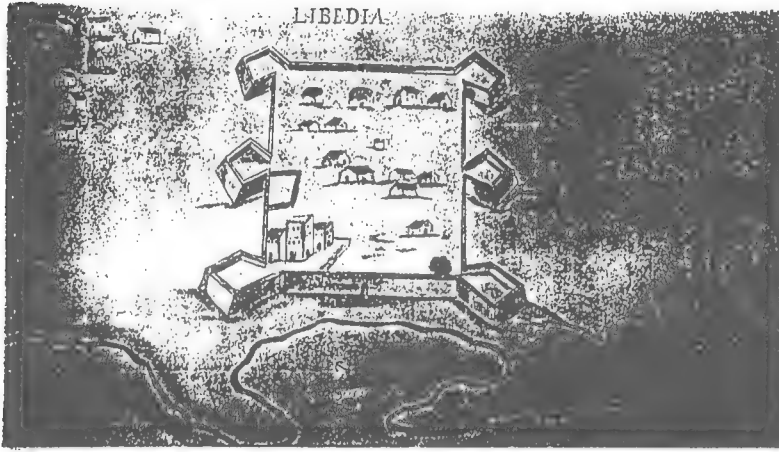
Mat. 106

صورة رقم (١٨)

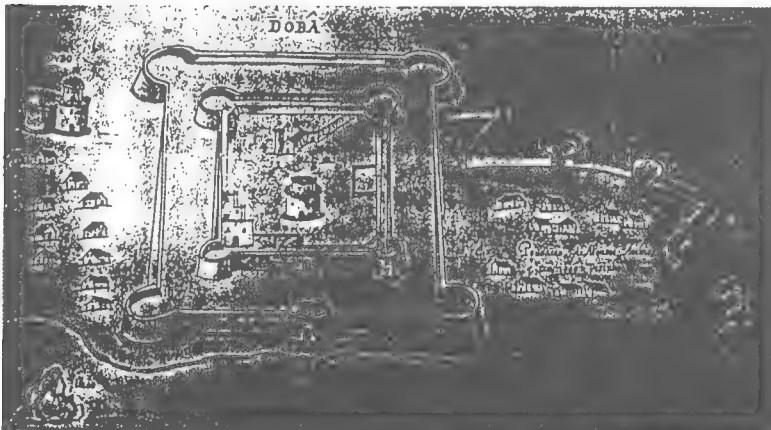
ملحق رقم (١٩)

منظر عام لمنطقة دبا وباسمها العربي والبرتغالي وتقع
على الساحل الشرقي لدولة الإمارات العربية المتحدة
وتظهر القلاع والحصون ومساكن البرتغاليين العاملين
على السفن الحربية.

SILVEIRA LUIS: OP: P. 393



Map. 823



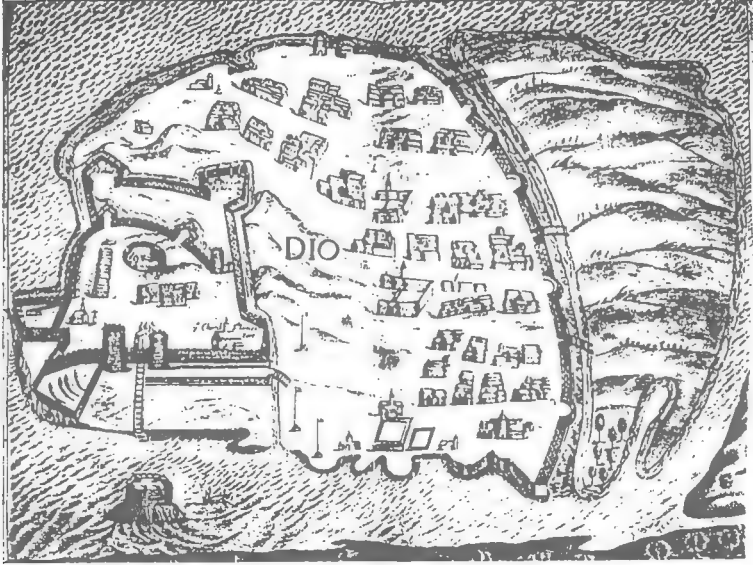
Map. 828

صورة رقم (١٩)

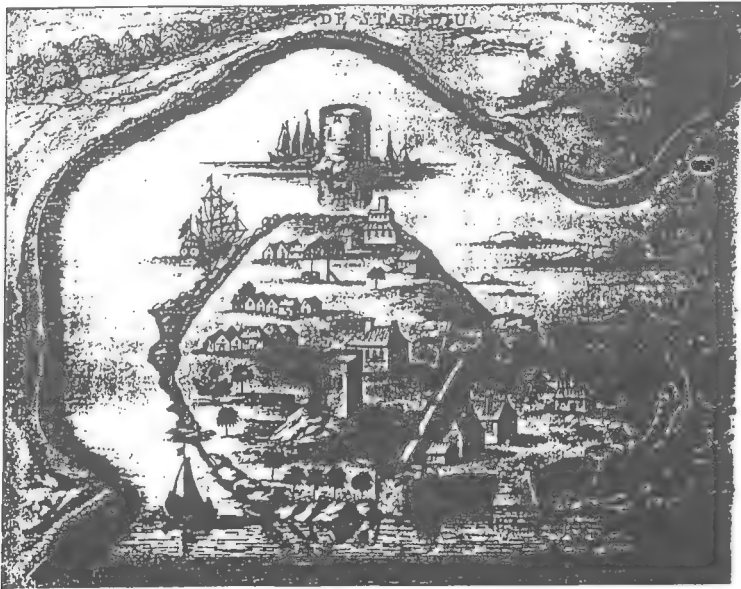
ملحق رقم (٢٠)

منظر عام للحصون والقلاع والأسوار لمدينة ديوبالهند
عام ١٥٣٨ م.

SILVEIRA LUIS : OP. CIT. P. 336

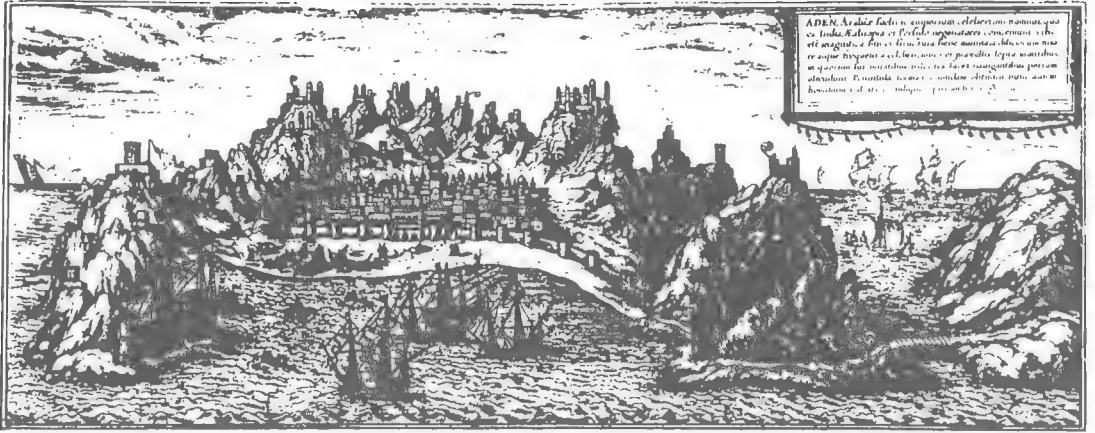


Pl. 118



Pl. 118

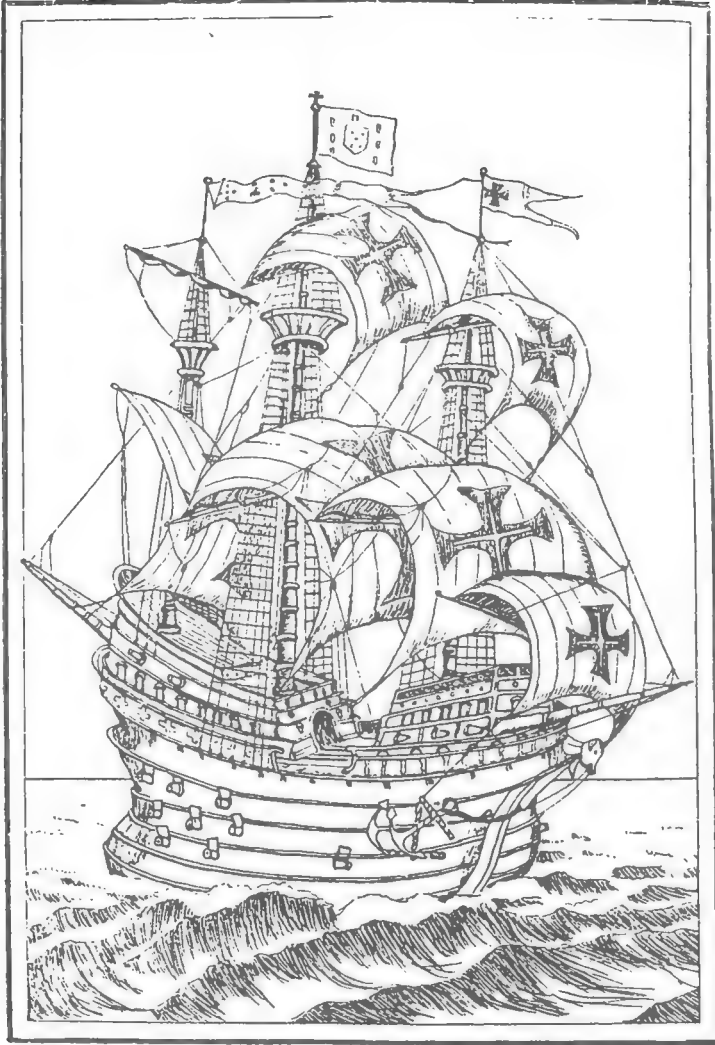
ملحق رقم (٢١)



صورة رقم « ٢١ »

منظر عام لعدن في القرن السادس عشر وهي الثغر الهام
 بالنسبة لمداخل البحر الأحمر

ANGELO PESCE: OP. CIT: P62

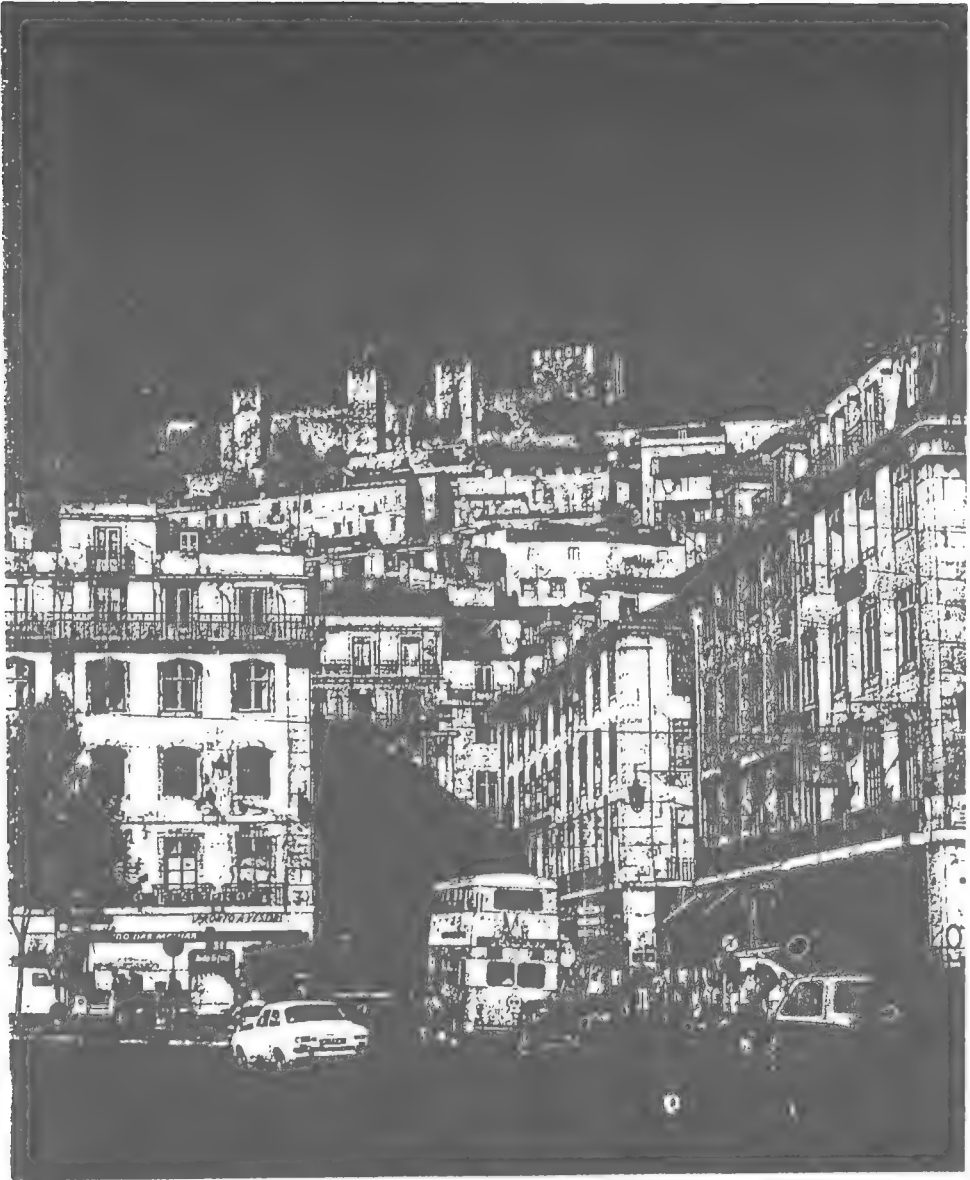


صورة رقم (٢٢)

منظر لإحدى السفن البرتغالية التي ظهرت في البحر الأحمر (١)

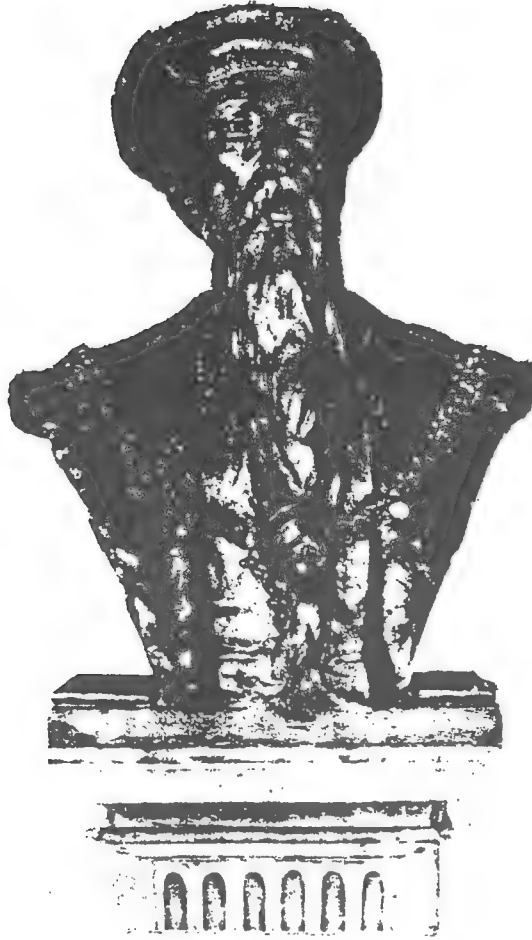
DR. JOSE FRANCISCO DOS SANTOS
OP. CIT. P. 244

ملحق رقم (٢٣)



مدينة لشبونة عاصمة البرتغال اليوم يعلوها الحصن العربي القديم بعد ترميمه

طارق خالد : مرجع سابق، ص: ١٠٢



صورة للقائد البرتغالي الفونسو دي البوكيرك

DR. JOSE FRANCISCO DOS SANOS:
OP. CIT. P. 113.



القائد البرتغالي فاسكو دي جاما..

ARMANDO CORTESAO

THE MYSTERY OF VASCO DA
GAMA COIMBRA 1973, P. 12

الوثائق

YLo

الملاحق

ملحق رقم (٢٧)

رودس في ٢٩ مارس سنة ١٥١٢ م

السويس، البحر الأحمر، سيناء، أثيوبيا، سوكوتورا

معلومات عن خطط سلطان القاهرة ضد البرتغاليين.

أندرو دو أمراي مستشار رودس وقائد VERZ GRUZ يبلغ ملك البرتغال بأن سلطان القاهرة يخطط لتحطيم القوة البرتغالية في الشرق، وقد أمر ببناء عشرين سفينة شراعية وغيرها بالسويس ويرى دو أمراي أنه من المفيد تحطيم هذه السفن والمعدات الحربية قبل أن تكون جاهزة لأن السلطان لو انتصر مرة سوف يتشجع لمحاولات أخرى.

كما يبلغه أيضا عن الملاحه في البحر الأحمر موضحاً أن البحر كان مرتفع الأمواج (هائجاً) نتيجة لجمال أثيوبيا وسيناء العالية، وكان الفارو فازدا فونسكا ALVARO VAZ DA FONSECA أحد البرتغاليين المرتدين هو الذي شجع سلطان القاهرة ليأخذ موقفاً تجاه التحصينات البرتغالية، وقد سأل ملك جزيرة سوكوتورا سلطان القاهرة لمساعدته بحرياً^(١)

«بمساعدة مترجم»

A. N. T. T. C. C. I - II - 47.

RHODES, 29th MARCH 1512

**SUEZ, RED SEA, SINAI
ETHIOPIA, SOCOTORA**

**INFORMATION ABOUT THE PLANS OF THE SULTAN OF CAIRO
AGAINST THE PORTUGUESE**

ANDRE DO AMARAL Chancellor of Rhodes and Commander of Vera Cruz, informs the King of Portugal that the Sultan of Cairo was planning to destroy Portuguese power in the Orient and that had ordered twenty galleys and ten "lastardas" to be built in Suez. **AMARAL** thought it would be advantageous to destroy those ships before they were ready because if the Sultan won once he would be encouraged to try again.

He also gives information about the navigation in the Red Sea saying that the sea was windy due to the high mountains of Ethiopia and Sinai. A Portuguese renegade, **ALVARO VAZ DA FONSECA**, was the one who encouraged the Sultan to take possession of the Portuguese fortifications. The King of the island of Socotora asked the Sultan for some navy help.

AN N.T.T., C.C. 1 - 11 - 47

Parte 1.^a

Março 14. Dic. 47. N.º 1253

Aqui se acha dentro o sumario deste Do
cum.^{to} 18.

A 29 de Março de 1542

YSLU



Deposited in the office of the

[illegible]

entendendo C'na vossa asua mas C'isto era
 magno por C' agora ex p'p'io C' ab r'ator
 de C'ra m'f' C' p' m'ad' de quarto de
 d'p'ulla de por de r'ato C' de t'oz C' v'oz
 t'ub' anos C' f'ora m' an' e'f'ecto C' ag'ua
 os ab'ra v'oz a l'iza r'ato de C'pa e'f'ecto
 C' os C' de r'at' v'oz p' f'ag'oz a'f' C'os C'
 v'oz d'ia outro tanto C'por tanto amon p'p'io
 f'ia m' p'f'ite d'f'ito ab'ra d'ad' por C'ra
 m'ra e'f'ecto ab'ra a l'iza f'ia de r'ato de
 m'ta m'portancia C'na p' p'p'io
 aqu' e'f'ia f'ia om' d'f'ito C' p'p'io de p'p'io
 p'p'io p' p'ra C'na de r'ato C'na ab'ra
 a l'iza r'ato e'f'ecto r'ato mas C'as m'f'ite
 C' al'ario a'ra C'ado r'ato f'ia as p'p'io
 C'f'ara C'na aqu' p' e'f'ecto m'ab' C'
 p'p'io p'
 os m'iares C'na de l'iza de m'f'ite
 an' f'ito tanto C' an' f'ito a l'iza de f'ite
 m'iares f'ia e'f'ecto de p'p'io as p'p'io
 p'p'io de t'omamos a'ra de p'p'io de p'p'io
 C'pa f'ite p'az r'ato e'f'ite C'na de p'p'io
 r'ato de p'p'io C'na de r'ato de p'p'io
 f'ite de p'p'io t'omamos e'f'ite C'na de p'p'io
 f'ite e'f'ite de f'ite p' p'p'io de p'p'io
 r'ato de p'p'io e'f'ite de p'p'io de p'p'io
 f'ite C'na de p'p'io de p'p'io de p'p'io
 r'ato de p'p'io de p'p'io de p'p'io



(Principio de la obra)

por esta causa si de tanta importancia
 amon puzgo se por nro q como se estuda adon
 abiso de tudos ruyos por abar se entente
 aeste infit polidaz puzze fira q dize
 (por tanto vigiandome en nro creer
 dandome como esta nusa se sa de faze id
 gallos q puzze nabit abantados daz
 gonabegar dos nabit adestmadis nabitaz
 nist nabit (q se nist omis de se de
 epto pa romitos epto m oty pta epto)
 za nupeto q dize nabit fante puz
 dize de trator aym nro q de amon
 aqua pta ay q de abantaz de omis
 aomro como se entede ab entes nuyos de
 nro (pote qal dize abysy de nro
 abos a dize como aqua se fira nro
 tlay nro de nro dize q se dize qn
 tuis epto dize q aqua a vito por q
 rta dize or dize amon nabit q nro
 fira q de nro nro nro como no ar
 nro q nro epto nro entede entede
 nro por q nro puzze q se dize a dize
 q puzze se nro puzze puzze (q nro
 nro nro puzze q nro nro nro nro
 nro nro aqua fira nro nro nro
 nro nro q nro q nro q nro q nro



1992-1993

ملحق رقم (٢٨)

رودس في ١٩ إبريل سنة ١٥١٢ م

خطاب من أندرو دو أمراي حول خطة سلطان القاهرة.

أندرو دو أمراي مستشار رودس وقائد VERA CRUZ يحذر ملك البرتغال مرة أخرى من استعدادات سلطان القاهرة المحرض بواسطة الخارج المرتد الفارو فازدافو نسيكا ليهاجم البرتغال من الشرق.
أندرو دو أمراي أعطى توصية لحامل الخطاب (فلان) الذي وصل لتوه من القاهرة وربما يعطي تفاصيل أكثر.

A. N. T. T. C. C. I - II - 61.

RHODES, 19th APRIL 1512

CAIRO

**LETTER FROM ANDRE DO AMARAL ABOUT
THE PLANS OF THE SULTAN OF CAIRO**

ANDRE DO AMARAL Chancellor of Rhodes and a Commander of Vera Cruz again warns the King of Portugal of the preparations of the Sultan instigated by the renegade **ALVARO VAZ DA FONSECA** To attack the Portuguese in the Orient.

ANDRE DO AMARAL gave a recommendation to the carrier of the letter the Genoese **ANTONIO DE LA FRANQUI JULIA** who had just arrived from Cairo and could give more information.

A. N. T. T., C.C. 1 - 11 - 61

[illegible]

ملحق رقم (٢٩)

كوشيم في أول ديسمبر سنة ١٥١٢ م

ملقا كلكتا

خطاب من ملك كوشيم إلى د. مانويل الأول يشكر ملك كوشيم ملك البرتغال للكرم واللف الذي يلاقونه من شعب البرتغال ويعد بأن مملكته سوف تحترم البرتغال طالما هو وورثته على قيد الحياة. كان ملك أوشيم سعيداً لأن د. مانويل قد قبل الفيل الهدية الذي قدمه له.

ولقد قدم لـ ARAL ووالديه بعد أن اعتنقوا الدين المسيحي الاحترام والتقدير والمساعدة حيث كانت هذه رغبة ملك البرتغال، وكان الفلفل جاهزاً للشحن إلى البرتغال ولكن لا تصل السفن أحياناً في الميعاد، ونقلت السفن البضائع من ملقا دون موانع أو عوائق.

ولقد نصح د. مانويل ليأخذ حذره من ملك كلكتا لأنه كان خائناً ولا يجب التباحث معه في السلام.

وقد ذكر في رسالته أن لديه قرفة وتوابل أخرى في انتظار السفن البرتغالية.

A. N. T. T. C. C. I - I2 - 35.

COCHIM, 1st DECEMBER 1512

MECA, CALECUTE

LETTER OF THE KING OF COCHIM TO D'MANUEL I

The King of Cochim thanks the King of Portugal for the kindness and courtesy shown to them by the Portuguese people and promises that his Kingdom will serve Portugal as long as he himself and his heirs were alive. The King of Cochim was happy because D'MANUEL appreciated the elephant that was sent to him.

To "AMRAL" and his parents, who became christians, he rendered courtesies as it was the wish of the King of Portugal. The pepper was ready to be shipped to Portugal but sometimes the ships didn't arrive in time and the ones from Meca transported the goods without any impediment.

He advises D'MANUEL to take care with the King of Calecute because he was a traitor and peace should not be negotiated with him.

He reminds that he had cinnamon and other spices awaiting the Portuguese ships.

A.N.T.T. C. C. 1 - 12 - 35

~~Carta de El Rey de Portugal~~
El Rey D. João

Carta de El Rey de Portugal a El
Rey de Portugal, Com. Med. e tud.
v.º de Com. Comendado, e fora Com. mayor
vontade, e assim tambeem nas couzas q.º forem
desouservilas, visto a sua v.ºpacia, e por ser ma
premitir mais: q.º em mand. q.º de Rey Do
urnadores e suscepias no lugar de Rey, e de
vacam. duas, e lida com. como emblecut de
matru, n.º gente, e tambeem seus v.ºs, pello q.
espera a p.ºma guerra, e a p.ºma paz de entre
ellas, ainda q.º sente and.º de ordenada, feita
em f.ºm do 4.º de Dezembro de

~~Alcavala~~ ~~1512~~

1512

~~M.º de~~

Par.º

82 Maio 12. Dic. 35. N.º suc. 1273

Al Rey de Marruecos

Carta 1ª



Mar. 12 de Dic. 35 N.º 1973

Carta del Rey de Marruecos
p.º de Santiago con q.º le agradece
o sea el traslado, q.º le ha hecho en
tugueses, e le quita do de Cante,
está por le matar muy, q.º en
espera a tomar venganza
Carta un Cartón en 1º de Diciembre
de 1512

por un
por un
por un

que foyt q'ua p'ela m'ofidat q' d'fua p'pa q'ua
abya: Ordey by q'z m'p r'auz p'p'z q'no p'ab
m'os p'p'z. C' d'z t'aro p'p'z q'hoz q'ua q' m'
bo p'alezza m' p'p'z. Ordey by m'f'm'ia d'as
m'p'z d'f'm'ia C' d'z p'ab d'uz. C' d'z m' r'ell
f'alliz.

qu' d' aramella d'uz p'p'z q' d'z p'alezza m'
d'uz d'uz p'p'z r'auz. C' d'z r'auz
p'p'z d'uz r'f'ab d'ellz. C' d'z m'f'm'ia d' t'ab
m'f'm'ia d'uz C' d'z p'ab d'uz q' no p'ab m'f'm'ia

h'ar. C' d'z
tamb' p'p'z d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz
d'uz d'uz p'p'z C' d'z p'p'z. C' d'z p'p'z
m'f'm'ia C' d'z m'f'm'ia. C' d'z r'ell d'z p'p'z q'
by p'p'z d'uz d'z m'f'm'ia d'uz d'uz d'uz
d'uz m'f'm'ia. C' d'z m'f'm'ia p'p'z d'uz d'uz d'uz
m'f'm'ia d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz
d'uz p'p'z m'f'm'ia C' d'z p'p'z d'uz d'uz d'uz

d'uz d'uz p'p'z d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz
d'uz d'uz d'uz m'f'm'ia C' d'z p'p'z d'uz d'uz d'uz
qu' d' qu' p'p'z C' d'z d'uz d'uz d'uz d'uz
d'uz d'uz p'p'z no d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz
d'uz d'uz C' d'z m'f'm'ia d'uz d'uz d'uz d'uz
d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz
d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz
d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz d'uz

72020200
m'f'm'ia

ملحق رقم (٣٠)

كوشيم في ١٥ ديسمبر سنة ١٥١٢ م

خطاب أنطونيو ريال إلى د. مانويل الأول:

أنطونيو ريال يتهم AFONSO DE ALBUQUERQUE بأنه يعامل البرتغاليين معاملة قاسية ولهذا السبب أصبح الكثير منهم مسلما، وقد فقد أفونسو بعض السفن وبعضها تجرد من الذخيرة، ولكن الشيء الوحيد الذي كان يهمله هو حروب الفتح، ولقد ترك التحصينات عند كوشيم، وأنطونيو ريال اعتقد أن كل القوة يجب أن تركز في كوشيم لأن كل الأعمال النهائية تتم هناك: كل التحصينات الأخرى غير ذات أهمية، ولقد اعتقد أيضا بضرورة بناء أحد التحصينات في البحر الأحمر التي كان قد أمر بها الملك منذ زمن بعيد.

A. N. T. T. C. C - I - 12 - 44.

COCHIM, 15th DECEMBER 1512

COCHIM, RED SEA

LETTER OF ANTONIO REAL TO D.MANUEL I

ANTONIO REAL accuses ALFONSO DE ALBUQUERQUE of maltreating the Portuguese and for that reason many of them were becoming Moslems.

ALFONSO lost some ships many others were deprived of munitions but the only thing that interested him was in conquest war. He left the fortress at Cochim. ANTONIO REAL believed that all the power should be centralized in Cochim because all the final loading was done there. The other fortresses were at a disadvantage. He believed in the necessity of building one fortress in the Red Sea which the King has ordered long ago.

A.N.T.T. C. C. 1 - 12 - 44

[illegible]

nam ergo quod dicitur
 1071. per hoc quod dicitur in
 1072. per hoc quod dicitur in
 1073. per hoc quod dicitur in
 1074. per hoc quod dicitur in
 1075. per hoc quod dicitur in
 1076. per hoc quod dicitur in
 1077. per hoc quod dicitur in
 1078. per hoc quod dicitur in
 1079. per hoc quod dicitur in
 1080. per hoc quod dicitur in

[illegible][illegible][illegible]

Quesito. ¿El mundo físico tiene una existencia independiente de la conciencia? Respuesta. La respuesta es que el mundo físico no existe sin la conciencia.

[illegible][illegible]

[illegible][illegible][illegible]

E cum meo usque pro more
 velis meo ista cum. Item: o alio
 314 pro meo an pueri et
 nam de mupmudo. Et pueri
 de. Item: 78 cum pro
 me. Item: 78 cum pro

[illegible][illegible]

(Na fortaleza pinto dos com dobles o Affonso Domingues mury / seu uasmas
Sob o f... ..

Antony
Pearl

ملحق رقم (٣١)

الميريم في ٣ ديسمبر سنة ١٥١٢ م

أرمز

الدفع إلى سفير الملك لدى هرمز

د. مانويل الأول ملك البرتغال يبلغ أفونسودي البوكيرك قائد الهند أنه قد دفع إلى سفير الملك لدى هرمز ١٥٠ وحدة نقد سنوياً في أول يوم في السفر لمساعدته لأفونسو في أي وقت.

وقد سمح أيضاً للسفير نيكولا وفيريريا ليعود إلى البرتغال ومعه ٣٠ كوينتالا^(١) من القرنفل والقرفة وستون كونتالاً من أي توابل أخرى.

aA. N. T. T. C. C - I - 14 - 13.

(١) (كونتال = ١٢٠ رطلاً)

ALMEIRIM, 3rd DECEMBER 1513

ORMUZ

PAYMENT TO THE AMBASSADOR OF THE KING OF ORMUZ

D. MANUEL I, King of Portugal, informs ALFONSO DE ALBUQUERQUE, Commander of India, that he paid, to the Ambassador of the King of Ormuz, 150 cruzados a year commencing on the first travelling that, for his assistance to ALFONSO DE ALBUQUERQUE whenever needed. He also allowed the Ambassador, NICOLAU DE FERREIRA, to return to Portugal with 30 quintals of clove of cinnamon and 60 quintals of any other spice. (1old quintal = 120 pounds)

A.N.T.T., C.C. 1 - 14 - 13

Dr. Carl Jung, den 11.

۲۲۹

1844
 1845
 1846
 1847
 1848
 1849
 1850
 1851
 1852
 1853
 1854
 1855
 1856
 1857
 1858
 1859
 1860
 1861
 1862
 1863
 1864
 1865
 1866
 1867
 1868
 1869
 1870
 1871
 1872
 1873
 1874
 1875
 1876
 1877
 1878
 1879
 1880
 1881
 1882
 1883
 1884
 1885
 1886
 1887
 1888
 1889
 1890
 1891
 1892
 1893
 1894
 1895
 1896
 1897
 1898
 1899
 1900

هذا الحديث من عند بابا عبد الله مسلمين من بندر الهمرون وهو خادم
 وصل من بندر الديب إلى بندر الكشي في عهد الملك الهمرون
 كقطان المورد المسمى افسوسكم كبريا بندر المذكور احد بندر المذكور
 تسلم على يد كقطان المورد على حين رجوع من بندر الملاط وبندر المذكور
 قال لكقطان المورد اسئل انت من بابا عبد الله المذكور عن حجة المورد
 البندر الديب المحمل وعلى اطرافها وهو معروف بحجة الحكايات وبعد ما
 سئلت ان الملك قد تواضع الى كقطان المورد معا كان عن حجة الديب
 ومحصلها وبعد هذا قد قسرتني كقطان المذكور ان يكون في المواضع
 ميني وبين سلطان الديب وتجعل معا صديقا ميني وانت كنت جانا
 ميني ومن السلطان وانت تكون الوكيل الخاص في حجة بيننا وبين
 وكنت له خطيبك عن جميع الشريط الديب وكنت لك كقطان المذكور
 مسطور عن قوله لا جل من واخبرت لك كقطان المورد ان اناس الديب
 ناس ضعيف وما يحتاج عليه حرب والخطوب وعليه ملته المال محصول
 وهي فايدة على سلطان البرتغال وقبل هذا الصلح محصول الديب على يد
 مام على المليباري وهو في كل سنة قايض راسا يا كقطان تحكم على
 مام على المذكور في اخذ محصول المذكور وتقول له هذا محصول الديب يكون
 من جهة السلطان البرتغال فبعد هذا ان يكون قد خرج مع اللغة

رسالة من بابا عبد الله أحد مسلمي هرمز إلى الملك البرتغالي عام ١٥١٥م
 في عهد البوكيرك حاكم الهند - ضمن الوثائق البرتغالية التي أعدها المجمع
 الثقافي - مركز الوثائق والدراسات - أبوظبي.

المور من ندر كشي الى ندر الجوه وقد وصلنا الى ندر الكنتور

العام على وفوق حصن على مجلس الفطان المور وقد قال للفظان المور

على اتم على اتم من كل منده يحصل الديب بالقوة وان

أخل حتى نأخذ من حصول الديب وهي البرتكال وقد قبلت عام على

ام لا يفرج في حصول الديب وكنت خط يده واعطى للفظان المور

وكنت فيها نادر في مجلس المور وهو فوكر حصن ملياري حولها

في والي المور الكنتور و دون غربي مع فواجيد البرتكال

ان هذا يحصل في الديب الذي كان نأخذ في كل سنة ان وهي

سكون البرتكال ان كان وبعد هذا الفطان المور سافر من كنتور

الى ندر الجوه والمالك معه في الجوه كان حربي على سبب

حصن بنسري في حال الفطان المور بعد اخذ البنسري في

ري غراب والعسكر ونصير لك الى الديب وبعد يا شدي

قد قبض حصن بنسري وان المور قد قال للفظان تعطي لنا

غراب والعسكر على سافر الى الديب فبعد هذا رد في جواب

ان اوراق وصال من سلطان البرتكال واصر لنا على خروجه المور

العدن والعراق وعسكرهم يكون معنا ان الله بعد ما نرجع

من العدن في ان غراب والعسكر وانته يا بابا عبادته نرجع الى



عادل خان

عاد لجان وتوادي خطنا عليه وبعد ما نرجع من العود وانت تخرجوه
 الى الديب وان المملوك قد طلع الى عاد لجان والواضع له واخبرته عن
 جميع الذي معها قال كقطان المور وتوادي كقطان رجع من العود
 وان المملوك نزل عن عاد لجان وقلت على كقطان تصدري الى الديب
 ورد لي جواب ان يا شذر همر مور جاء من عند سلطان البركك والجان
 الاوراق لا جلي سني الحصون في المور وان حسا في المور بعد
 للمملوك صدر الى الديب في سنبوق هام على اعطاني خطب عاري اوراق
 سلطان الديب والوزرا لا جلي تقيض المال الذي كان يعطوا المام على
 وهي يكمن من جهته سلطان البركك ولا يعطوا المام على وقال لي
 كقطان المور ياخذ هذا الورقة وتسا في الديب وتخطي كقطان اخذ اوراق
 وانت تخلص في الديب حتى نرجع ان من المور وان المملوك قد قلب
 وسافر الى الديب وبعد ما وصل الى الديب مثل ما وصي كقطان المور
 اعطيت له اوراق باسم كل احد وناخيت حتى يرجع كقطان المذكور
 وجاءوا انفرمالي من جهته محصول الديب وطلبوا من السلطان محصول
 وقال السلطان قد جاءني اوراق كقطان المور وكتب فيه لا تعطوا
 مال المحصول في غار مام على وان كان انتم تترددوا المال جاتوا خطب
 كقطان المور وقالوا كقطان المور قد مات حين يرجع من المور

وكفطان الثاني اسمه لويس سوارس ومام علي قد تصالحوا ورضوا
وبعد الحصول الذي تاجر محمدكم اثنى سنة تعطوا فبعثنا سدي
انفار مام علي قد مضى محضول الصف عن الديب وتاني موسم دخل
دمر جوان وهي كفطان سيدان في الديب وقال للسلطان الديب
تمسك اثنى وزيكر الى بندر الكشغ عند كفطان المور حتى يتفق
بينكم وبين كفطان المور فبعد سلطان الديب ارسل رجالين من
عنده وان اقبلت معهم ووصلنا الى كشي وتلاقينا كفطان المور
وقد تصالحا في كل سنة الف وخمسمائة دينار فبقار وهي حبك
والعشر ايشي كشي من البحر نصف لاجل سلطان الديب
ونصفه لسلطان البركالم وفي هذا الشرط قد توافقوا ورضوا
وكتبوا حط ابادهم وكتب كفطان المور خط بقلم القرشي واعطى في يد
انفار السلطان الديب فبعد هذا عرف الخبر مام علي ان انفار سلطان
دخلوا في كشي وتصالحوا وكتب مام علي الكفطان المور لاجل امر الديب
يعني ايشي ما يعطى جماعت الديب وهو يعطى ان من عدي وعاكم جاضر
تدخلوا في الديب ان يكون جماعت الديب ورفق المور في كل سنة
ان نسلم فبعد هذا طلب الحظ كفطان المذكور وقد قطع واختلق القول



وكتب الورقة للسلطان غنم واعطا على يد وزير الديبى وان الملك
ووزير قد سافرا من كشي الى الديبى وتعلم ياسيدى من امرام على
وهو قابض ديبى نصف بلاده وياخذ المحصول وهذا الوقت يكون
الذكر للسلطان كوطان يساعد ومن كل بد نفاقه لما على ويكون امر البلاد
نظيف من جميع اشتغال ومحصل جميع تكون للسلطان ابرتهار وبعد هذا
مام على يدير في قلبه الديبى غراب لا جل هذا ان الديبى خرج من تحت امره
واذا دفعت له يكون جميع الخلق عن الديبى مستريح عن جميع شره
وتعلم ياسيدى هذا حال السلطان الديبى ووزرا والرعية راضين
على جنك مش ونطوا له قدر ابره غراب وهي تكون دائم الدهر في الديبى
وهذه الجريدات وهي على طريق المنجى ملج والمراكب كلها واصلين من
جميع البناار خصوصا من الملائكة والمهلبان والبيكو والنجاله والقصود
ومن هند وهو حوز وجميع الارض المليبار لا جل التجار وفتحها محصل
بيع وشرا ملج واما فيها خصل واحد لانه من ناس كلهم صديق
واذا شويتم شويهم تحروا وتلف الديبى جميع لا حل انظروا ان
الغرب فيها كثير اذا القوا امان يكون محصل في البيع والشرا

وان كان بالحقوق انشؤن كلهم بحربوا والمراكب من البندر صبح بخبر تلف
الديب وتعلم ما سيدي الذي اجناس صنف يحصل منها اولها
قنار وهي جلد والثاني كوده وسوم فيها ثياب كثير والثالث
الصيد وهي تجاره من ديبه الى بندر الشاطئ يشترى الناس
على قدر شهن المراكب وان الديب وهي ندر للناس الضعفا
اكثر واهل البلاد ضعيف واما بطريق التجاره وهي مفيد
السلطان وفي الديب اول ما يحتاجه الا امان وقد احدا يظلم
والمراكب الذي يدخل من جميع البندر يكون لهم امان حتى يحكموا
بيع ترار وان المملوك اليوم يكون بسبع سنين في خدمه السلطان
البرنكر وتترك بلادى واهلى وعباى وقد استغنت على خدمكم
توصلوا على المملوك في المعاش ونفقة العيال وتكون تفضلوا الى
وتعينوا واي ما يحي كوظلمان كفتوا لاسمى فيها يحي بابا
عبد الله وهي خاد منا تكون نظركم على خدمكم والسلام



لَهُمَّ اللَّهُ الْإِلَهَ الْأَوَّلُ

من عبدك بنو ما يترسى ابنه سدر بن جبران اليه مؤيدنا للسلطان صوب جبل نصيب الله تعالى
اعلمكم يا مؤيدنا من جناب قطور بنوارض شافونا معه الي البصرة ان جمر الي حارة
واي عكر بن وكران لا اعطاني زاد ولا جاه مشقة وصلنا الي باب الحنينة الي
برنس بن جبران وقتلته له فغير الي مصوع مثل ما قال للسلطان عمر فقتلني
مصوع قال ليس وبعد راخ الي حارة صبيح ماله وضيع عسكره ودرى الي حارة
وقلت له في حارة فوجه مختفى الي مصوع مثل ما قال للسلطان قال ليس
ما اسيروا اذ مثل شي ولا اخلا بروج الي الحنينة قلت له براس للسلطان
ان كنت انت ما نزل ٦ ارجل معي اثنين عراب واثنين فريده واصل
نافوس واصل ارجل واحد فواصي ارجل ناس من اهل مرواغان وحلي حجاج
للسلطان نبقا علك اي حين ما احب لك الحراب من بلاد الحنينة وطل اهل مصوع
واهل بلاد الحنينة بعروني والرضيان والقيشوش وسلطان البر بنكاش
سلطان كبير من قرايب فغير جبران قال ليس ما افعله ولا اسئل شي
انت روح في طرفة ابن فزعل فزعل من رايك فزعل من بربره فزعل من
عملت فقلت انا ما انا في طريق من بلاد المسلمين الا من مصوع عبده ما في طريق
جبران علك قال انزل من علك روح قلت ما انزل انا الوهم في صرمت
مؤيدنا للسلطان صوب جبل سدرنا الي الهرموز ارسل الي البطرون ومعه عسكره
انزل في الهرموز قلت براشر السلطان انا ما انزل في الهرموز في بلاد المسلمين
مؤيدنا الهرموز انا انا من كس نباكر ولا مثل سدر جبران فريده الحراب انا
انك انك في حارة واهل حارة واهل حارة من بلاد المسلمين انا انا روح الي الهرموز
في كشي الي حارة واهل حارة واهل حارة من بلاد المسلمين انا انا روح الي الهرموز

للسلطان نصر الله وهو يرسل قطيم نصراني عاقل بوديني الى الحبشه الى
 جوان وان كان للسلطان ما يريد بردني الى برد عانا استبرو (مضي من طريق
 روما من استكرهه اروح بلا دري تخيب عليه بالقوة الى الهند منعه في
 كشي البست انفس فيه منعه الى الحاقه به دقل عبد الله الذي معي
 كله واضربه على امانا في شتي وانا ابدا من موكرنا السلطان نصر
 ازديان تريلر جوان ارسل قطيم نصراني عاقل بوديني بلا دي
 وان كان ما هو انا ما لك عرض في شتي ان ارسل الى ارباب دروني الى برد عانا
 اروح الى روما بوديني بلا دي تخو شتمنا وحق اليك حو بلطو
 وحق صليب الله ابن الله وذي الجواب نالي حاله في الهند انا من
 اهل الموت ولا انا من اهل الجاه وان جميع ما قال لكم وارسل اليكم البشور
 وكتلهم كله كلر وعلو باهوك ما عل هذه كله الا من صباب القسوس
 الكبير في دبريل بعل كلب وضع عسكرو وضع ماك وضع مراكي
 وان باهوك و ما بربيل نفع ما ب الحبشه وما اعرف هذه من السلطان
 الذي هذه علو الصليب واشت باهوك ما عقلت بمل الدنيا وانت
 سلطان نصر الدنيا واجود بر شتي جوان سلطان نصر الدنيا وانا ارسل
 انصق هذه واقطع هذه الطريق وما صاحب بليك ودين اجود بر شتي
 والبشور ما بربيل وان جميع ما ارسل اليك تحذر وهو بربيل الى الموت
 والله تعالى ما بربيل وعلو الشجر واشتغالي السهم وما قلد و بربيل
 يقتلني صفر تحفا من موكرنا السلطان واما من حنا صبيك الوشم
 قوه و قلد اسلكه البشور اي دهل وانا افقه في دهل وانا في
 صون جوان في سن بطرس وهو في بركشي ووه قريته و
 بودي جوان في سن بطرس واصل فكتش واصل عيل واصل فكتش فكتش
 مضي الى حرقه بنذر ملك الحبشه هذه في امان دهل في حرقه كان

العز نصر فزهر صبيك وجابوني وقال انا ما اعلم كلامك الا الذي قال في
 فظهور البشوارص قلت قدام كاتب القريه وقدام معلم القريه
 براس السلطان منوبيل لا تتركوا البيراي دهلج بقلبيكم فاشموني
 ولا شل صبيك ديكواومه واشل كتاب القريه الذي جاء في
 الحق والهدى وانا يا مكرم دما احدا يكتب لي سلطان بردعان
 بالغري دانا لهم امين كتب لي ابناء خذار خنار شفته دما احدا يكتب
 لي شي وعللي ايجانير من موزنا السلطان وعللي يا مكرم دانا في قلبي شي كثير
 دانا بوسعه اني كتاب دانا يا مكرم دانا السلطان جالسي غشي يا مكرم دانا
 حاكميه ولا عدل زاده وعت لبني وجميع ما همي ما عدلي شي
 ورا بوس سل البريشي دلا وعت جناب السلطان صونا مرام حشون
 عظيم الله العالي برهما ويرد قلبك وان جمع بردعا بنقصولي من
 جهن البشوارص وكافو منه ومن اهلكه ومن البير دانا يا مكرم
 ما عدلي شي وعللي صون جوار الذي كتب لي مكره شان برطس
 نانه علمي شي ما علموه القبطانا الذي كتب لي مكرم دانا
 بردعان صورة الذي علمه خلد وقليله دهلج بقلبيكم السلطان
 ايشي خايفك الباب وعللي يا مكرم دانا السلطان الى جالسي وعللي
 جلد ففانا ما اخلد السلطان انا اخلد فظمور وعللي وعللي
 ديكواومه صوره بلكي بالحق وعللي وعللي وعللي وعللي
 معاني المركب فانا معناه من فظمور في جلد دانا اخلد الى جالسي
 وانا اروي بهم الطريف الي دهلج والجان صاع المركب وعللي يا مكرم
 السلطان انت تشتري بغيرا وتعلم اعنقي لوجه الله تعالى
 صلا عليكم في جواب شرعه بالذي يلهي الله تعالى

وعللي
 صبيك
 اومه

إلى السلطان الكبير دون متوال السلطان برطقال صاحب غناتوق والغريش
سيد غناتوق والغريش بفتح غناتوق أفاليم البلاد والامصار
أهل الجود والاحسان والنجدة والامتنان مثل
الغنم كز والحنود لا يسمى
ومتن وعظا وأخسان

في خاتمة

الحج السيد السلطان دون متوال السلطان برطقال صاحب غناتوق والغريش
سيد الغريش ما لك أفاليم البر والبحر وما لك من زوال الغريش والعمامة
أفاله الهنود والغريش مستقيم البلاد بفتح الامصار صاحب بلد مباركة ممتونة
محافظة ممتونة ممتونة وبقعة زاندة محفوفة السلطان الذي أشهر بالقوت
الشامخة تشتر بالوصف الراسخة وارتفع بالجود القابضة وأفخر
بمستك حرد لوداد القابضة الذي اجتمع بعنود السلام النصارى
فسطع وبسمر بشمال الخضر واجتمع ونادى حبل النقاد فلتاه
واستمع فاطاعه كل شيء بقله وفتح السلطان الذي لا يقينه شيء
اقنع كل من اقرب وأدق السلطان الكبير الذي لا يقينه شيء
الاخبر وجه من بطله إذا تمكف السلطان الذي يخرج من
فيه حسن الجواب ويترك من علامه كل الصواب السلطان الذي
من طلب منه مقاصده قال عند كل المطالب ومن اجتنب
عنه اجتناب بالمصائب اذام الله اعز وفعلنا لكم ان صاحبكم
السلطان ملنك على السلطان ملنك علىكم سلاما كثيرا
ويقبل بشارتكم بقبولكم بقبولكم بقبولكم بقبولكم بقبولكم
كثيرا او بظنكم خيركم وادب انكم لئلا ونهارا ويعلمكم
ان دون متوال فنادى من من حبله وبع مر
من أهل الديار فقبلت منه فاعطاه برككم
الحمد لله كثير او جد - اجمل ملنك يكون برككم
وهم برككم اكثر الاعا بركة واصلا ويعلمكم
لئلا ونهارا او خيركم وادب انكم لئلا ونهارا ويعلمكم
عن الآلة اطال استبعاد
لكن السلام وتسلم على

رسالة بدون تاريخ من سلطان المندي علي بن السلطان
علي إلى ملك البرتغال عمانويل ضمن الوثائق البرتغالية
التي أعدها المجمع الثقافي بمركز الوثائق والدراسات -
ابوظهبي.

ملحق رقم (٣٥)

هرمز، مسقط، مكة، فارس، باكروا

لشبونة ٥ إبريل عام ١٥٩٨ م.

خطاب من حكام البرتغال إلى كونت فيدجيورا

اتصل حكام البرتغال مع نائب ملك الهند واتخذت القرارات التالية بواسطة الملك ويوقع العقاب على هؤلاء الذين يأخذون الفلفل إلى هرمز ومسقط ويوضع جيش في مضيق هرمز لتفتيش المسافرين إلى تلك الحصون وإلى مضيق مكة، ويقيم مفتش في قلعة مسقط لمنع تفريغ الفلفل المأخوذ من هناك إلى الموطن الأصلي، دراسة مميزات الترخيص لمصوغ والأماكن الأخرى، وفي فارس بدون إعاقه هؤلاء المسافرين إلى باكورا لأن هذا سوف يوفر فوائد مالية للميزانية الملكية للتعامل مع البرتغاليين الذين يسهلون رحلات الألمان إلى البحار الجنوبية، بالخريطة كل الحصون والقلاع في الهند لكي تعرف في المملكة.^(١)

(١) ملخص : الخطاب المرسل من حكام الثغور البرتغالية في الشرق الأفريقي والخليج العربي إلى الكونت نائب حاكم الهند لاتخاذ الإجراءات الخاصة بالقرارات الصادرة من الملك البرتغالي لتشديد الرقابة على الصادرات من الهند إلى كل من هرمز ومسقط ومكة ومصوغ وفارس وغيرها^(١).

- ١

A. N. T. T. MISCM

LISBON, 5th APRIL 1698

HORMUZ, MUSCAT, MECA,
MASUA, PERSIA, BACORA

**LETTER FROM THE GOVERNORS OF PORTUGAL TO THE
COUNT OF VIDIGUEIRA**

The Governors communicate with the Viceroy of India and the following decisions are taken by the King; punishment to be given to those who took pepper to Hormuz and Muscat; an army to be present in the strait of Hormuz to check the ships going to those fortresses and to the Strait of Meca; an inspector of ships to reside in the fortress of Muscat to avoid the unloading of pepper being taken from there to the mainland; to be studied, the advantages of the licences to Masua and other places in Persia without obstructing those going to Bacora because this would bring benefits to the Royal Finances; to process the Portuguese who facilitated the voyage of the Dutch to the South Seas; to the map all the fortresses of India in order to be known in the kingdom.

A.N.T.T. Misc. Ms. Convento da Graca, Tomo 2E, pp. 405-406

ملحق رقم (٣٦)

ترجمة رسالة السلطان سليمان القانوني إلى D. Joao، الثالث في سنة ٩٥١ هجرية / ١٥٤٤م.

قدوة الأمراء العظام العيسوية، أسوة كبراء الفهام في ملة المسيحية، مصلح المصالح جماهير الطائفة النصرانية، صاحب أذبال الحشمة والوقار (صاحب دلائل المجد والافتخار ملك البرتغال (D. Joao) الثالث ختمت عواقبه بالخير - التوقيع الرفيع الهمايون) إن ما أرسلتموه إلينا بيد سفيركم الأقدم (دا وارد قتانو Duarte Catanho). والذي تطلبون صداقتنا ومحبة فخامتنا، وعلى أى وجه كان بالنسبة لي، فقد كتبت جواب ما تطلبونه مفصلاً وقد أرسلته إليكم بواسطة سفيركم، وبعد ذلك جاءنا أيضاً سفيركم (ديكو مشنكو Diogode Mesquit) يعلمنا قبول أحكام الشروط التي كانت قد أرسلت مع سفير (دا وارد قتانو) وأن بعض الشروط التي كنتم ترضون بها فقد قبل والقسم الذي لم تكن ترضونها فإنها لم تقبل عندما أعدنا النظر إليها، وكل شيء قبلناه، قد كتبناها وأرسلناه لكم مع سفيركم، وإذا أقيمت بيننا الصداقة بهذه الشروط التي وافقنا عليها، تبعثون سفيركم المعتمد لديكم، وقد بعثتم سفيركم (دار وارد قتانو) الموجود حالياً لدينا قد أعلن شروطكم التي رددتموها مراراً، ولكن هذه الشروط قد أدلى بها سفيركم السابق أيضاً، ولكن لم تقبل في حينه.

والآن لم تقبل أيضاً إذا كنتم قد أرسلتم سابقاً بمقتضى الأحكام الشريفة بقصد الصداقة. فأعلمونا بها وفي حالة عدم قصد الصداقة فأعلمونا بها أيضاً حتى نتدارك الوضع فيما يدعو ذلك في الجانب الهندي، ولا تطلبوا ذهاب سفيركم وقد تبلغنا بذلك راجين علمكم.

تحرر في أول من شهر شعبان المعزز في الشهور سنة إحدى وخمسين وتسعمائة

ر. مقام

القسطنطينية المحروسة

الحق الملك العظيم والساطع الاسم ذي السيف القاهر والمهابة الطاهرة
 ادون منوال سلطان برطقات سلطان كلوق ابراهيم سلم عليكم اجرا والام
 يعلمكم الله محمد الله تعالى ويعرف فضلكم العظيم وتقدرهم العجب سلكوا القهيد
 مستقمر واميركم اجديد والقدم ولقد لنا من قوتنا فكتك من حراكم على ضلال حال
 ولكن بطولنا ان تاسروا لعلكم ليغافلونا لرفق ولا حيل من حيلكم في سلفنا ما في طاعة
 اية حتى لا تقع بسنا وبينهم يتفاوت وقد خلاص فلنا فيكم صفات في سدد على الحاشية والمجاهدة
 هذا دخل علينا حلول بالصلف والرفق حتى نخرج من سائلين ونودر لنا احاسن ونجتكم
 هموا فضلكم واحسانكم ولا تشبه لنا شي ونفردوا عما فينا من سائر من قبل هذا هيبت على اسلكه
 صوابا قد استنقذنا وحسننا الله ونعم الوكيل واسم على كل شيء قدير



ملحق رقم (٣٨)

مخطوطة

عبدالرحمن بن علي الديبع - قرة العيون في أخبار
اليمن الميمون

اعترفه وشفط بقايا الارض فزال بن تجدد وجرنا انما
 به وجعله في كنفه وركب فرسته وامتنع فلم يقدر احدا يعنى
 زانرا بن المساوي من وقتنا من اصحاب بن المساوي جماعة واحدا من
 وسلاجه واهبه وكان قبله يوم النلتا الرابع من شهر ذي الحجة الحرام
 بعبد يوم مولانا بعبد الوهاب الى زبد بالزبد وعشرون يوما
 وقدمه الله الى زبد مخلصا في عتق فرقه ووجهه اجمعه صاحب الشهر
 وفي يوم الجمعة من هذا الشهر تولى الفقيه العتيق جمال الدين
 محمد المصوب المشهور بقضاب العقب ابن الفقيه احمد بن محمد
 بن ابك مطيع لجمال الزيلعي من فقه الله تعالى بقرينه المجيدة و
 بها الى جنبه فله الله تعالى ونفع به
 بعبد الوهاب بن زبد بلغه ان المنيان المني قد مر الى جزير كز ان قد
 يوم الاذ بها تابع شهر ذي الحجة الحرام قد اجمع والله يدلك فزبد
 جوابه بتجديد الطعام ان يستخرج في البحر الى خنجران والخذ بالجد و
 ولن لا يخرج من يد يده زبد ثم توجه من ضيقا الى ما في او اخر شهر
 ذي الحجة واما ما كان ابا تمام توجه من ضيقا الى ما في او اخر شهر
 بعبد الاضي واما في ذلك اليوم من كذا البنية الشريفة ابراهيم وجم
 ابي عامر بن طاهر وامين عم ابي عبد الله بن محمد بن محمد ورومي
 عنهم وانهم عليهم في في السنة والعهدين من ذي الحجة طالع
 الفقيه عبد الحق بن محمد النظار من مدينة زبد الى جهن الجبال
 صبح العساكن السلطنة وقدم الى زبد في منتصف شهر صفر من
 السنة الاكيدة خرج عليه من اجساكن واخذهم من المشايخ اهل الدولة
 الزبليان والضعف الذين لا يعتادونهم فطالع ليا به سلا الى الا وبق

اصعبنا ارب لا يقدر ون علي مال ولا يحسنون المذهب لم يلبس
 زينة حتى خرجوا الى الشام في اول شهر ربيع الاول سنة
 فستضف شهر ذي الحجة المذكور حزنت فزينة الجديب وهرب اهلها
 منها وملت عن الشاكن بسبب ان المضر حين لم يخنو حزين
 كثر ان وجيزت السفن عن الوصول اليهم بالطعام وعن التقدم
 اليهم حاجب وجواضاف المضر يوم لذلك وان شئت اجماعهم
 عن ابن يمان دون لم طبعنا من بندر الجديب فادخل اهل الجديب
 الحزن الي مولانا بعد الوهاب الي مدينه زيد فامدهم بخيل ورجل فلما
 قدموا الي الجديب جلبوا من اهلها ستة الف نسمة ودهابهم فاستجمعوا
 من ذلك وخرجوا من الجديب مطهرين ان سبب خروجهم من الخوف
 من المضرين وليس لك سبب الا ما طالبهم به الدولة لم يرضى به
 انفسهم وجعلهم فلما علم المضر بوقوعهم نال في امرهم بحلول البند
 بن اهله منالوا عن ذلك فاحدوا وانهم من لواحد جابر القرية قضيوا
 بنو الميكان الذي هم به من وكن حجر اعظماء فخرج فوقع فزينة من الدولة
 ولم يقرب علي الجديب فزادهم ذلك رعبا وخوفا منهم ثم دخلوا القرية
 فلم يحبوا بها احدا فاحدوا وادان فبوتها والاشغال التي وجدها
 بالشلج واستحوها في اغزبتهم الي كثر ان ثم الجديب ورجع المضر
 الي كثر ان فاقاموا بها وبنوا بها حصنا عظيما وجنانه وقلوب
 بها صلوة بسبب الاجبي وشاعدهم الفقه البوكر المقلون الزيلعي
 صاحب الجديب علي ما يشاؤون وامرهم ان يخلعوا لسلطان معتز
 ففعلوا وشاعدهم ببند ووجه وماله وكانوا قد وصلوا اليه
 بضمالات من صاحب معتز فخلع فلما علم بالخراجه لبند والجديب
 جلع من الجديب الي كثر ان وقال للمضر بان نحن نفتح لكم طواف

[illegible]

من ركنه حتى قد لا يخرج الدين خطره واو التهم في بحر من اصد
 قد يجره لسلطان الزوم على ما انطوت في ارضه ضاحك مطر
 و امر بختم من طلب الاخذ على البر وسع عظمك الزوم
 و امر اخيه من بيت موت بها وهي بيت تحت لا يكاد اجبت
 ضاحك اذ علب وهو شدي ينده المذوع الا انه اطلو
 و ادر في حوله جعل في حوفة قطعت ارضاً من كجته البند و
 من ابا زوم بدفع بنات في قبلة من اشل البند فلا يقبل لجه
 لا عار في ثلثا احدث المذلة شخصت و نذرت منه في اخر
 فتنه من استقر الشيخ عبد الملك بالرحمة اخذ اليه
 و ابدى جبار ان الشريف يمشي عن الدين من الجبل بن و
 في جميع كل الزكر و اصل الزوم و الغاربه و قد كان عن الدين المذكور
 عبد السلطان الملك الظاهر في اعلامه و اخضر مكان وله
 ينده من الحسنات و الاحسان ما شهد به الناس و الجان فلم
 يزع له جرمه و لا شراف فيه الا و لا ذمة بل عادي اوليا و قوا
 اشد و لم يجعله امانهم و قد سوا ما هم قبا الشيخ محمد جان كانه
 بينهم و بعد عظمه قاتل الشيخ عبد الملك قاتلا عظيما فادنا
 و ان لعل و امان عن جماعة عظمه و نفس كرمه و قتل جماعة من
 الذين فاجزون و و شمل في عظمه عشر نفر اسهم و مات
 تحت المصباح عبد الملك لا توافر من قتل فيها من جماعة السلطان
 جماعة من الشيخ جان و كان يومنا عظيما لم اذرقوا و قاتل الشيخ عبد الملك
 شغل بعد الوقعة ثلاثة ايام ثم تقدم الى مدينة زبيد و
 من ركنه حتى قد لا يخرج الدين خطره و امر بختم من طلب
 الاخذ على البر وسع عظمك الزوم و امر اخيه من بيت موت بها
 وهي بيت تحت لا يكاد اجبت ضاحك اذ علب وهو شدي ينده
 المذوع الا انه اطلو و ادر في حوله جعل في حوفة قطعت ارضاً
 من كجته البند و من ابا زوم بدفع بنات في قبلة من اشل البند
 فلا يقبل لجه لا عار في ثلثا احدث المذلة شخصت و نذرت منه
 في اخر فتنه من استقر الشيخ عبد الملك بالرحمة اخذ اليه و
 ابدى جبار ان الشريف يمشي عن الدين من الجبل بن و في جميع
 كل الزكر و اصل الزوم و الغاربه و قد كان عن الدين المذكور
 عبد السلطان الملك الظاهر في اعلامه و اخضر مكان وله ينده
 من الحسنات و الاحسان ما شهد به الناس و الجان فلم يزع له
 جرمه و لا شراف فيه الا و لا ذمة بل عادي اوليا و قوا اشد و
 لم يجعله امانهم و قد سوا ما هم قبا الشيخ محمد جان كانه
 بينهم و بعد عظمه قاتل الشيخ عبد الملك قاتلا عظيما فادنا
 و ان لعل و امان عن جماعة عظمه و نفس كرمه و قتل جماعة
 من الذين فاجزون و و شمل في عظمه عشر نفر اسهم و مات
 تحت المصباح عبد الملك لا توافر من قتل فيها من جماعة السلطان
 جماعة من الشيخ جان و كان يومنا عظيما لم اذرقوا و قاتل
 الشيخ عبد الملك شغل بعد الوقعة ثلاثة ايام ثم تقدم الى مدينة
 زبيد و من ركنه حتى قد لا يخرج الدين خطره و امر بختم من طلب

يدان الخاقان السج عبد الملك الذي مد به سنة ثمان مائة
 عظمه من ارمو او كان هو في عسكرو ابرو وسان في عسكرو ابرو
 عبد خن لامه من حسن بيت اعقيد و يحمل دخل عليه جماعة من
 المعازيه فاستجلبهم وشارهم معه الى قزوين العرشه في
 قزوين العسكروم خل وادي زبيد وادام هو و عسكروم جنات
 ثلاثه ادم بنطرون عسكروم اقبلهم من قزوين مرطو و البحر
 فلما وصل اليهم عسكروم سلمان تقدم بالجميع الامير حسن الى مدينه
 زبيد ففتح يوم الجمعة السابع عشر من شهر محادي الاول في وصلوا
 الجاهلي ذلك اليوم واثبتت مغلقه قزوين خارج باب الخلق في
 عسكرو عظمه من الزل و الزل كان والمعازيه والشاميين و من
 اليهم من العرب من اهل جازان والزيديين والمعازيد و من اوداهم
 في فحينهم الشريف عن الدين والفقيه يقول ان في كذا المقول السليبي
 خرج اليهم الشيخ عبد الملك وابن احمد الشيخ عبد الوهاب بن الملك الظاهر
 في عسكروم الى خارج باب الخلق فلما التقى لهما ان قاتل الشيخ عبد الملك
 وابن احمد قاتلا لهما عظميا لم يبقوا الى مثله و ابا ناعن نخاعه عظمه و الفقيه
 كزومه فتكثرت عليهم جنود المصوريين و خاذلهم عسكروم فالتكثروا
 و دخلوا المدينة بعد ان احتل الشيخ عبد الوهاب مدينه و دخل المدينة
 قبله الى الداد الكبير فلما استقرت عليه الحفده من الداد ففاجع به
 فخرج د الكاف من مدينه فجعله بين يديهم و ساد به و لم يبق العسكروم و قد
 اضطفت به جموع التتريين و خمرشان العرب فقتلوا هناك فقتلوا
 اجموع بابن اخيه فقتله بطلبه ان قتل منهم ثلثا لا يبقوا ابان من شجابه
 عظمه و قتلوا كذا من قتل جماعة من عسكروم عسكروم

ثبت المصادر والمراجع

أولا : الوثائق غير المنشورة

- ١ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي - وثيقة بدون رقم
- من راشد ركن وزير هرمز للملك البرتغالي عمانويل بتاريخ ٢٤ من جمادى
سنة ٩١٧ هـ - ٢٧ مارس ١٥١١ م.
- ٢ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي
- وثيقة برتغالية محررة في رودس بتاريخ ٢٩ مارس ١٥١٢ م - من أندرو
أمرال مستشار رودس إلى ملك البرتغال.
«بمعاونة مترجم» (A. N. T. T. C. C. I - II - 47)
- ٣ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي
- وثيقة برتغالية محررة في رودس بتاريخ ١٩ أبريل ١٥١٢ م من اندرو وأمرال
مستشار رودس إلى ملك البرتغال.
«بمعاونة مترجم» (A. N. T. T. C. C. I - II - 61)
- ٤ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي .
- وثيقة برتغالية محررة في كوشيم بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٥١٢ م من ملك
كوشيم إلى د / مانويل الأول.
«بمعاونة مترجم» (A. N. T. T. C. C. I - 12 - 35)
- ٥ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي
- وثيقة برتغالية محررة في كوشيم بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٥١٢ م من
أنطونيو ريال إلى د / مانويل الأول.
«بمعاونة مترجم» (A. N. T. T. C. C. I - 12 - 44)

- ٦ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي.
- وثيقة برتغالية محررة في الميريم بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٥١٣ م من ملك البرتغال إلى ألفونسو دى ألبوكيرك.
«بمعاونة مترجم» (A. N. T. T. C. C. I - 14 - 13)
- ٧ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي
- وثيقة ضمن الوثائق البرتغالية بتاريخ ١٥١٥ م من بابا عبدالله أحد مسلمي هرمز إلى الملك البرتغالي.
- ٨ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي.
- وثيقة ضمن الوثائق البرتغالية بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٥١٧ م من ماتيسوس جدان إلى ملك البرتغال.
- ٩ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي.
- وثيقة (بدون تاريخ) ضمن الوثائق البرتغالية من سلطان مالندى علي بن السلطان علي إلى ملك البرتغال عمانويل.
- ١٠ - مركز الوثائق والدراسات بالمجمع الثقافي بأبوظبي.
- وثيقة برتغالية محررة في لشبونة بتاريخ ١٥ إبريل سنة ١٥٩٨ م من حكام البرتغال إلى كونت فيد جيورا.
- «بمعاونة مترجم» ((A. N. T. T. C. - 12 - CM))
- ١١ - رسالة السلطان سليمان القانوني ملك البرتغال (جوا الثالث) عام ١٥٤٤ م الخاصة بتبادل العلاقات بينهما.
- ١٢ - رسالة من سلطان كلوة السلطان إبراهيم ملك البرتغال عمانويل عام ١٥٠٩ م.

ثانيا - الوثائق المنشورة

- ١

CARTAS

AFFONSO DE AL BUTEQUERQUE SEGUIDAS DE
DOCUMENTOS QUE AS ELUCIDAM.

PUBLICADAS

DE

ORDEM DA CLASSE DE SCIENCIAS MORAES, POL-
ITICAS E BELLAS - LETTRAS.

DE

ANTONIO RAYMUNDO: TOMO 1 (LISBOA 1884) P.
167.

T. DO - T - C. CHRON. P. 1, M. 14, D. 3.

- ٢

CARTAS

AFFONSO DE AL BUQUERQUE

DE ANTONIO RAYMUNDO: OP. CIT. P.

95 - 98.

T. DO. T - C. CHRON. GAV. 15, MAC. 14. NO. 38.

- ٣

ANTONIO RAYMUNDO: CARTAS, AFFONSO DE AL
BUQUERQUE, PP. 174 - 175.
TORRE DO TOMBO. C.
CHRON. P. 1. M. 14, D. 6.

- 4

POR: FR. JOÃO DE SOUSA; DOCUMENTOS
ARABICOS.
PARA A HISTORIA PORTUGUEZA COPIADOS DOS
ORIGINAES
DA
TORRE DO TOMBO (LISBOA 1790). P. 44 - 47.

- 5

JOAO DE SOUSA; DOCUMENTOS ARABICOS. P.
162.

٦ - جيان : وثائق تاريخية وجغرافية عن أفريقيا الشرقية، ترجمة يوسف كمال،
القاهرة ١٩٢٧ م.

٧ - نعيم زكي (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
أواخر العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٣ م، وثائق مترجمة
ص ٢٨٢ - ٣٨٥.

ثالثا : المخطوطات

- ١ - ابن الديبع (وجيه الدين الشيباني عبدالرحمن بن علي الديبع):
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون - مخطوط بدار الكتب
المصرية، صورة بالميكرو فيلم رقم: ١٨٤٧٤ - ١٣١١ هـ .
- ٢ - الشبلي (جمال الدين محمد بن أبي بكر، ت ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٣ م).
السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر.
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٣٣، تاريخ تيمور).

رابعاً : رسائل جامعية

١ - عبد العظيم حامد خطاب : قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام، دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٧٣ م.

٢ - نوال حمزة : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة ١٩٨٠ م.

خامسا

المصادر والمراجع العربية

- ١ - إبراهيم أحمد العدوي (دكتور) : مصر والشرق العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٥ م.
- ٢ - إبراهيم خليل أحمد (دكتور) : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦ - ١٩١٦ م ، جامعة الموصل ١٩٨٣ م.
- ٣ - أحمد حمود المعمرى : عمان وشرق أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، بدون تاريخ.
- ٤ - أحمد دراج (دكتور) : الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦١ م.
- ٥ - أحمد شلبي عبدالغني الحنفي المصري : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، القاهرة ١٩٧٨ م.
- ٦ - أحمد فضل بن علي العبدلي : هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة بيروت ١٩٨٠ م.
- ٧ - أحمد مختار العبادي (دكتور) والسيد عبدالعزيز سالم (دكتور) تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (بدون تاريخ).
- ٨ - أحمد مختار العبادي (دكتور) : أ - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس الإسكندرية ١٩٦٨ م.

ب - تاريخ البحرية الإسلامية في مصر

والشام، نشر جامعة بيروت، القاهرة ١٩٧٢ م.

٩ - أرنولدت ويلسون (السير) : الخليج العربي، مجمل تاريخ الخليج من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين، ترجمة عبدالقادر يوسف، الكويت ١٩٧٩ م.

١٠ - أنور عبدالعليم (دكتور : ابن ماجد الملاح، أعلام العرب، العدد رقم ٦٢، نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧ م.

١١ - ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي) : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٤، ٥، تحقيق محمد مصطفى، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤ م.

١٢ - بامخرمه (أبو عبدالله الطيب عبدالله بن أحمد أبو مخرمة) : تاريخ ثغر عدن، ج ١، مطبعة بريل ببريطانيا ليدن ١٩٣٦ م.

١٣ - بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢ م.

١٤ - بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج ١، ط ١، الكويت ١٩٧٨ م.

١٥ - ابن بطوطة (محمد عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي) : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزءان) ط ٢ دار الحداثة لبنان ١٩٨٥ م.

١٦ - بشير أحمد كاظم : التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر (ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٧ م).

١٧ - جلال يحيى (دكتور) : أ - المغرب الكبير، الإسكندرية ١٩٦٦ م، ج ٣.

ب - التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، المكتب

الجامعي الحديث، الإسكندرية ١٩٨٣م.

١٨ - جمال زكريا قاسم (دكتور) : أ - الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٩٤٠، القاهرة بدون تاريخ.

ب - الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٥م.

ج - الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر، دراسة تاريخية لآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٧م.

د - الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن السادس عشر سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين الشمس، القاهرة ١٩٨٠م.

هـ - الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقات بين الخليج العربي وشرق أفريقيا ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٧م.

١٩ - جوزيف كام : المستكشفون في أفريقيا، ترجمة د. السيد يوسف نصر، القاهرة ١٩٨٣م.

٢٠ - جيمس دفي : الاستعمار البرتغالي في أفريقيا، ترجمة الدسوقي حسين المراكبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.

- ٢١ - حسن إبراهيم حسن (دكتور) : تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب، القاهرة ١٩٣٣ م.
- ٢٢ - حسن مراد: تاريخ العرب في الأندلس، المطبعة الحديثة، القاهرة ١٩٣٩ م.
- ٢٣ - حسين بن أحمد العرشي (القاضي) : بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن، من ملك وإمام، وقد ختم حوادثه في سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٩٠ م عنى بنشره الأب أنستاس ماري الكرمل، القاهرة ١٩٣٩ م.
- ٢٤ - حسين مؤنس (دكتور) : أ- الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة ١٩٣٨ م.
ب - رحلة الأندلس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣.
- ٢٥ - حمزة علي لقمان : أ- تاريخ الجزر اليمنية، بيروت ١٩٧٢ م.
ب - معارك حاسمة من تاريخ اليمن، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء ١٩٧٨ م.
- ٢٦ - الحيمي الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة، تحقيق د. مراد كامل، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة ١٩٧٢ م.
- ٢٧ - دانتة أودوريتسى : المستعمرة الأترية (مفوضية مصوع الإقليمية) ترجمة جبهة التحرير الأترية، بيروت ١٩٦٩ م.
- ٢٨ - ابن الديبع (عبدالرحمن بن علي الديبع) : أ - الفضل المزيّد علي بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء ١٩٨٣ م.
ب - قرّة العيون بأخبار الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع.

٢٩ - راشد البراوي (دكتور) : الرق الحديث في أفريقيا البرتغالية، القاهرة ١٩٦٢.

٣٠ - رجب محمد عبد الحليم (دكتور) : العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٥م.

٣١ - رونالد هولي : عمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد وعادل إصلاحي، لندن بدون تاريخ.

٣٢ - رينيه باسية : النقوش والكتابة في جزيرة دهلك، ترجمة ونشر جبهة التحرير الارترية، دمشق ١٩٧٧م.

٣٣ - زاهر رياض (دكتور) : ١- الإسلام في إثيوبيا، طبعة أولى، دار المعرفة القاهرة ١٩٦٤م.

ب - استعمار أفريقية، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥م.

٣٤ - زين العابدين (الفقيه الشيخ) : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتاكليين، لشبونة ١٨٩٨م.

٣٥ - زينب عصمت راشد (دكتورة) : المختصر في تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة ١٩٧٥م.

٣٦ - سعد زغلول عبد ربه (دكتور) : البرتغاليون والبحر الأحمر، سمنار جامعة عيش شمس، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، القاهرة ١٩٨٠م.

٣٧ - السعيد رزق حجاج (دكتور) : الاستعمار الأوروبي في أفريقيا وآسيا، القاهرة ١٩٨٧م.

٣٨ - سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور) : ١- الحركة الصليبية، ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.

ب - العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة
المصرية، ط ٤، القاهرة ١٩٦٥ م.

ج - : أوروبا في العصور الوسطى، ج ١ الانجلو
المصرية، ط ٤، القاهرة ١٩٦٦ م.

٣٩ - سونيا هاو : في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت ومراجعة د.
محمود النحاس، القاهرة ١٩٥٧ م.

٤٠ - السيد رجب حراز (دكتور) : أ - أرتيريا الحديثة (١٥٥٧ - ١٩٤١ م)
معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٨٧ م.
ب - عصر النهضة، القاهرة ١٩٧٤ م.

٤١ - السيد محمد الدقن (دكتور) : أ - دراسات في تاريخ الدولة العثمانية،
القاهرة ١٩٧٩ م.

ب - السلطان الأشرف طومان باي، القاهرة
١٩٧٩ م.

٤٢ - السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ -
١٦٣٥ م)، معهد البحوث والدراسات العربية، الطبعة
الثانية، القاهرة ١٩٧٤ م.

٤٣ - الشاطر بصيلي عبدالجليل : معالم تاريخ السودان وادي النيل من القرن
العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ط أولى، القاهرة
١٩٥٥ م.

٤٤ - الشاطر بصيلي عبدالجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط
من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر للميلاد، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م.

٤٥ - شوقي الجمل (دكتور) : أ - قضية روديسيا بين الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

ب - تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٢ م.

ج - المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب) القاهرة ١٩٧٧ م.

د - الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقات بين الخليج العربي وشرق أفريقيا، ندوة رأس الخيمة التاريخية، المقامة بالتعاون بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ومركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري برأس الخيمة، ١٩٨٧ م.

٤٦ - صالح أوزبران (دكتور) : أ - الدولة العثمانية وطريق الهند.

ب - الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي، ترجمة عبدالجبار ناجي، جامعة البصرة ١٩٧٩ م.

٤٧ - صلاح الدين الشامي (دكتور) : المواني السودانية، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٦١ م.

٤٨ - صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٧٤ م.

٤٩ - صلاح عيسى : رجال مرج دابق، دار الفتى العربي للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٣ م.

- ٥٠ - طارق خالد : آثار الأندلس، دار المنار للنشر، الكويت، الطبعة الأولى، إسبانيا ١٩٨٥ م.
- ٥١ - عائشة السيار (دكتورة) : دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا ١٦٢٤ - ١٧٤١ م الإمارات ١٩٧٥ م.
- ٥٢ - عبدالرحمن الحجى : التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق وبيروت ١٩٧٦ م.
- ٥٣ - عبدالرحمن زكي (دكتور) : الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ١٩٦٥ م.
- ٥٤ - عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم (دكتور) : النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني (١٥١٧ - ١٨٩٨ م)، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس القاهرة ١٩٨٠ م.
- ٥٥ - عبدالعزيز محمد المنشاوي (دكتور) : أ - المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، ج ٢، الدوحة قطر ١٩٧٦ م.
ب - معالم الوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، لجنة تدويل قطر ١٩٧٦ م.
ج - أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٧ م.
د - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠ م.
- ٥٦ - عبدالمنعم ماجد (دكتور) : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت ١٩٦٦ م.

- ٥٧ - عثمان صالح سبي : ١- تاريخ إرتريا، بيروت ١٩٧٧م.
- ب - الصراع في حوض البحر الأحمر عبر التاريخ،
بدون تاريخ.
- ٥٨ - عرب فقيه (شهاب الدين أحمد بن عبدالقادر بن سالم بن عثمان الجيزاني) : فتوح الحبشة، نشر رينيه باسيه، باريس ١٨٩٧م.
- ٥٩ - عمان وتاريخها البحري : إصدار وزارة الإعلام والثقافة، سلطنة عمان ١٩٧٩م.
- ٦٠ - فائق بكر الصواف (دكتور) : ومصطفى محمد رمضان (دكتور) : أهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، (السادس عشر الميلادي)، سمنار التاريخ الحديث للدراسات العليا، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٨٠م.
- ٦١ - فتحي غيث : الإسلام في الحبشة عبر التاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة (بدون تاريخ).
- ٦٢ - فيج. جي. دي : تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة د. السيد يوسف نصر، دار المعارف القاهرة ١٩٨٢م.
- ٦٣ - فيشر، ألفريد : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، تعريب د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٤م.
- ٦٤ - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج ٥، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥م.
- ٦٥ - لوريمر : دليل الخليج (القسم التاريخي) ج ١، الدوحة ١٩٦٧م.

٦٦ - مايلز. س. ب : الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الثانية، مسقط ١٩٨٦م.

٦٧ - محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الخرطوم ١٩٨١م.

٦٨ - محمد صفى الدين (دكتور) : أفريقيا بين الدول الأوروبية، القاهرة ١٩٥٩م.

٦٩ - محمد بن عبدالرحمن المصري الشافعي السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة (بدون تاريخ).

٧٠ - محمد عبدالعال أحمد (دكتور) : أ - البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨٨م.

ب - بنو رسول وبنو طاهر، وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (٦٢٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٣١ - ١٥١٧م) الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨٠م.

٧١ - محمد عبداللطيف البحرأوي (دكتور) : فتح العثمانيين عدن، وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر، دار التراث القاهرة ١٩٧٩م.

٧٢ - محمد عبدالغني سعودي (دكتور) : الاتصالات العربية الأفريقية في العصور القديمة، بحث ضمن كتاب (العلاقات العربية الأفريقية) دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة، معهد

البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨ م.

٧٣ - محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين القاهرة ١٩٦٦ م.

٧٤ - محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، جذوره التاريخية وأبعاده، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٤ م.

٧٥ - محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجبل، القاهرة ١٩٧٧ م.

٧٦ - محمد فؤاد شكري (دكتور) : أوروبا في العصور الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠ م.

٧٧ - محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٥ م.

٧٨ - محمد محمد أمين (دكتور) : تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، بحث ضمن كتاب «العلاقات العربية الأفريقية» دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة، القاهرة ١٩٧٨ م.

٧٩ - محمد محمد صالح (دكتور) : تاريخ أوروبا في عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، مكتبة الجاحظ للطباعة والنشر، بغداد ١٩٨١ م.

٨٠ - محمد بن محمود الحلبي : العراق بين الممالك والعثمانيين الأتراك، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦ م.

٨١ - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي «عصر النهضة» دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢ م.

- ٨٢ - محمود رزق سليم (دكتور) : الأشرف قانصوة الغوري، سلسلة أعلام العرب، العدد ٥٢، مكتبة مصر، القاهرة (بدون تاريخ).
- ٨٣ - محمود سعيد عمران (دكتور) : الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دي بريين على مصر، الإسكندرية ١٩٧٨ م.
- ٨٤ - مديحة أحمد درويس (دكتورة) : سلطنة عثمان في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، طبعة أولى، جدة ١٩٨٢ م.
- ٨٥ - مصطفى عقيل الخطيب (دكتور) : التنافس الدولي في الخليج العربي (١٦٢٢ - ١٧٦٣ م) المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨١ م.
- ٨٦ - مصطفى محمد رمضان (دكتور) : العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٥ م.
- ٨٧ - نجم الدين محمد الغزي (الشيخ) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة تحقيق جبرائيل سليمان جبور، المطبعة الأمريكية، بيروت ١٩٤٥ م.
- ٨٨ - نعيم زكي فهمي (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣ م.
- ٨٩ - النهروالي (قطب الدين محمد بن أحمد) : البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٧ م.
- ٩٠ - نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر، الكويت ١٩٦٨ م.
- ٩١ - وليد محمد جرادات (الرائد) : الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدوحة ١٩٨٦ م.

- ٩٢ - وندل فيليبس : تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبدالله، عمان ١٩٨٣ م.
- ٩٣ - يسري الجوهرى (دكتور) : أ - الكشف الجغرافية، الإسكندرية ١٩٦٧ م.
- ب - الفكر الجغرافي والكشف الجغرافية، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٥ م.

سادسا : دوائر المعارف

١ - المعرفة (بيروت بدون تاريخ).

سابعا : تقاويم

١ - ف. ويستنفلد : جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية، بأيامها وشهورها، ترجمة د / عبدالمنعم ماجد، وآخر، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، الناشر مكتبة الانجلو المصرية.

ثامنا : المراجع الأجنبية

1. BESHAH GIRMA AND ATHER:

The question of the union of the churches in luso ethiopian Relations 1500 - 1632.

(lishon 1964).

2. Cipolla M. carrlo :

guns, salls, and empires, (N.Y. 1965).

3. CORTESAO ARMANDO :

The mystery of Vasco Da Gama (COIMBRA) 1973).

4. CASTONHOSO M. :

The portuguese expedition to abyssinia in 1541 - 1543). (N.D.)

5. CORTEESAO ARMANDO :

The mystery of Vasco Da Gama, (COIMBRA 1973).

6. DUFFY, JAMES :

Portuguese Africa.

(LONDON 1959).

7. DUFFY JAMES :

Portugal in Africa.

(U.C.A. 1962).

8. DUFFY , JAMES :

Portugal in Africa

(U.S.A. 1962).

9. DUFFY, JAMES :
Portugugal in Africa
(LONDON 1959).
10. HALLTON, JAMES :
In the wake of da gama.
(LONDON 1951).
11. HALIL I NALCIK :
The ottoman empire.
(LONDON 1973).
12. JOBN STOVEN FOBN :
Translated of monuel de faria sousathe portuguese asia, vol
11 part 11 (LONDON 1695).
13. JOHNESTON, H.H. :
The opening up Africa.
(LONDON 1929).
14. JOHNSTON H. :
History of colonization of Africa by alien races.
(CAMBRIDGE 1913).
15. KAMMERER ALBERT :
La mer rouge l'abyssinie et l'arabie
(LE CAIRE 1952).
16. KHALIFAH HAJI :
The history of maritime wars of the turks.
(LONDON 1831).
17. LOPES DAVID :

Textos aljamiados portugueses.

(LISBOA 1897).

18. PERES DAMIAO :

A history of the portuguese discoveries

(LISBOA 1960).

19. PESCE ANGELO :

Jiddah of an arabian city.

(ITALY 1977).

20. FR. DE SOUSA :

Documentos arabicos.

(LISBOA 1790).

21. STRIPLIGN, G.W.F. :

The ottoman turks and the arabs. 1511 - 1574.

(N. Y. 1942)

22. SID ALI REIS :

The travels and adventures translated from the turkish by a. vombery.

(N.D.).

23. TOYNBEE ARNOLD J. :

A study of history

(LONDON 1934).

تاسعا: الدوريات

- ١ - إبراهيم علي طرخان (دكتور) : الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة -
المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثامن - القاهرة ١٩٥٩ م.
- ٢ - حسن قائد - جنوب البرتغال، الفجيرة تتحدث عن نفسها - مجلة الرياضة
والشباب - مؤسسة البيان - العدد ٣١٨ - الإمارات ١٩٨٧ م.
- ٣ - عبدالله الحبيد - سفارة الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم إلى البلاط الملكي
في عاصمة الحبشة جوندرا - مجلة كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية -
العدد ١٢ - مكة المكرمة - ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٧ م.
- ٤ - عبدالوهاب القيسي (دكتور) : موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه
الغربية - مجلة الخليج العربي - عدد ١ - العراق ١٩٧٦ م.
- ٥ - محمد عبدالعال أحمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملامح : فاسكو دي
جاما - مجلة الدراسات الأفريقية - العدد ٥ - القاهرة ١٩٧٦ م.
- ٦ - محمد علي الدواد (دكتور) : العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي من
(١٥٠٧ - ١٦٥٠ م) - مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد - العدد الثاني ١٩٦٠ م.
- ٧ - محمود السمرة - الصراع بين العرب والبرتغاليين في شرق أفريقيا - مجلة
العربي - العدد ٥٩ - الكويت ١٩٦٩ م.

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٧
تقديم للأستاذ عمران بن سالم العويس	٩
مدخل	١١
التمهيد	٢٣
البرتغال وسعيها للوصول	
إلى منافذ شرق أفريقيا	٢٥
الفصل الأول	
الحمالات البرتغالية للسيطرة	
على تجارة شرق أفريقيا	٦٥
الفصل الثاني	
دور العثمانيين في	
الشرق العربي والأفريقي	١٢١

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث	
مراحل الصراع البرتغالي العثماني	١٤٧
الفصل الرابع	
نتائج الصراع البرتغالي العثماني	٢١١
الملاحق	٢٥٣
الخرائط والصور	٢٥٥
الوثائق	٢٨٣
ثبت المصادر والمراجع	٣٥٩
الفهرس	٣٨٧

سلسلة إصدارات المركز

أولاً : سلسلة كتاب الأبحاث .

1 - أحمد بن ماجد

- حياته، مؤلفاته، استحالة لقائه بفاسكو دي جاما -

تحقيق : إبراهيم خوري

الطبعة الأولى : 1988 م - الطبعة الثانية : 2001 م - الطبعة الثالثة 2011 م

2 - أحمد بن ماجد

- حاوية الاختصار في أصول علم البحار -

تحقيق : إبراهيم خوري

الطبعة الأولى : 1988 م - الطبعة الثانية : 2001 م - الطبعة الثالثة 2011 م

3 - أحمد بن ماجد

- شعره الملاحي (الأراجيز و القصائد) -

تحقيق : إبراهيم خوري

الطبعة الأولى : 1988 م - الطبعة الثانية : 2001 م - الطبعة الثالثة 2011 م

4 - أحمد بن ماجد

- كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد و الفصول -

تحقيق : إبراهيم خوري

الطبعة الأولى : 1988 م ، الطبعة الثانية : 2001 م - الطبعة الثالثة 2011 م

5 - أحمد بن ماجد و الملاحة في المحيط الهندي

تأليف : حسن صالح شهاب

الطبعة الأولى : 1988 م ، الطبعة الثانية : 2001 م ، الطبعة الثالثة 2013 م

6 - الجزر العربية الثلاث في الخليج العربي و مدى مشروعية التغيرات الإقليمية الناتجة عن استخدام القوة

تأليف : المستشار عبد الوهاب عبدول

الطبعة الأولى : 1995 م ، الطبعة الثانية : 2001 م

7 - شركة الهند الشرقية البريطانية و دورها في تاريخ الخليج العربي (1600 م - 1858 م)

تأليف : الدكتور علي عبد الله فارس

الطبعة الأولى : 1997 م ، الطبعة الثانية : 2001 م

8 - الصقر

(ديوان شعر شعبي و نبطي)

تأليف : مصطفى عزت هبرة

الطبعة الأولى : 2001 م

9 - الأصالة

(ديوان شعر)

تأليف : مصطفى عزت هبرة

الطبعة الأولى : 2001 م

10 - سلطنة هرمز العربية

(المجلد الأول)

تأليف مشترك : للأستاذ إبراهيم خوري و الدكتور أحمد جلال التدمري

الطبعة الأولى : 2000 م - الطبعة الثانية 2010 م

11 - سلطنة هرمز العربية

(المجلد الثاني)

تأليف مشترك : للأستاذ إبراهيم خوري و الدكتور أحمد جلال التدمري

الطبعة الأولى : 2000 م - الطبعة الثانية 2010 م

12 - حالات الدهر

(ديوان شعر نبطي)

قصائد الشيخ : سلطان بن سائم القاسمي

جمع وإعداد : الدكتور أحمد جلال التدمري

الطبعة الأولى : 1988 م - الطبعة الثانية : 2001 م

13 - الإمارات والعولمة

تأليف : مصطفى عزت هبرة

الطبعة الأولى : 2003 م

14 - موسوعة الغوص و اللؤلؤ في مجتمع الإمارات والخليج العربي قبل النفط (المجلد الأول)

- سفته ، مواسمه ، مغاصاته ، بحارته ، أدواته ، نواخذته -

تأليف : مصطفى عزت هبرة

الطبعة الأولى : 2004 م

14 - موسوعة الغوص و اللؤلؤ في مجتمع الإمارات و الخليج العربي قبل النفط (المجلد الثاني)

- مملكة الغوص و اللؤلؤ و أسباب اندثارها

تأليف : مصطفى عزت هبرة

الطبعة الأولى : 2004 م

15 - سلطان بن صقر بن راشد القاسمي

و دوره السياسي في الخليج العربي (1803 م - 1866 م)

تأليف : عيسى راشد سعيد الفلاح

مراجعة : الدكتور أحمد جلال التدمري

الطبعة الأولى : 2005 م

16 - نمط الإمكانيات في النظام الإقليمي الخليجي واستقلالية السياسة الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة (1971 م - 1997 م)

تأليف : يوسف فالح خضر أبو الشيخ

مراجعة : الدكتور علي عبد الله فارس

الطبعة الأولى : 2005 م

17 – ملامح الدراما في التراث الشعبي الإماراتي

تأليف : الدكتور هيثم يحيى الخواجة
الطبعة الأولى (2009م)

18 – الألغاز الشعبية في الإمارات

تأليف : د . عبد الله علي الطابور
الطبعة الثانية (2009م)

19 – العلاقات الحضارية بين شبه الجزيرة العربية والساحل الشرقي لأفريقيا
من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي

تأليف : د. حمد محمد بن صراي
الطبعة الأولى (2009م)

20 – تاريخ الخدمات الصحية في الإمارات المتصالحة (1949 م – 1971 م)

تأليف : فيصل محمد عبدالله المندوس
الطبعة الأولى 1430 هـ – 2009 م

21 – القصة والرواية وأدب الأطفال في دولة الإمارات العربية المتحدة «
مدخل توثيقي

تأليف : علي محمد راشد
الطبعة الأولى 1430 هـ – 2009 م

22 – مجلس حكام الإمارات المتصالحة (1952 م – 1971 م)

تأليف : د. سيف محمد بن عبود البدواوي
الطبعة الأولى 1430 هـ – 2009 م

23 – سياسة بريطانيا التعليمية في إمارات الساحل (1953 م – 1971 م)

تأليف : عبد الله سليمان المغني النقبلي
الطبعة الأولى 1430 هـ – 2009 م

24 – ومضات من المسرح الإماراتي (رؤية الواقع والحلم)

تأليف : الدكتور هيثم يحيى الخواجة
الطبعة الأولى 1431 هـ – 2010 م

25 - **الإتفاقيات السياسية والاقتصادية التي عقدت بين إمارات ساحل عمان وبريطانيا (1806 م - 1971 م)**

تأليف علي محمد راشد

الطبعة الثالثة 2010 م

26 - **الإمامة الإباضية والاستعمار - دراسة حول الاستعمار البرتغالي للخليج العربي وإحياء الإمامة الإباضية بزعامة اليعاربة ومقومات المشروع**

بلال موسى بلال العلي

الطبعة الأولى 2010 م

27 - **منهج أبي شامة المقدسي في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية وذيله) (599 هـ - 665 هـ / 1203 م - 1267 م)**

د . سالم محمد بسيس الطنجي

الطبعة الأولى 2010 م

28 - **تواريخ من الخليج**

تأليف : خالد البسام

الطبعة الأولى 1431 هـ . 2010 م

29 - **النبرة الشعرية في القصيدة المطلقة العربية (قصيدة النثر)**

تأليف : الدكتور دريد يحيى الخواجة

الطبعة الأولى 2011 م

30 - **الهنود في شرق إفريقيا البريطانية (كينيا) في الفترة من (1886 - 1963 م)**

تأليف : الدكتور أحمد محمد عبيد بن بطي الشامسي

الطبعة الأولى 2011 م

31 - **أدب الرسائل في العهد النبوي دراسة في الشكل والمضمون**

تأليف : زيدان عز الدين علوه

الطبعة الأولى 2011 م

32 - **الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر**

تأليف : د . أحمد محمد عبيد بطي الشامسي

الطبعة الأولى 1991 م . الطبعة الثانية 2013 م .

ثانياً : سلسلة الندوات التاريخية .

1 - أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية الأولى

(الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق أفريقيا)

إعداد : الدكتور أحمد جلال التدمري

الطبعة الأولى : 1988 م - الطبعة الثانية : 2001 م

2 - أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية

(الصلات التاريخية بين الخليج العربي و الدولة العثمانية)

إعداد : الدكتور علي عبد الله فارس

الطبعة الأولى : 2001 م

3 - أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية الثالثة

(العلاقات التاريخية بين الخليج العربي و شبه القارة الهندية)

إعداد : الدكتور علي عبد الله فارس

الطبعة الأولى : 2001 م

4 - أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية الرابعة (ندوة جزر السلام)

إعداد : الدكتور أحمد جلال التدمري

الطبعة الأولى : 2001 م

5 - أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية الخامسة (المؤتمر العالمي

السادس لتاريخ العلوم عند العرب)

إعداد : الدكتور علي عبد الله فارس

الطبعة الأولى : 2004 م

6 - أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية السادسة

(العلاقات التاريخية بين الخليج العربي وبلدان آسيا الوسطى والقوقاز)

إعداد : الدكتور أحمد جلال التدمري

الطبعة الأولى : 2006 م

ثالثاً : أدب التراجم

1 - صقر رجل الفكر والعلم

إعداد : ليلى يوسف حداد

الطبعة الأولى : 2009 م

رابعاً : سلسلة كتب الأطفال

1 - مغامرات أحمد بن ماجد (الجزء الأول) جلفار وأسود البحر

تأليف : مصطفى عزت هبرة

الطبعة الأولى : 1998 م

2 - حكاية صندوق

تأليف : د . هيثم يحيى الخواجة

الطبعة الأولى : 2011 م

خامساً : سلسلة الإبداع الأدبي

1 - مسارات الضوء وعناقيد الحب - شعر

تأليف : رهدف المبارك

الطبعة الأولى : 2010 م

2 - مرافئ الكلمات (أبيات في بحار التأملات)

تأليف : سالم سيف الجابر

الطبعة الأولى : 2010 م

3 - جنازة حب وأشياء أخرى

تأليف : عبد الله محمد السبيب

الطبعة الأولى : 2011 م

4 - مع سجع الكهنة

تأليف : سالم سيف الجابر

الطبعة الأولى : 2011 م



مطبعة رأس الخيم الوطني

R.A.K. National Printing Press

sales@rakpress.com

+971 7 228 11 70